العقيدة السلفية

بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية

دكتور سيد عبد العزيز السيلي

دار المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة السلفية

بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية

الطبعة الأولى
١٩٩٣ م ـ ١٤١٣ هـ

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع الباب الأخضر ميدان الحسين القاهرة
ص . ب ٦١ هليوبولس ت ٩١٥٠٨١

المقدمة

إن الحمد للّٰه نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ باللّٰه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّٰه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد ..

فإن الإسلام يجابه اليوم - كما جابه من قبل - معركة المصير ، ومن حقه على أبنائه أن يقفوا على ثغوره منافحين حتى لا يؤتى من قبل أى واحد منهم ، وبقدر البذل والجهاد من أجل هذا الدين يكون المنح والعطاء من رب العالمين .

ولكن اللّٰه لا يتقبل جهدا إلا إن كان خالصا لوجهه وعلى سنة رسول اللّٰه ﷺ فى المنهج والتطبيق .

وإن أى انحراف عن المنهج والتطبيق يبعد أصحابه عن الجادة ويضيع منهم الطريق .

ومن هنا كان أقسى ما يعانيه المنتسبون لهذا الدين هو الوهم أو الغرور ، والوهم هو الخطأ والجهل بحقيقة هذا الدين ، والغرور هو المنزلق الخطر الذى يقدم الإنسان فيه نفسه أو فكره على رب العالمين ، أو رسوله الكريم !!

هذا من ناحية ...

ومن ناحية أخرى لقد طغت المادة وغلب الهوى فى حياة الناس ، فصرفهم ذلك عن طريق أسلافهم الكرام الذين استنارت الدنيا يوما من الأيام بنورهم وتحولت بهم الأرض إلى ربيع مزهر وحياة نابضة مشرقه !!

وفى محاولة لمعرفة المنهج والتطبيق لهؤلاء الأسلاف حيث إنهم يمثلون الفرقة الناجية والطائفة المنصورة .

انهم سلف هذه الأمة ورعيلها الأول الذين كانت عقيدتهم هى العقيدة الصافية، صفاء العسل المصفى ، القوية ، قوة الجبال الرواسى ، المتينة ، متانة العروة الوثقى !!

لقد غير الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنسانى ، فهل لنا أن نعود بالعقيدة إلى منابعها الأصيلة كما كانت عند هؤلاء الرجال ؟ ! وهل لنا أن نعود إلى ما يصلحنا حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ؟!

هل لنا أن نرجع إلى الكتاب والسنة عقيدة ومنهجا وسلوكا ؟! وحينئذ يلتقى الوحى الربانى والعقل الإنسانى معا على ترقية الحياة وسعادة الإنسان ؟!

إن رؤية واقع البشرية اليوم تؤكد مرارة المعاناة ونكد الحياة ولا خروج لهم من ذلك إلا إذا صحت عقيدتهم واستقام سلوكهم . وإن التركيز على موضوع العقيدة يضع اللبنة الأولى فى بناء الفرد الذى يكون المجتمع المسلم الجدير بالظهورر والتمكين فى الأرض .

وما دام الإسلام يخوض معركة المصير ، فإن أبسط قواعد النصر استقامة الصف ووحدة الجماعة .

ومن هنا فلابد من العقيدة السليمة التى تجمع المسلمين على كلمة سواء . ولما كانت العقيدة السلفية هي التى تعصم من التفرق فى الدين وهى التى تجمع المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - كانت هى موضوع البحث والدراسة .

وإنه وإن كان هناك مئات الكتب فى العقيدة إلا انها مخلوطة بسموم ناقعة وخرافات سمجة ، بالإضافة إلى أن معظم الدراسة قاصرة على مذاهب الأشاعرة والمعتزلة . وإغفال جانب السلف .. !

ومن هنا كان لابد أن نضع أيدينا على العقيدة الصحيحة التى تتمثل فى عقيدة السلف ، وكان لزاما أن نجمع ما تفرق منها من المنابع الأصيلة .

ولأول مرة - فيما يبدو - تكون الدراسة المقارنة فى العقيدة السلفية بين

الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية وكان فضل اللّه أن تم ذلك فى وقت تقتضى فيه الحاجة بحث هذا الموضوع حتى يستبين لطلاب العلم والمعرفة العقيدة الصحيحة - « العقيدة السلفية » ممثلة فى هذين الإمامين ليتضح قرب كل منهما من عقيدة السلف ، وإلى أى مدى كان القرب والبعد بينهما .

وكان توفيق اللّه تعالى أن أعاننا على تنسيق المادة على نحو يجمع بين السياق الموضوعى ، إلى جانب العرض والتفسير والمناقشة والتحليل .

ولقد كانت خطة البحث فى هذا الموضوع تتلخص فى النقاط الآتية : -

(أ) المقدمة :

ذكرت فيها أهمية الموضوع والحاجة إليه والأسباب الملحة للبحث فيه .

(ب) التمهيد :

ذكرت فيه نبذة عن نشأة الفرق وبينت أوصاف الفرقة الناجية كما بينها رسول اللّه ﷺ وبينت كيفية تكوينها والإنتماء إليها .

(ج) الموضوع :

وقد عالجته فى أربعة أبواب :

● الباب الأول :

عن الاتجاه السلفى

ويتكون من الفصول الآتية :

١ - الفصل الأول :

التعريف بالسلف وفيه حددت مفهومهم تحديدا شاملا وبينت السلفية الحقيقية الصادقة وصححت الفكر لمن ظن أن السلفية مذهب أنشأه المتأخرون أو مجرد مظاهر يتقمص فيها الظاهريون .

وإنما السلفية هى التطبيق الصادق الواعى لكتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ

وإن السلفية كمنهج هى الكتاب والسنة .

والسلفيون هم العاملون بالكتاب والمطبقون للسنة دون تحريف أو تعطيل ودون تشبيه أو تمثيل . وبينت أن السلف هم الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ممن هم بكتاب الله عاملون وبسنة رسوله ﷺ مستمسكون .

٢ - الفصل الثانى :

عن عقيدة السلف

وقد بينت فيه معنى العقيدة ووضحت فيه عقيدة السلف متطرقا إلى بعض مسائل العقيدة مبينا مذهبهم فيها .

٣ - الفصل الثالث :

عن منهج السلف .

وقد بينت فيه أن منهجهم يتركز فى التمسك بالنصوص ورفض التأويل واتخاذ طريقة القرآن الكريم فى الإستدلال .

وقد ناقشت جميع المسائل التى تعرضت لها وبينت مدى موافقتها للكتاب والسنةوآثار الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان .

● الباب الثانى :

عن الإتجاه السلفى عند الإمام ابن حنبل

ويتناول الفصول التالية :

الفصل الأول : عن التعريف بالإمام ابن حنبل .

الفصل الثانى : عن عقيدته .

الفصل الثالث : عن منهجه .

واتضح أن عقيدته ومنهجه هى عقيدة السلف ومنهجهم .

● الباب الثالث :

عن الإتجاه السلفى عند الإمام ابن تيمية .

ويتكون من الفصول التالية :

الفصل الأول : عن التعريف بالإمام ابن تيمية .

الفصل الثانى : عن عقيدته .

الفصل الثالث : عن منهجه .

وتبين من خلال البحث مدى قربه من منهج السلف وعقيدتهم .

● الباب الرابع :

عن المقارنة بين الإمامين ابن حنبل وابن تيمية .

ويتكون من الفصول التالية :

الفصل الأول : عن المقارنة بينهما فى المنهج .

الفصل الثانى : عن المقارنة بينهما فى التطبيق .

الفصل الثالث : المسائل المتفق عليها والمختلف فيها وتحقيقها .

وقد اتضح من خلال البحث توافق الإمامين فى المنهج والتطبيق وقد تبين مع التحقيق والتحليل أنه وإن كان الإمام ابن تيمية له مسائل انفرد بها عن الإمام ابن حنبل ، فما ذاك إلا لأنه لم يكن نسخة طبق الأصل منه ، ومع ذلك لم تبعده هذه المسائل غن السلفية التى دعا إليها ونادى بها وجعلها منهج حياة ووسيلة للنجاة !

(د) والخاتمة :

ذكرت فيها نتائج البحث وتوصياته وأهم المصادر والمراجع .

وفى النهاية أرجو أن أكون بهذا الجهد قد أديت بعض واجب ملقى على كاهلى نحو اللّه عَزَّ و جَلَّ .

وأرجو أن يكون هذا « البحث » وقفة حق ، قد ترضى الناس وقد لا ترضيهم ولكن عزائى أن الله يرضى عنى !!

ويعلم الله أن رضوانه كان نصب عينى وأنا أسطر هذه المباحث وعلى الله قصد السبيل .

واعتذر عن كل ناحية جانبنى فيها الصواب فالكمال لله وحده والعصمة للأنبياء والمرسلين .

وما دام فى العمر بقية فانى راجع عن كل خطأ يغضب الله منى ، وأن أخذ الله أمانته قبل أن أعرف خطئى وأعلن رجوعى فسأقول ما قاله الإمام الشافعى رحمه الله (إذا صح الحديث فهو مذهبى ، وإذا رأيتم قولى يخالف قول رسول الله ﷺ فاضربوا بقولى عرض الحائط) .

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذه الرسالة نورا على الدرب لهداية الحيارى والسالكين ، وأن يتقبلها بالقبول الحسن وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وان يجعلها ذخرا لى فى يوم لقياه ، وأن يدخر أجرها ليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نشأة الفرق ، والفرقة الناجية

ينبغى الإشارة إلى نشأة الفرق فى هذه الأمة وقد صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ عن افتراقها .

وليست مهمة البحث التأريخ لهذه الفرق وتحقيق مذاهبها فذلك موجود فى مظانه وليس ذلك من طبيعة الدراسة التى كلفت ببحثها . وسوف يعنى فى هذا التمهيد بالوقوف على الفرقة الناجية .

لأن النجاة بغية كل مسلم وغاية كل إنسان .

فما هى هذه الفرق التى « كلها » فى النار حتى نتقيها ؟!

وما هى الفرقة الناجية حتى ننتمى إليها وندخل فيها ؟!

فإن قيل : هم من كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ والصحابة رضى الله عنهم فعندئذ يجب بيان أصولهم .

وإن قيل : إن الصحابة ومن تبعهم بإحسان هم سلف الأمة وأهل السنة . فيلزم توضيح منهجهم واتجاههم .

وقبل أن ندخل فى بيان هذه الفرق وما ورد فى تفرقها ينبغى أن أشير إلى الحديث المأثور فى إفتراق الأمة :

(عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة) (١) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الأيمان باب ما جاء فى إفتراق هذه الأمة (٢٥/٥) عن أبى هريرة وقال الترمذى حديث صحيح .

(وعن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ :

ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا من هى يا رسول اللّه ؟ قال ما أنا عليه وأصحابى) (١) .

(وعن أنس عن النبى ﷺ قال أن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة) .

قال الإمام البغدادى (٢) للحديث الوارد فى افتراق الأمة أسانيد كثيرة (٣) وقد رواه عن النبى ﷺ جماعة من الصحابة كأنس بن مالك وأبى هريرة وأبى الدرداء وجابر وأبى سعيد الخدرى وأبى بن كعب وعبد اللّه بن عمرو بن العاص وأبى أمامة وغيرهم . وقد روى عن الخلفاء الراشدين أنهم ذكروا افتراق الأمة بعدهم فرقا وذكروا أن الفرقة الناجية منها فرقة واحدة وسائرها على الضلال فى الدنيا والبوار فى الآخرة .

وقد اشتهر حديث الفرق فى كثير من السنن والمسانيد ولفظه :

قال صلى اللّه عليه وسلم : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة . وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة . وفى لفظ على ثلاث وسبعين ملة وفى رواية قالوا يا رسول اللّه من الفرقة الناجية؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى وفى رواية : قال هى الجماعة يد اللّه على الجماعة) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الإيمان باب ما جاء فى إفتراق الأمة (٢٦/٥) عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص . وهو ضعيف .

(٢) هو الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى من أئمة الأصول وأعيان فقهاء الشافعية ت ٤٢٩ هـ .

(٣) الفرق بين الفرق البغدادى ص ٥

والحديث بطرقه وألفاظه يدل على افتراق أمة محمد ﷺ كما افترقت الأمم السابقة (١) .

والمقصود بالافتراق هنا هو الإختلاف فى أصول العقيدة فان هذا هو السبب الحقيقى فى النجاة أو الهلاك .

ولقد وقع ما تنبأ به المعصوم صلى الله عليه وسلم . وافترقت الأمة من بعده فرقا وأحزابا وأصبح كل حزب بما لديهم فرحون .

فما هى أهم الأمور التى اختلف فيها المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ . وكيف نما الخلاف وترعرع وكيف تفرقت الأمة إلى تلك الفرق . ومن هى الفرقة الناجية منهم ؟

سيتبين هذا بإيجاز وتركيز فيما يلى :

اختلاف الأمة (٢) :

كان المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد فى أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقا وأضمر نفاقا . وأول خلاف وقع منهم إختلافهم فى موت النبى ﷺ فزعم قوم أنه لم يمت وإنما رفعه الله تعالى إليه كما رفع عيسى عليه السلام .

وزال هذا الخلاف حين تلا أبو بكرعليهم قوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ﴾ .

ثم قال لهم من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حى لا يموت .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) هذا الموضوع ملخصا من الملل والنحل للشهرستانى والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم والفرق بين الفرق للبغدادى والواسطية . لابن تيمية وضحى الإسلام لأحمد أمين وتاريخ المذاهب لأبى زهرة .

ثم اختلفوا بعد ذلك فى موضع دفنه صلى الله عليه وسلم فأراد أهل مكة رده إلى مكة لأنها مولده ومبعثه وقبلته وأراد أهل المدينة دفنه بها لأنها دار هجرته .

وزال هذا الخلاف بما رواه أبو بكر لهم عن النبى ﷺ (إن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون) فدفنوه عليه الصلاة والسلام فى حجرته بالمدينة .

ثم اختلفوا بعد ذلك فى الإمامة .

فأذعنت الأنصار إلى البيعة لسعد بن عبادة . وأذعنت قريش إلى البيعة لأبى بكر ثم أذعن الجميع لقوله عليه الصلاة والسلام الأئمة من قريش ورضوا بأبى بكر خليفة .

ثم اختلفوا فى توريث التركات عن الأنبياء ثم روى أبو بكر رضى الله عنه (إن الأنبياء لا يورثون) .

ثم اختلفوا فى ما نعى وجوب الزكاة . ثم اتفقوا على رأى أبى بكر بقتالهم . ثم اشتغلوا بقتال المرتدين ثم قتال الروم والعجم . وفتح الله لهم الفتوح وهم فى أثناء ذلك كله على كلمة واحدة فى أصول الدين . وكان اختلافهم فى الفروع يسيرا كاختلافهم فى ميراث الجد مع الأخوة والأخوات مع الأب والأم أو مع الأب ولكن لم يورث اختلافهم فى الفروع تضليلا ولا تفسيقا .

وكانوا على هذا الوفاق فى أيام أبى بكر وعمر والشق الأول من خلافه عثمان . ثم اختلفوا فى أمر عثمان لأشياء نقموها منه كتوليته العمال من ذوى رحمه . فأقدم لأجلها ظالموه على قتله ، ثم اختلفوا فى قاتليه وخاذليه ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى شأن على وأصحاب الجمل ، وفى شأن معاوية وأهل صفين ، وفى حكم الحكمين .

ثم حدث فى زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية فى القدر والاستطاعة من معبد الجهنى وغيلان الدمشقى والجعد ن درهم وتلميذه جهم بن صفوان فى مطلع القرن الثانى الهجرى .

وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وأقرانهم .

وأوصوا أخلافهم بالا يسلموا على القدرية ولا يصلوا على جنائزهم .

وقد اتفق المؤرخون للإسلام أن الجعد بن درهم هو أول من عارض الكتاب والسنة بالرأى وهو أول المؤولين فى الصفات الألهية .

واشتهر عنه قوله : (إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما) ثم قال بعد ذلك بخلق القرآن وأيده فى كل ذلك تلميذه جهم بن صفوان وسمى أتباعه بالجهمية .

وكثير من الحفاظ والمؤرخين ينسبون إلى الجعد أنه أول من أسس فكرة تعطيل صفات الله تعالى وتأويل النصوص الدالة على اثباتها .

ثم جاء المعتزلة بعد ذلك حين اعتزل واصل بن عطاء وعمر بن عبيد مجلس الحسن البصرى لقولهما بالقدر (١) والمنزلة بين المنزلتين (٢) وسموا بالمعتزلة مع من تبعهم .

ثم تفرق الخوارج بعد ذلك عشرين فرقة كل فرقة تكفر غيرها منهم الروافض . وقد افترقت أربعة أصناف .

زيدية وامامية وكيسانية وغلاه .

وافترقت الزيدية فرقا والإمامية فرقا والغلاة فرقا إلا أن جميع فرق الغلاة خارجون عن الإسلام . والزيدية والأمامية داخلون فى فرق الأمة .

• وأما الخوارج :

فمنهم المحكمة والأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والأباضية ومنهم

---

(١) أى أن العبد يخلق أفعال نفسه .

(٢) أى أن العاصى فى منزلة بين الإيمان والكفر .

اليزيدية وهى ليست من فرق الإسلام لقولهم بأن شريعة الإسلام ستنسخ فى آخر الزمان . وكذلك الميمونية لا باحتهم نكاح بنات البنات وبنات البنين .

● وأما القدرية :

فقد افترقت عشرين فرقة كذلك كل فرقة تكفر سائرها ومنهم الواصلية والعمرية والحايطية والهذيلية والنظامية والثمامية والخياطية والحمارية والكعبية والجبائية الخ . وهى مع الحصر ثنتان وعشرون فرقة منها ثنتان ليستا من فرق الإسلام وهما الحايطية والحمارية .

● وأما المرجئة :

فثلاثة أصناف صنف منهم قالوا بالإرجاء فى الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية فهم معدودون فى القدرية . ومنهم من مالوا إلى قول جهم فى الأعمال والأكساب فهم جهمية .

ومنهم من خلصوا فى الأرجاء وهم خمس فرق :

يونسيه .. وغسانية .. وثوبانيه .. وتومنية .. ومريسية .

وأما البخارية فهم أكثر من عشر فرق لكنها ترجع فى الأصل إلى ثلاث فرق : برغونية .. وزعفرانية .. ومستدركة .

وأما البكرية والضرارية والجهمية فكل واحدة منها فرقة واحدة .

● وأما الكرامية :

فثلاث فرق : حقاقية .. وطرايفية واسحاقية . لكنها أصولها واحدة فعدت فرقة واحدة .

فهذه جملة الثنتين والسبعين فرقة .

وأما الفرقة الثالثة والسبعون : فأهل السنة والجماعة .

والسنة هى الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات .

والجماعة المراد بهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . ولم يشتهروا ببدعة ولم يتهموا فى الدين .

وهم الفرقة الناجية المنصورة أخذا من قوله عليه الصلاة والسلام (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) (١) .

وإلى هنا عود على بدء لنسأل مرة أخرى ما هى الفرقة الناجية ؟

وإذا حددها الرسول ﷺ بأنها ما كانت على ما كان عليه وأصحابه .

فأى شئ كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

إن الرسول ﷺ أوتى وحيين ، أوتى القرآن ومثله معه وهى السنة . والصحابة رضى الله عنهم ما زادوا على ذلك وما نقصوا وفى اليوم الذى رأى فيه الرسول ﷺ صحيفة من صحف أهل الكتاب مع أمير المؤمنين عمر غضب عليه الصلاة والسلام وأكد أن فى القرآن الكفاية وأنه مهيمن على الكتب كلها .

وأنه بيان للناس وأنه ذكر للعالمين وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفيه مما ينفع البشرية ويغنيها عن كل شئ ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شئ ﴾ .

وكذلك جاءت السنة مثل الكتاب المبين تفسر وتبين ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾ ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ وكذلك الصحابة سلموا أنفسهم وآراءهم لكتاب الله وسنة رسوله تسليما . ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأعتصام باب قول النبى ﷺ « لا تزال » إلى « ٢٩٣/١٣ عن المغيرة » .

فكانت عقيدتهم أن هذا الدين لا يؤخذ بالرأى لأنه أكبر وأجل إنه وحى ما تلقاه الرسول إلا بالعناء والمشقة والعرق وبلوغ الجهد وما حمل إلا بواسطة الأشداء من ملائكة الله ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ولئن كان الدين فى الكتاب والسنة فهل ثبت عن الصحابة استعمال الرأى فيهما ؟ أم أن الكتاب والسنة فوق مستوى العقل فهما والوحى غيب وليست الغيبيات من مجالات العقل حتى يلج فيها ويتحكم فيها ويحكم عليها فيعطلها أو يؤولها أو يزيد عليها أو ينقص منها .

فإذا ثبت أن الصحابة لم يغيروا ولم يعطلوا ولم يؤولوا شيئا من الكتاب ولا من السنة .

وإن ثبت أن ذلك هو سبيل النجاة ووسام الفرقة المنصورة فعلى الفرق الأخرى أن تراجع نفسها ما دام هناك ميزان ومعيار تعرض عليه المعتقدات ليبين صحيحها من فاسدها فكل ما خالف هذه المعايير فهو مردود على أصحابه وغير مقبول منهم لقوله صلى الله عليه وسلم (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (١) .ومن هنا فلا يحق لها أن تدعى أنها الناجية وتفرح بما لديها .

فليس الحكم للأهواء والشهوات وإنما الحكم لله ورسوله .

وقد أخبر الرسول ﷺ : أنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب (٢) بصاحبه لا يبقى من عرق ولا مفصل إلا دخله) (٣) .

واخبر عليه الصلاة والسلام أنه لا بد من تطويع الهوى لما جاء به وقد أقسم فقال : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ١٣٤٣/٣ عن عائشة .

(٢) المراد به داء الكلب .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب شرح السنة ٥.٣/٢ عن معاوية بن أبى سفيان .

(٤) رواه البنوى والنووى نقلا عن كتاب الفرق للبغدادى ولم أعثر عليه

وبين أن الأعتصام بالله هو العاصم والهادى إلى الصراط المستقيم ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

ومن هنا كان المعيار هو الاعتصام بالكتاب والسنة اعتصاما كاملا كما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الذين اتبعوا آثاره ظاهرا وباطنا . اتباع صدق ويقين وتطبيق وسلوك .

وهكذا من سلك سبيلهم واتبع آثارهم إلى قيام الساعة .

وحينئذ تكون النجاة ويتم الظهور وتتحقق الطائفة المنصورة الذين قال فيهم صلوات الله عليه وسلامه (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) (٢) .

وتتحقق الفرقة الناجية كما قال صلى الله عليه وسلم (ما أنا عليه وأصحابى) (٣) .

وإن هذه الطائفة أو الفرقة لها مبادئ وأسس واتجاهات وبقدر ما تكون قريبة مما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه يكون فلاحهم ونجاتهم .

وإذا طرح السؤال مرة أخرى ما هى الفرقة الناجية حتى تنتمى إليها وندخل فيها ؟

فإن قيل هم من كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه . وجب علينا معرفة أصولهم ومنهجهم .

وإن قيل أن الصحابة ومن تبعهم بإحسان هم أهل السنة وسلف الأمة فيلزم حينئذ توضيح أسسهم واتجاههم .

---

(١) آل عمران : ١٠١

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام باب قول النبى ﷺ لا تزال الخ « ٢٩٣/١٣ » عن المغيرة .

(٣) أخرجه الترمذى ٢٦/٥ عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

وفى محاولة للتعريف بهؤلاء السلف ومعرفة أصولهم حتى يكون ذلك ميزانا يوزن به المنتسبون إليهم ، ويعرف به مدى القرب والبعد منهم – كان هذا البحث الجليل !!

ومع عظمة البحث ، وتواضع الباحث ، أستعين بالله العظيم أن يجعلنى أهلا لذلك .

* * *

الباب الأول

الاتجاه السلفى
ويتناول الفصول الأتية :

الفصل الأول : التعرف بالسلف
الفصل الثانى : عقيدتهم
الفصل الثالث : منهجهم

الفصل الأول
التعريف بالسلف

• السلف من الناحية اللفظية :

يطلق لفظ السلف على الجماعة المتقدمين ومنه قوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ (١) . ويقرأ سلف بضم السين واللام قال الزجاج سلفا جمع سليف أى جمعا قد مضى .

وقيل الأمم السالفة : أى الماضية من سلف أى مضى والسالف المتقدم .

وقيل السلف ما قدمه العبد من عمل صالح أو ولد فرط يقدمه (٢) .

وقيل السلف من تقدم من الآباء وذوى الفضل .

ومنه قول الشاعر (٣) :

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

أراد أنهم تقدمونا وقصد سبيلنا عليهم أى نموت كما ماتوا فنكون سلفا لمن بعدنا كما كانوا سلفا لنا (٤) .

• السلف من الناحية الاصطلاحية :

اصطلح العلماء على أن السلف : اسم لكل من يقلد مذهبه فى الدين ويتبع

---

(١) من سورة الزخرف آية ٥٦

(٢) لسان العرب : ابن منظور صـ ١٥٨ جـ ٩

(٣) طفيل الغنوى من المرجع السابق ولم أعثر على تجمته .

(٤) انظر معاجم اللغة : القاموس المحيط صـ ١٥٣ جـ ٦ ولسان العرب صـ ١٥٨ جـ ٩ .

أثره كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل فانهم سلف لنا وأما الصحابة والتابعون فانهم سلف لهم .

وقد ورد أيضا قريبا من هذا التعريف أن المراد بالسلف كل من يقلد ويقتفى أثره كأبى حنيفة وهو من أجلاء التابعين . والصدر الأول من التابعين يسمون السلف الصالح ومنه حديث مزجج : « نحن عباب سلفها » [1] .

وقد يطلق السلف شاملا لجميع المجتهدين فى الدين [2] .

وعلى هذا الاصطلاح يدخل فى السلف كل مجتهد من علماء الإسلام فى أى عصر من العصور حتى ولو لم يكن من الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين رضى الله عنهم أجمعين .

• السلف من الناحية التاريخية :

وقد لجأ بعض العلماء حين التعريف بالسلف أن يحددهم زمنيا بأنهم من عاشوا قبل القرن الخامس الهجرى [3] .

وقيل بأنهم ظهروا فى القرن الرابع الهجرى وكانوا من الحنابلة وزعموا أن جملة من آرائهم تنتهى إلى الإمام أحمد بن حنبل الذى أحيا عقيدة السلف وحارب دونها ثم تجدد ظهورهم فى القرن السابع الهجرى على يد شيخ الإسلام ابن تيمية ثم ظهروا فى القرن الثانى عشر الهجرى على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية [4] .

ويحدد الغزالى السلف بالصحابة والتابعين [5] .

---

(١) تاج العروس للزبيدى مادة السلف .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانونى مادة « سلف » .

(٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجورى صـ ١٧٨

(٤) تاريخ المذاهب لأبى زهرة . صـ ٢١١

(٥) الجام العوام . للغزالى صـ ٥

والبعض يحددهم أيضا بالصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى [1] .

والبعض يحددون السلف بالصحابة والتابعين وتابعى التابعين [2] .

ولعل هؤلاء يستندون إلى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن عمران بن حصين - رضى الله عنه - يقول رسول الله ﷺ : « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن [3] .

● السلف من الناحية العقدية :

المراد بهم الصحابة والتابعون وتابعوهم والعلماء بأصول السنة وطرائقها ، وهم حراس العقيدة ، وحماة الشريعة الواعون لأصولها ، العاملون بها قولا وعملا واعتقادا ظاهراً وباطنا [4] .

والسلفيون هم الذين قالوا نؤمن بما آمن به المسلمون الأوائل أصحاب الرسول ﷺ وما آمن به أئمة الدين المشهود لهم بالخير والبر والتقوى والفهم السليم لدين الله عَزّ و جَلّ [5] فهم الذين سلكوا طريقهم واقتفوا أثرهم .

وهم المستمسكون بالكتاب والسنة وأصحاب الحديث المقتفون شرع الله ورسوله .

والسلفى هو : من سلك طريقهم نسبة إليهم فى ارجاع الأحكام الشرعية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) العقائد السلفية لأبن حجر آل ابو طامى صـ ١

(٢) استحالة المعية بالذات للشنقيطى صـ ٧٤

(٣) البخارى : صحيحه : ٢/٥ ط دار الشعب القاهرة .

(٤) هقيدة السلف الصابونى صـ ٢٣٦

(٥) صلة دعوة الشيخ محمد بن هبد الوهاب بمذهب السلف للشيخ الغزالى عيد صـ ٣

وقيل السلف هم الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ . وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيهاوأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها تصديقا وعملا وحبا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها (١) .

وقيل هم ما كانوا على مثل ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه (٢) .فهم الفرقة الناجية وهم الفرقة المنصورة الذين قال رسول الله ﷺ فيهم (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين) .

● السلف والخلف :

الخلف هم الذين خلفوا المسلمين الأوائل واختلفوا معهم فى المنهج والتطبيق وتأثروا بمناهج الفلاسفة والمتكلمين فقدموا العقل على النقل وصرفوا النصوص عن ظواهرها وعدلوا عن الوقوف عند ظاهر النص . وتعللوا فى عدولهم عن طريق السلف بأن طريق السلف سليم ولكنه غير عليم فجعلوهم بمنزلة الأميين وسموهم خطأ مفوضين . مع أن حقيقة السلف أنهم فقهاء فى المعانى يفقهونها ويعلمونها أكثر مما يعلمها غيرهم ومع ذلك يقولون عنهم : « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » (٣) .

وهذا التعبير ليس صوابا إذ لا يعقل أن يكون الخلف أعلم من السلف وأحكم منهم على اعتبار أن السلف هم الصحابة رضى الله عنهم ومن تبعهم باحسان فهل يتصور أن أحدا أعلم من الصحابة وأحكم فى أمور الدين ولو أنفق الواحد ممن خلفهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . بل لو وزن إيمان أحدهم كأبى بكر بإيمان الأمة كلها لرجحت كفته .

---

(١) عقيدة الفرقة الناجية عبد الله بن حجاج فى المقدمة » .

(٢) المرجع السابق صـ ٦

(٣) الفتوى الحموية لابن تيمية صـ ٤

يكفى أنهم نهلوا من موارد الوحى الأمين وعاشوا خير القرون ويكفى أن النجاة لمن اقتفى أثر رسول الله ﷺ إن ولذا فالصواب أن يقال إن السلف أسلم وهم أعلم وأحكم .

● السلف وأهل السنة :

أهل السنة هم المتبعون لآثار رسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا ، المقتفون سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يؤثرون كلام الله على ما عداه ، ويقدمون هدى رسول الله ﷺ على كل هدى .

ويسمون أهل الكتاب والسنة لتمسهكم بالكتاب والسنة .

ويسمون أهل السنة والجماعة لأنهم على كتاب الله وسنة رسوله - يجتمعون ولا يتفرقون (١) .

يقول ابن حزم أهل السنة هم أهل الحق كالصحابة وكل من سلك منهجهم من خيار التابعين ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم (٢) .

وبهذا لا يخرج تعريف أهل السنة عن تعريف السلف .

حيث قد عرفنا أن السلف هم العاملون بالكتاب المستمسكون بالسنة المشتغلون بتحصيل الأحاديث وتنقيحها ولا يعدلون عن النص إلى ما سواه .

وكأن السلفيين بهذا هم أهل السنة أنفسهم لأنه لما كان السلفيون بكتاب الله عاملين وبسنة رسوله آخذين كانوا بذلك مع أهل السنة متفقين غير مفترقين .

● السلف وأهل الحديث :

أهل الحديث هم الذين يعتنون بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يفضلون على النص رأيا ولا قياسا ولا مذهبا بل ان

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية صـ ١٥٧ جـ ٣

(٢) الفصل لابن حزم صـ ١٠٧ جـ ٢

مبدأهم يتمثل فى قول الشافعى رضى اللّه عنه : إذا وجدتم لى مذهبا ووجدتم خبرا على خلاف مذهبى فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر [1] .

فالحديث الشريف هو الأساس والنص هو الميزان فإن صح الحديث فهو المذهب وإن ثبت النص فلا يجوز العدول إلى سواه .

وذلك هو مبدأ أهل السنة .

وكذلك قال الأمام أحمد بن حنبل عن أهل السنة : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم » [2] .

ولما كان السلف هم أهل السنة كما سبق .

وأهل السنة هم أهل الحديث كما نص عليه الإمام أحمد .

فنخلص من هذا أن السلف هم أهل الحديث كما ثبت أنهم أهل السنة .

ذلك أن مدار الدين كله فيما صح عن النبى ﷺ مما جاء به عن اللّه عَزَّ وجَلَّ . فإن ثبت أن السلف هم أهل السنة فلأنهم يستمسكون بها ولا يحيدون عنها . وإن ثبت أن أهل الحديث هم أهل السنة فذلك لأنهم أهل الحديث يتحرون ما جاء عن رسول الله ﷺ دون زيادة أو نقصان ، حيث إن الزيادة فى الدين كالنقصان فيه .

ومن هنا فالسلف وأهل السنة وأهل الحديث متفقون لا يختلفون ويلتقون ولا يفترقون .

* * *

---

(١) الملل و النحل للشهرستانى صـ ٦ جـ ٣

(٢) شرح العقيدة السلفية للإمام الصابونى صـ ٣

الخلاصة

نخلص من كل ما تقدم إلى النتائج التالية :

١ - لا ينبغى الاكتفاء - حين التعريف بالسلف - بالناحية اللفظية أو الزمنية فحسب كما لا ينبغى الاكتفاء بهما عن الناحية العقدية .

٢ - ان أطلقنا لفظ السلف على من مضى فليس كل من مضى سلفيا ، وإن أطلق على أصحاب القرون الثلاثة الأولى فإن الحديث يحتمل قرنارابعا حيث شك الراوى فقال لا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة .

٣ - ان من حدد السلف - تاريخيا - بالقرون الخمسة الأولى لا دليل لديه .

٤ - ان من قصر السلف على الصحابة والتابعين فهناك من عمل بعملهم فلا يصح الاقتصار عليهم .

٥ - إن من عرفهم بأنهم أهل الحديث يرد عليه أنه ليس هناك فرق بين أهل الحديث وأهل السنة فليس تعريفهم بأنهم أهل الحديث أولى من تعريفهم بأنهم أهل السنة .

ومن هنا .. فينبغى أن يتجاوز مفهوم السلف المصطلحات اللفظية والحدود الزمنية ويستند إلى القاعدة العامة (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) [١] .

وهذا يعنى ترسم خطى خير أمة أخرجت للناس فيما كان لها من عقيدة وأخلاق وسلوك . أى أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحا جامعا يطلق على طريقة السلف فى تلقى الإسلام وفهمه وتطبيقه ولم يعد محصورا فى مصطلحات لفظية وحدود

---

(١) من كلام الإمام مالك رضى الله عنه .

تاريخية ولذا فإن مفهوم السلفية حينئذ يطلق على الملتزمين بكتاب الله تعالى ، وما ثبت من سنة رسول الله ﷺ التزاما كاملا .

بحيث يصح وصفهم بأنهم المقتدون برسول الله ﷺ تنفيذا للأمر بالأسوة الحسنة فى قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ [1] .

والسلفية كمنهج هى طريقة الكتاب والسنة .

والسلفيون هم العاملون بالكتاب والمطبقون للسنة تطبيقا صافيا صادقا دون تحريف أو تعطيل ودون تشبيه أو تأويل .

ومن هنا يتضح أن مدلول السلفية أصبح إصطلاحا جامعا يطلق على طريقة السلف فى تلقى الإسلام وفهمه وتطبيقه .

وبهذا يمكن تعريف السلف بأنهم الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ممن هم بكتاب الله عاملون ، وبسنة رسوله مستمسكون ، وبتحصيل الأحاديث وتمييز صحيحها عن غيره يعتنون . وما ثبت من النصوص فهم عنه لا يعدلون ، وهم له مطبقون . مع الفهم للمعنى والتفويض فى الكيف [1] .

وينبغى التنبيه على حقيقة هامة وهى أنه ينسب خطأ إلى السلف أنهم مفوضون مع أن الحقيقة أنهم فاهمون للمعنى ، ومفوضون فى الكيف فقط . وليسوا مفوضين على الإطلاق .

والمراد بالفهم للمعنى : هو تدبر النص وتفسيره وفقهه للإحتراز عن الأميين فى فهم كتاب الله الذين قال الله فيهم : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) .

والمراد بالتفويض فى الكيف عدم التكلف فيما لا طائل تحته مما هو فوق الطاقة البشرية كقول الإمام مالك حين سئل عن الاستواء .. (قال الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) : والمراد بالتطبيق هنا التطبيق

---

(١) من سورة الأحزاب آية ٢١

(٢) أى التفويض فى العلم بالكيف فحسب .

الحقيقى لا الصورى أى كونه حقيقة لا تصنعا وإيمانا لا نفاقا ، وعن علم لا عن جهل ، وعن فقه لا عن جمود ، ومن هنا نخلص إلى أنه حين تكون المتابعة لرسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم متابعة تامة وراشدة ، ومتابعة واعية وفاقهة ، ومتابعة مخلصة وصادقة ، حينئذ تكون السلفية الحقيقية ، بمعناها الحقيقى .

وحينئذ يكون المنتسبون للسلف صادقين .

وبهذا المعيار يعرف السلف والسلفيون .

فالسلف هم خير القرون الثلاثة الذين لم يرموا ببدعة ولم يتهموا فى الدين وكان معتقدهم موافقا للكتاب والسنة .

وأما السلفيون فهم من كانوا على طريقة السلف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (١) .

أو بتعبير أخر : إذا انقسم الناس إلى احرار فى تفكيرهم ومحافظين ، فيمكن أن يقال أن السلف هم المحافظون ، الذين يقفون عند النص ويعلمونه ولا يهملونه ، ويلتزمون به ولا يتجاوزونه ، أو يؤولونه .

ومن هنا يطلق الاتجاه السلفى على من ينهج هذا المنهج ، ويلتزم بهذا السلوك دون زيادة أو نقصان (٢) .

* * *

---

(١) خلاصة : بحث عن أهل السنة فى رسالة الماجستير للكاتب .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ملخصا .

الفصل الثانى
عقيدة السلف

● **معنى العقيدة :**

العقيدة من عقد بمعنى معقودة (بمعنى اسم المفعول) عقد الحبل والبيع والعهد يعقده : شد . والعقد : العهد [١] فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى . وذلك لاستقرارها فى القلب ورسوخها فى الأعماق .

والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا إتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان اللّه به وأصله من عقد الحبل ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم [٢] .

وقيل هى الإيمان بحقيقة معينة إيمانا قطعيا لا يقبل الشك [٣] .

وقيل هى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده [٤] .

وقيل عقيدة الإنسان مذهبه [٥] أى ما يؤمن به ويراه عن اقتناع قلبى أكيد وقيل العقيدة مرادفة للإيمان . وقد تكون هذه العقيدة عقيدة دينية يؤمن معتقدها بأفكار وآراء معينة تتصل باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقد تكون عقيدة سياسية أو أقتصادية .

---

(١) القاموس المحيط صـ ٣١٥ جـ ١

(٢) شرح العقيدة الواسطية د . هراس صـ ١٣

(٣) رسالة فى العقيدة جامعة اكسفورد نقلا عن الإسلام وتحديات العصر د . عبد الغنى عبود صـ ١٧

(٤) المعجم الوسيط صـ ٦٢ . جـ ٢

(٥) العقيدة للشعراوى صـ ١٣

وقد تكون هذه العقيدة مبنية على العقل والمنطق أو على الخرافة والوهم وقد تكون متفقة مع الدين وقد تكون مناقضة له [1] .

● العقيدة والإعتقاد :

والإعتقاد مصدر اعتقد كذا أى اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان الله به . وأصله من عقد البيع ثم استعمل فى التعميم .

● والإعتقاد الجازم :

فهو يطلق على التصديق وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين .

وقيل العقيدة هى الضابط الذى يحكم التصرفات ويوجه السلوك . فهى دماغ التصرفات [2] .

وقيل العقيدة هى الأمر الذى تصدق به النفس ويطمئن إليه القلب ويكون يقينا عند صاحبه لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب [3] .

وقيل العقيدة من (عقد الحبل) نقيض حله .

ومادة عقد فى اللغة مدارها على اللزوم والاستيثاق ففى القرآن الكريم ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ [4] وتعقد الإيمان أن يكون بقصد القلب وعزمه بخلاف اللغو وهو ما يجرى على اللسان بدون قصد .

والعقود : أوثق العهود فهو شديد الإحكام قوى التوثيق [5] .

وتقول العرب : اعتقد الشئ صلب واشتد [6] .

وقيل العقيدة هى ما يجب شرعا اعتقاده [7] .

---

(١) العقيدة الإسلامية د . عبود عبد الغنى صـ ١٨

(٢) العقيدة للشعراوى صـ ١٣

(٣) مجموع الرسائل لابن تيمية صـ ٤٢٩

(٤) المائدة آية ٨٩

(٥) فتح القدير للشوكانى صـ ٧١ جـ ٢

(٦) لسان العرب مادة عقد

(٧) شرح المقاصد للتفتازانى صـ ١٢

الخلاصة

مما سبق يتضح لنا مدى صلة المعنى اللغوى بالمعنى الاصطلاحى فى العقيدة .

فالعهد والحكم والأيمان كلما اشتد فى القلب كان عقدا .

والعقد والعقيدة هى الشئ الموثق فى القلب مع الجزم واليقين .

وعلى ذلك يمكن أن يقال : العقيدة هى ما يجب شرعا اعتقاده والتصديق به تصديقا جازما لا شك فيه ولا ريب . والمراد بالعقيدة هنا عقيدة السلف أو العقيدة السلفية التى هى عقيدة أهل السنة والجماعة (١) المتمثلة فى الإعتقاد الجازم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والمراد بالسلف : المستمسكون بالكتاب والسنة المؤمنون بما آمن به المسلمون الأوائل ممن لم يرموا ببدعة (٢) أو يتهموا فى الدين وكل من سار على مثل ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى قيام الساعة.

---

(١) المراد بالسنة هنا الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات .والمراد بالجماعة : المجتمعون على الحق (أنظر شرح العقيدة الواسطية د . هراس . صـ ١٤) .

(٢) إختلف العلماء فى تعريف البدعة وسنختار من هذه التعريفات أوضحهاوأقربها .

فقيل البدعة : هى الحدث فى الدين بعد الاكمال وما استحدث بعد النبى ﷺ من الأهواء والأعمال . وقيل هى ما أحدث على خلاف الحق المتلقى عن رسول الله ﷺ وجعل دينا . وقيل هى ما ليس لها أصل فى كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا غيره .

وقيل هى الفعلة المستحدثة فإن كانت فى الدين فهى شرع لم يأذن به الله .

وقيل هى مالم تكن على عهد رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين من العبادات .

وقيل هى كل ما يخالف تعاليم الدين ومبادئه الأساسية .

والخلاصة أن التعريفات متقاربة ويمكن أن نجمع بينها فى إيجاز بأن البدعة هى إحداث أمر ليس له أصل فى الدين . أما البدعة فى الدنيا فلا شئ فيها ولا مانع منها مادامت لم تخالف الدين . (أنظر الباعث على أفكار البدع والحوادث لأبى شامة والإعتصام للشاطبى والمنار للشيخ محمد عبده والسنن والمبتدعات للشقيرى .

● عقيدة السلف [١] فى التوحيد [٢] :

يعتبر التوحيد أهم القضايا العقدية فبه يبدأ المرء دخوله فى الإسلام وبه يختم له بالسعادة بعد الموت . وهو أول ما يجب معرفته .

وإذا كان هو أول ما يدخل به المرء فى الإسلام فهو آخر ما يخرج به من الدنيا (من كان آخر كلامه لا إله إلا اللّه دخل الجنة) [٣] .

وهو أول ما يجب معرفته (فاعلم أنه لا إله إلا اللّه) [٤] وآخر ماينهى به حياته (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [٥] فهو أول واجب وآخر واجب .

فالتوحيد : أول الأمر وآخره .

● أقسام التوحيد :

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام .

١ - توحيد الربوبية [٦] .

٢ - توحيد الألوهية [٧] .

٣ - توحيد الأسماء والصفات [٨] .

---

(١) سيتناول البحث عقيدة السلف فى أهم القضايا العقدية إجمالا ثم بيان ما يحتاج منها إلى تفصيل فى موضعه إن شاء اللّه تعالى .

(٢) التوحيد : لغة العلم بأن الشئ واحد . وشرعا اعتقاد الوحدانية للّه تعالى ذاتا وصفة وفعلا . (أنظر العقائد النسفية لابن حجر صـ ١٢) وهذا عند المتكلمين . أما التوحيد عند السلف فهو توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية وتوحيد الأسماء والصفات (أنظر مدارج السالكين لابن القيم صـ ٢٤ وما بعدها جـ ١) .

(٣) رواه أبو داود والحاكم بإسناد صحيح .

(٤) سورة محمد آية ١٩ (٥) سورة الحجر آية ٩٩

(٦) الرب : هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله .

(٧) الاله : هو الذى يؤله فيعبد محبة وانابة .

(٨) الاسماء والصفات : هى أسماء اللّه الحسنى وصفاته العلى (أنظر الفتاوى لابن تيمية صـ ١٢ جـ ١) .

● القسم الأول :

١ - توحيد الربوبية : وهو توحيد الله تعالى بأفعاله هو كاعتقاد أنه هو الخالق . الرازق . المعطى المانع . المحى المميت . ألخ .

وهذا القسم من التوحيد لا ينكره أحد حتى المشركين يقرونه ويعترفون به ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (١) .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ (٢) .

﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ﴾ (٣).

وهذا النوع من التوحيد الذى كان معروفا لدى مشركى العرب وكانوا مع شركهم يقرون بأن الله رب كل شئ وخالقه بل عامة من أشرك مع الله غيره فى عبادته كان يعترف بأن معبوده مملوك ومخلوق لصانع هذا العالم كما ثبت أنهم كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك (٤) .

وإنما كان الشرك الواقع فى العالم هو بإتخاذ آلهة متعددة تعبد مع الله وإتخاذ وسائط بينه وبين خلقه . وهذا هو الشرك الذى أرسل الله إليه الرسل كى تمحوه . وهو الذى أنزلت الكتب وأقيمت الأدلة والبراهين لدحضه وإبطاله .

وعقيدة السلف أن توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق وقرره أهل الكلام لا يكفى وحده لصحة العقيدة لأن كثيرا من الموحدين فى الربوبية يشركون فى العبادة والألوهية ويلحدون فى أسماء الله وصفاته ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (٥) .

---

(١) الزخرف آية ٨١
(٢) العنكبوت آية ٦١
(٣) يونس آية ٣١
(٤) رسالة عن قضية التأويل محمد الجليند صـ ٢٤.
(٥) سورة يوسف آية ١٠٦.

ويعتقد السلف بأن الله تعالى وحده هو رب كل شئ وخالقه ومالكه لا شريك لأحد معه ويعتقدون أن هذا هو تحقيق معنى قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

ويعتقدون أن أجمع الآيات فى التوحيد قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ (٢) حيث خاطبت الناس بأن ربهم هو الذى خلق السموات والأرض أطوارا فى ستة أيام أى أزمنة تم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكا عظيما ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به الدال على علوه المطلق على جميع خلقه وإحاطته به بعلمه وقدرته وتدبير الأمر فيه بمشيئته وحكمته ورحمته بغير حدود ولا تشبيه ولا شريك فى الخلق والتقدير ولا فى التصريف والتدبير ما من شفيع عنده إلا من بعد إذنه (٣) .

ويعتقد السلف أن توحيد الربوبية الذى أقربه المخلوق لا يكفى وحده لصحة العقيدة كما أنه لا ينجيه من النار ولا يدخل به الجنة ولا يخرج به من الشرك . ولهذا كان لابد فى العقيدة السليمة من نفى الشرك وتحقيق العبادة . أى لابد من النفى أولا والإثبات ثانيا (لا إله إلا الله) أى الكفر بالطاغوت قبل كل شئ ثم الإيمان بالله بعد ذلك : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد أستمسك بالعروة الوثقى ﴾ (٤) .

٢ - توحيد الألوهية :

توحيد الألوهية هو توحيد الله تعالى بأفعال العباد ويسمى توحيد العبادة . وأصل العبادة التذلل والخضوع وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنهم يلتزمونهاويفعلونها خاضعين ومتذللين لله تعالى . (٥)

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٦
(٢) سورة يونس آية ٣
(٣) تفسير المنار صـ ٢٩٥ جـ ١١
(٤) البقرة آية ٢٥٦
(٥) العقائد النسفية لابن حجر صـ ٢٣ جـ ١

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة (١) .ويقصد بها التذلل والأنقياد للّه تعالى مع الحب والرضى .

ومعنى توحيد اللّه بأفعال العباد أن تكون أفعال العباد متوجهة إلى اللّه دون سواه يعنى لا يعبد مع اللّه غيره . فيجمع الأفعال التى تكون عبادة لا يجوز التوجه بها إلا إلى اللّه وحده لا شريك له .

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ﴾ (٢) وهو يتضمن توحيد الربوبية فكل توحيد للألوهية توحيد للربوبية ولا عكس (ذلكم اللّه ربكم فاعبدوه) .

وفى هذا التوحيد يتحقق معنى « لا إله إلا اللّه » أى لا معبود بحق إلا اللّه ، وهو الهدف الذى خلق اللّه الإنس والجن من أجله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٣) .

وهذا النوع من التوحيد لم يتعرض له المتكلمون بنفس الوضوح الذى شرحه السلف لأن الحق أن المتكلمين تعرضوا له حين بينوا أن التوحيد يشمل توحيد الأسماء والصفات والأفعال . ولكن السلف يعتبرونه قطب الرحى ، لأنه يتضمن التوحيد فى العلم والقول والتوحيد فى الارادة والعمل .

فالأول كما فى سورة « الأخلاص » (٤) فهى توحيد محض يتضمن نعوت الكمال للّه تعالى وإثبات صفاته وأسمائه .

والثانى كما فى سورة « الكافرون » (٥) فإنها تتضمن إخلاص الدين كله للّه .

ولما كان هذا التوحيد هو الذى جاءت الرسل والكتب لإقراره ، ومسئولية

---

(١) العبودية لابن تيمية صـ

(٢) الأنعام آية ١٦٣

(٣) الذاريات آية ٥٦

(٤) مكية رقم السورة (١١٢) نزلت بعد الناس .

(٥) السورة رقم (١٠٩) مكية نزلت بعد الماعون .

نيطت بهم ،. ويسببه وقعت الخصومة بينهم وبين أممهم . وكانت كانت له أهميته وخطورته .

ومن هنا يختلف معتقد السلف عن غيرهم فى عقيدة التوحيد فلا يعنون كما يعنى البعض أن معنى التوحيد هو أنه لا خالق إلا الله وحسب ويزعمون أنهم موحدون ومؤمنون ثم يقعون فى الشرك من حيث لا يشعرون كما قال الله تعالى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (١) .

بل يعتقد السلف فى معنى التوحيد أصولا وقضايا واقعية وهامة قد يكون الإخلال بقضية منها إشراكاً بالله تعالى أو الحادا فى أسمائه أو إنتقاضا من قدره عَزّ و جَلّ ولذا .. فإنهم يركزون على هذا الجانب الهام من جوانب التوحيد وهو توحيد الالوهية الذى هو أفراد الله تعالى وحده بالعبادة . وعندما يعتقدون بإفراد الله بالعبادة فلا يعنون بالعبادة مجرد الصلاة والزكاة والصوم والحج فقط. بل يعنون كل ما يندرج تحت العبادة كالدعاء فهو من العبادة فلا يحق أن يكون لغير الله . فلا يُدعى نبى أو ولى . وكذلك السجود والركوع لا يكون إلا الله . فلا يصح على أعتاب الصالحين ولا بين يدى السلاطين .

وهكذا بقية أنواع العبادة من الحب والتعظيم والخشية والخوف ، وكذلك الذبح والنذر والرغبة . وكل هذه الأمور من حق الله سبحانه وتعالى .

ويكفيك زيارة واحدة لقبر من القبور المشيدة حتى تشاهد من البعض .. بعض مظاهر الطلب الصريح أو غير الصريح من صاحب القبر بكل ما لا يجوز أن يطلب إلا من الله كشفاء المرضى ، والإنتصار من الأعداء ، والشفاعة عند الله، والمدد ، وإعطاء الولد ... الخ وبالجملة فإن البعض يطلب من هؤلاء الأموات خيرى الدنيا والآخرة وهذا شرك أكبر فى ملة الإسلام والعجيب أن يفعل هذا طوائف كثيرة يُنسبون إلى الإسلام ، ولا يكتفون بالدعاء بل ويذبحون لهؤلاء تقربا كما كانت الجاهلية تفعل عند طواغيتها ، وينذرون لهم ويطوفون بالقبور كما يطاف بالكعبة ويسجدون عندها كما يسجد لله وليس هناك شرك أكبر من هذا .

---

(١) من سورة يوسف آية ١٠٦ .

وهذه الأمور لا يصنعها عوام الناس وجهلاؤهم فقط بل ويصنعها كثيرون ممن يزعمون التقوى والصلاح من بعض الصوفية والمناهج العبادية المبتدعة ولا تجد دينهم ينبنى إلا على تعظيم هذه القبور وبنائها وإسراجها ودعوة الناس إلى تقديم القرابين والنذر لها ودعائها من دون الله عَزَّ و جَلَّ ، وقد أصبح الله عند هؤلاء لا يدعى ولا يرجى إلا بواسطة من ساكنى هذه القبور والأضرحة ويظنون بعد ذلك أنهم مسلمون وقد شابهوا المشركين الذين عبدوا غير الله وقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (١) .

وقصارى القول فى حق أصحاب القبور من الصالحين أن نترضى عنهم ونزور قبورهم كما نزور قبور غيرهم على وفق سنة رسول الله ﷺ .

ونعتقد أنه لا تنفعنا الإستغاثة بهم ودعاؤهم أو النذر لهم أو تقديسهم بشئ من مظاهر العبادة التى يجب أن تتمحض لله تعالى وحده لا شريك له .

٣ - توحيد الأسماء والصفات :

وعقيدة السلف فى توحيد الأسماء والصفات أنهم يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ (٢) .

ويقرر الإمام الصابونى (٣) عقيدة السلف موجبا إثبات جميع الصفات التى جاء بذكرها القرآن ووردت بها أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام فكل ما ثبت من النصوص فى صفات الله تعالى كالسمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والارداة والمشيئة والكلام والرضا والسخط والحياة والفرح والضحك وغيرها من الصفات الواردة يؤمنون بها ويثبتونها كما ثبتت . من غير تشبيه لشئ من ذلك بصفات المخلوقين (٤) .

---

(١) سورة الزمر آية ٣

(٢) العقائد النسفية لابن حجر صـ ٤٨ جـ ١

(٣) الإمام الصابونى هو أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابورى الصابونى فقيه محدث توفى فى نيسابور فى المحرم سنة ٤٤٩ هـ .

(٤) عقيدة السلق للصابونى صـ ١١

فعقيدة السلف فى الصفات أنهم ينتهون إلى ما قاله الله تعالى وما قاله رسول الله ﷺ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه . ومن غير تكييف [١] ولا تمثيل . ومن غير تحريف [٢] ولا تعطيل .

ويحترز الإمام الصابونى وهو يقرر عقيدة السلف من إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل منكر ، ويوجب إجراءه على الظاهر ، ويقر بأن تأويله [٣] لا يعلمه إلا الله [٤] .

كما أخبر الله عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون فى قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [٥] .

وبهذا يتحقق أن السلف يثبتون جميع صفات الجلال والكمال كما اثبتها الله لنفسه وكما أثبتها له رسوله ﷺ .

ويصفونه بما وصف به نفسه وبما وصفه رسوله ﷺ على الوجه اللائق به تعالى من غير تكييف ولا تشبيه على حد قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ [٦] .

---

(١) التكييف اعتقاد أن صفات الله على كيفية كذا أو يسأل عنها بكيف والتمثيل اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين .

(٢) التحريف هو تغيير الكلام عن المعنى المتبادر منه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ إلا بإحتمال مرجوح فلا بد من قرينه تبين المراد .

(٣) المراد بالتأويل هنا : الحقيقة . فالحقيقة والكيفية لا يعلمها إلا الله أما معنى اللفظ فقد يعرف ويعلم والتعطيل المراد به هنا نفى الصفات الالهية والفرق بينهما أن التعطيل نفى للمعنى الحق والتحريف تفسير بالمعنى الباطل .

(٤) عقيدة السلف للصابونى صـ ١٢

(٥) سورة آل عمران آية ٧

(٦) سورة الشورى آية ١١

ويتحصل من ذلك كما يقول الإمام الشوكانى [1] إن إقرار الصفات وإمرارها وإجراءها على الظاهر من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل عقيدة الموحدين وتصديق بالكتاب المبين ، وعقيدة السلف الصالحين [2] .

ثم يقول وهو يقرر الحق فى هذه المسألة : (وإن الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة هو ما كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم . وقد كانوا رحمهم الله وأرشدنا إلى الإقتداء بهم ، والإهتداء بهديهم ، يمرون أدلة الصفات على ظاهرها ، ولا يتكلفون ما لا يعلمون ولا يتأولون . وهذا هو المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذاهبهم لا يشك فيه شاك ولا ينكره منكر ولا يجادل فيه مجادل) [3] .

ثم يقول (إن امرار أدلة الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم . وإن كل من أراد من المتكلفين وشذاذ المحدثين والمتأولين أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر قاموا عليه وحذروا الناس منه وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الإسلام . وسائر المبتدعين فى الصفات القائلون بأقوال تخالف ما عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم فى خبايا وزوايا لا يتصل بهم إلا مغرور ولا ينخدع بزخارف أقوالهم إلا مخدوع ﴾ [4] .

ويقرر الشوكانى فى موضع آخر [5] مؤكدا لمذهب السلف بقوله : (إن مذهب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشئ منها ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل

---

(١) الشوكانى هو الإمام المجتهد محمد بن على بن محمد اليمنى الصنعانى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) التحف فى مذهب السلف للشوكانى صـ ١

(٣) الأسماء والصفات من التحف فى مذاهب السلف صـ ٥

(٤) المرجع السابق نفس الموضوع .

(٥) عقيدة الفرقة الناجية عبد الله بن حجاج صـ ١٥

يفضى إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سئلوا عن شئ من الصفات تلوا عليه الدليل وأمسكوا عن القال والقيل . وقالوا قال الله هكذا ولا ندرى بما سوى ذلك [١] ولا نتكلف ولانتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته . ولا يحق للسائل أن يتجاوز مالا يعنيه ولا ما لا يمكن الوصول إليه لأن ذلك بدعة (والسؤال عنه بدعة) ويؤكد الشوكانى أن ذلك هو مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم . وأنه خير للمرء أن يدع ما حدث من المذاهب فى الصفات وأن يريح نفسه من تلك التأويلات التى ترد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وينكر على من يجعل العقول [٢] - على إختلافها وتناقضها - أصولا ترد إليها أدلة الكتاب والسنة وجعلوها[٣] معيارا لصفات الرب تعالى . فما تعقله من صفات الله قالوا به جزما وإلا فلا !!

أى إن وجدوا ما ورد فى الصفات موافقا لما تعقلوه جعلوه مؤيدا له ومقويا ، وقالوا ورد دليل السمع مطابقا لدليل العقل وإن وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الأصل [٤] . ومتشابها وغير معقول المعنى ولا ظاهر الدلالة . وفى هذا تعطيل لما أنزل الله وما جاء به رسول الله أو تأويل وادعاء وشرع بما لم يأذن به الله وقول على الله بغير علم . وتقديم بين يدى الله ورسوله وخروج عما كان عليه السلف الذين آمنوا بما جاء عن الله على مراد الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ . وقالوا الله أعلم بكيفية ذاته وما هية صفاته وقد يغنى فى هذا المقام كلمتان من القرآن الكريم . الأولى قوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ والأخرى قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ .

ويقول ابن قدامه [٥] مقررا لمذهب السلف فى الأسماء والصفات فى كتابه

---

(١) أى أمرار اللفظ بنصه ومعناه دون الخوض فى الكيف والكنه مما أستأثر الله تعالى بحقيقته يدل على ذلك السياق وما هو معلوم من حقيقة المذهب .

(٢) فى الأصل : التعقلات هكذا فى رسالة التحف فى مذاهب السلف طبعة الجامعة الإسلامية .

(٣) إى العقول .　　　　(٤) أي العقول .

(٥) الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٥٤١ - ٦٢٠) .

لمعة الاعتقاد [1] : إن اللّه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى موصوف بما وصف به نفسه فى كتابه العظيم وعلى لسان نبيه الكريم وكل ما جاء فى القرآن أو صح عن النبى ﷺ وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول ، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظا وترك التعرض لمعناه [2] .ونرد علمه إلى قائله ونرد عهدته على ناقله اتباعا لطريق الراسخين فى العلم الذين أثنى اللّه عليهم فى كتابه المبين (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

ولا يؤول اللفظ المتشابه لأن اللّه ذم المؤولين (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) .

لأن اللّه قطع الأطماع فى معرفة الكنه والمرجع والمآل (وما يعلم تأويله إلا اللّه) . يقول الإمام أحمد بن حنبل فى آيات الصفات والأحاديث الثابتة منها : (نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى ولا نرد شيئا منها . ونعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ حق . ولا نرد على رسول اللّه ﷺ ولا نصف اللّه بأكثر مما وصف به نفسه بلا حدود ولا غاية (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) . ونقول كما قال ونصفه بما وصف به نفسه لا نتعدى ذلك . ولا يبلغه وصف الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه . ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت ولا نتعدى القرآن والحديث ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول وتثبيت القرآن) [3] .

ويقول الإمام الشافعى [4] فى ذلك أيضا .. (آمنت باللّه وبما جاء عن اللّه على مراد اللّه . وآمنت برسول اللّه وبما جاء عن رسول اللّه على مراد رسول اللّه ﷺ . وعلى هذا درج السلف ﴾ [5] .

---

(١) لمعة الإعتقاد الهادى ألى سبيل الرشاد صـ ٩ وما بعدها .
(٢) المراد هنا ترك التعرض لمعنى الكيف لا لمعنى اللفظ لما هو مقرر فى مذهب السلف .
(٣) ذكره ابن قدامه فى لمعة الإعتقاد صـ ١٠ .
(٤) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعى صاحب المذهب المعروف .
(٥) لمعة الإعتقاد صـ ١٠ .

أى أنهم متفقون على الإقرار والإثبات لما ورد من الصفات فى كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ من غير تعرض لتأويله . وقد أمرنا باقتفاء آثارهم . وحذرنا المحدثات (وإياكم ومحدثات الإمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله وكل ضلاله فى النار) [١] .

وروى البيهقى بإسناد صحيح عن الأوزاعى قال :

كنا - والتابعون متوافرون - نؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته تعالى [٢] وإنما قال الأوزاعى ذلك ليبين مذهب السلف .

وروى أبو بكر الخلال فى كتاب السنة أن مكحولاً والزهرى سئلا عن تفسير الأحاديث [٣] فقالا أمروها كما جاءت [٤] .

وروى أيضا عن الوليد بن مسلم قال سألت مالك بن أنس [٥] والثورى [٦] والليث [٧] بن سعد والأوزاعى [٨] عن الأخبار التى جاءت فى الصفات فقالوا أمروها كما جاءت وفى رواية [٩] : أمروها كما جاءت بلا كيف . فقولهم « أمروها كما جاءت رد على المعطلة وقولهم » « بلا كيف » رد على الممثلة .

* * *

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن . مطولا وبطرق متعددة .

(٢) الفتاوى لابن تيمية صـ ٣٩ جـ ٥

(٣) أى الواردة فى الصفات .

(٤) الفتاوى لانب تيمية صـ ٣٩ جـ ٥

(٥) مالك هو الإمام بن أنس أمام أهل المدينة وصاحب المذهب المعروف .

(٦) هو سفيان الثورى إمام أهل العراق .

(٧) هو الليث بن سعد أمام أهل مصر .

(٨) الأوزاعى أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابع التابعين وهو إمام أهل الشام .

(٩) ذكرها ابن تيمية فى الفتاوى صـ ٣٩ جـ ٥

الخلاصة

بعد تلك النصوص والنقول يمكن القول بأن عقيدة السلف فى توحيد الأسماء والصفات هى الإيمان بكل ما جاء فى القرآن والسنة من آيات الصفات والتسليم لما جاء عن الله على مراد الله ولما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ . والقاعدة هنا أن ما أثبته الله ورسوله يثبت وما نفاه الله ورسوله ينفى والألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الأثبات والنفى فيجب إثبات ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعانى ونفى ما نفته النصوص من الألفاظ والمعانى .

واشتهر عنهم أنهم يقولون : (أمروا آيات الصفات كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل) ويجمع قولهم فى الإثبات والتنزيه قوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ فقوله تعالى ليس كمثله شئ تنزيه الله . وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ إثبات لصفات الله .

ويعتقدون أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات فكما أن الله سبحانه ذاتا لا تشبه ذات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين وتتمثل عقيدتهم فى قول الإمام مالك لما سئل عن الإستواء فقال : (الكيف غير معقول والإستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) وكما يقال عن الاستواء يقال عن سائر الصفات .

وكان الإمام أحمد يقول عن المنكرين للصفات ناظروهم بالعلم (١) فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا (٢) . فإن كان لله علم وللمخلوق علم وعلم الخالق يختلف عن علم المخلوق فكذلك بقية الصفات .

والإيمان بصفات الله لا يتجزأ فمن آمن بصفة آمن بالباقى .

ويمكن إجمال الكلام فى موضوع الصفات بأنها تنبنى على أساسين هامين :

الأول : التنزيه بمعنى تنزيه الله تعالى أن يشبه بشئ من صفاته شيئا من صفات المخلوقين (ليس كمثله شئ) .

---

(١) أى بصفة العلم .

(٢) عقيدة الإسلام والمسلمين عبد الله آل محمود .

الثانى : اثبات ما وصف اللّه به نفسه لأنه لا يصف اللّه أعلم من اللّه (أأنتم أعلم أم اللّه) ؟!

وكذلك إثبات ماوصفه به رسوله ﷺ لأنه (وما ينطق عن الهوى) .

وبهذا يكون الجمع بين الاثبات والتننزيه . (ليس كمثلة شئ وهو السميع البصير) .

مناقشة الموضوع :

من أين تقسيم التوحيد :

بعد العرض السابق لعقيدة السلف فى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات: قد يقال إن هذا التقسيم للتوحيد على هذا النحو الذى سبق لم يقل به النبى ﷺ . فمن أين للسلف هذا التقسيم ؟

ويجاب عن هذا بأن الرسول ﷺ وإن لم يقسم التوحيد إلى تلك الأقسام لفظا فهى واردة معنى [١] .

وأيضا فإن الرسول ﷺ لم يحصرها فى قسم واحد والقرآن الكريم فرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية حيث إن المشركين أقروا بالأول دون الثانى قال تعالى : ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض ليقولن اللّه « (سورة الزمر الآية ٣٨) وقال سبحانه » قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدير الأمر فسيقولون اللّه فقل أفلا تتقون . فذلكم اللّه ربكم الحق . فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون « (يونس ٣١ ، ٣٢) . (ذلكم اللّه ربكم فاعبدوه) فتوحيد الربوبية غير توحيد العبادة .

وقد ذكر فى القرآن أسماء اللّه وصفاته والكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات كما يجب التوحيد فى الذات فكذلك يجب التوحيد فى الصفات .

---

(١) العقائد السلفية لابن حجر ملخصا

هل الآيات والأحاديث توهم التشبيه ؟

قد يقال أن الآيات والأحاديث الواردة فى الصفات توهم التشبيه ولذا فالأولى صرف النصوص عن ظاهرها وتأويلها بما يتفق مع تنزيه الله تعالى .

ولكن ذلك مردود بأن الرسول ﷺ لم يقل يوما للأمة ان هذه الآيات والأحاديث موهمة للتشبيه فلا تعتقدوا مادلت عليه ، ولم يقل أيضا اعتقدوا ما تقتضيه مقاييسكم ، ولم يقل اصرفوا ظواهر النصوص وأولوها .

والمعروف أصوليا أن الرسول ﷺ لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ولا سيما فى أصول الدين [(١)] .

وكذلك لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أول بمثل تأويلات المؤولين وأيضا يستحيل عقلا أن يصف الله نفسه بما يلزمه محذورا أو محال .

وأيضا يقال ان الصفات والذات من باب واحد فكما أننا نثبت ذات الله إثبات وجود دون كيفية فكذلك نثبت لهذه الذات صفات دون كيفية .

وكما يقال ان الله موجود والعالم موجود مع إختلاف الوجودين ، وكذلك يقال إن الله قادر والعبد قادر مع إختلاف القدرتين وكذلك يقال إن الله سميع وبصير والعبد سميع وبصير مع إختلاف الصفتين .

فكذلك يقال فى بقية الصفات .

وشتان بين صفات الجلال والكمال للخالق وبين صفات المخلوقين وهكذا كل وصف أسند إلى رب العالمين فظاهره المتبادر منه هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق .

---

(١) المرجع السابق .

فإن قيل إن آيات الصفات قد يطلق عليها اسم المتشابه ففى هذا نظر [١] ؛ وحينئذ يكون التساؤل عن معنى آيات الصفات وهل هناك اشتباه فى معناها أو غموض فى بيانها . وهنا أستفيد من نتيجة البحث العلمى للدكتور الجليند فى رسالته العلمية الجامعية عن قضية التأويل [١] حيث انتهى إلى أن الغلط فى ذلك من خلط المتأخرين بين علم معنى الآية الذى خوطبنا به وبين تأويلها الذى هو حقيقتها المحجوب عنا ولم يفرقوا بين معنى الآية وبين تأويلها .

وزعموا أن السلف حين تناهوا فيما بينهم عن الخوض فى هذه الآيات أنهم نهوا أنفسهم عن البحث فى معناها لأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله . وهذا الخلط نشأ من عدم التفرقة بين معرفة المعنى والتأويل .

إذن ما الذى كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه ؟

إن الذى كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه هو البحث عن كيفية الصفة التى تتحدث عنها الآية . فلا يقال له كيف لأنه عنه مرفوع . ولقد قال السلف فى معنى هذه الآيات كلمات لها معان مفهومة وصحيحة فقالوا فى أحاديث الصفات : تمر كما جاءت دالة على معناها من غير تأويل لها .

ماالمراد بالتأويل إذن ؟

إن مرادهم بالتأويل : التحريف المقصود الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره الذى عرف بين المبتدعين وأمثالهم .

ولا يليق أن تكون آيات الصفات بمنزلة الكلام الأعجمى الذى لا يفهم أحد معناه . وخلاصة القول :

أنه لو كانت آيات الصفات وما يتصل بها غير معلوم معناها لدى الناس لخرج معظم القرآن عن أن يكون مفهوما أو معلوما لديهم . وكيف يساغ ذلك وقد

---

(١) أنظر موضوع المحكم والمتشابه من هذا البحث .

(٢) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل (ط الهيئة العامة للمطابع الأميرية ١٣٩٣ هـ

أمرنا بتدبره وفقهه وبيانه والتذكير به . ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (١) ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٢) .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا ﴾ (٣) .

ومن هنا فإن الحث على تدبر القرآن وفهم معناه يناقض القول بأن هناك آيات لا معنى لها ولا نفهم لها معنى أو يجب تفويض علمها لله .

إن الثابت عن السلف أنهم تكلموا فى آيات الصفات وفسروها ولم يسكتوا عن بيان معنى آية من الآيات سواء المحكم منها أو المتشابه .

فهذا ابن مسعود رضى الله عنه يقول (لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه آباط الأبل لأتيته) (٤) .

هل السلف مفوضون ؟ أو مؤولون ؟

وقد يشاع عن السلف أنهم مفوضة : أى يفوضون معانى الألفاظ التى وردت بها النصوص ويقرأونها تلاوة فقط ولا يثبتون ماتضمنته من صفات لأنهم يرون أن معانى الألفاظ من المتشابه الذى لا يعلم معناه إلا الله .

وقد ينسبون هذا الرأى إلى الإمام أحمد بن حنبل ويروون عنه (٥) حين سئل عن أحاديث الصفات قوله : (هذه الأحاديث نرويها كما جاءت) أو (أمروها كما جاءت بلا كيف) .

وقد يقال عنهم أنهم مؤولون فى الجملة أى أنهم كانوا يصرفون النصوص عن ظاهرها أى يؤولونها ثم يقفون عند ذلك فلا يحددون معنى ما يؤول إليه اللفظ بل يقولون لا ندرى ما أراده الله ورسوله مع علمهم بأن ظاهر اللفظ غير

---

(١) سورة القمر آية : ١٧

(٢) سورة محمد آية : ٢٤

(٣) النساء آية : ٨٢

(٤) الأسماء والصفات ضمن مجموع الفتاوى جـ ٥

(٥) رواه ابن الجوزى فى مناقب أحمد صـ ١٥٦

مراد . ولكن يتتبع ما ورد عن السلف نجدهم يدفعون ذلك ويرفضونه تماما ... ويقولون إن التفويض ليس مذهبهم . وكذلك يرفضون التأويل جملة وتفصيلا .

ولم أجد فيما أطلعت عليه أنهم فوضوا معنى الألفاظ إلى الله تعالى .

وإنما الوارد عنهم أنهم فوضوا في الكيف فقط أما المعنى فهو معلوم ومعروف وحاشاهم أن يكونوا أميين والله تعالى قد نعى على الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني . بل كان السلف الأوائل من الصحابة رضى الله عنهم يأخذون الآيات ولا يتجاوزونها إلا بعد العلم بها أولا ثم العمل بها بعد ذلك .

وغير معقول أن القرآن مجرد ألفاظ لا معنى لها ولا مفهوم وكيف يكون ذكرا وبيانا وهداية للناس إذا لم تكن ألفاظه ذات معانى مفهومة ؟

والسلف لم يجهلوا معانى الألفاظ الواردة فى الصفات بل انهم كانوا يعلمونها وإنما الذى لم يكن معلوما فقط هو الكيف والكنة والحقيقة ومقالة الإمام مالك تشهد لذلك (الإستواء غير مجهول والكيف غير معلوم) وهذه الرواية هى معنى الرواية الأخرى (الإستواء معلوم والكيف مجهول) فإذا كان الإستواء معلوما ومفهوما معناه عندهم فكيف يقال أنهم آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه ؟! .

لو كان الأمر كذلك لما قالوا « الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول » ولما قالوا أمروها كما جاءت بلا كيف وهذا معنى قول الإمام أحمد (نرويها كما جاءت) يعنى بلا كيف لأن الكيف ليس فى متناول العقل بل هو فوق العقل لأن الكيفية اللائقة بذات الله لا يستطيع العقل البشرى أن يعرفها ولذلك فهى مما استأثر الله بعلمها ولم يكلفنا بذلك العلم (ولا يحيطون به علما) فإن قيل ورد (نرويها كما جاءت من غير تفسير) يقال أيضا من غير تفسير للكيف . وقد يقال أيضا من غير تفسير أى تفسير الجهمية والمؤولين أى لا تفسير بمثل ما فسروها .

فالثابت أن الألفاظ لها معان تدل عليها . ولو كانت دلالتها على المعانى منتفية لوجب أن يقال أمروا لفظها أو يروى لفظها مع إعتقاد أن الظاهر غير مراد .

وحينئذ فلا يقال بلا كيف لأن نفى الكيف عما ليس بثابت لغو وعبث .

فقولهم بلا كيف يدل على ثبوت المعنى وإنتفاء الكيف . أى أن معنى الصفة ثابت ومعلوم أما المنتفى فهو الكيفية فقط .

وأما التأويل فلم يثبت عن السلف أنهم تأولوا آيات الصفات كما أنهم لم يفسروها بصرفها عن ظاهرها إذ لا يجوز على رسول الله ﷺ وهو الداعى إلى الله على بصيرة أن يكون قد أخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما الهدى فى خلاف ظاهره والحق فى إخراجه عن حقائقه وحمله على وحشى اللغات ومستكره التأويلات ، إن هذا يؤدى كما يقول ابن قيم الجوزية [١] : إن ذلك يؤدى إلى أن تصير حقائق القرآن ضلالا وتشبيها والحادا وإن العلم والهدى فى مجازه قد يحيل الأمة فيه على آراء الرجال المتحيرين .

وبهذا دافع السلف عن أنفسهم من أن يلصق بهم أنهم مفوضون أو مؤولون . وخلصت عقيدتهم فى الأسماء والصفات باثبات ما أثبته الله ورسوله على الوجه اللائق به تعالى ونفى ما نفى الله ورسوله على وجه التنزيه والكمال فيصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل . ومن غير تكييف ولا تمثيل .

* * *

(١) مختصر الصواعق المرسلة صـ ٦ جـ ١

والخلاصة

إن عقيدة السلف فى الصفات هو إبقاء النصوص على مادلت عليه من المعانى الظاهرة للألفاظ مع نفى التشبيه وتفويض الكيفية إلى الله تعالى كما حكى عن الإمام مالك والربيع وأم سلمة [١] .

أى إمرارها كما جاءت مع التنزيه . أو بمعنى آخر الإيمان باللفظ والتصديق بالمعنى وعدم البحث عن الكيف والكنه [٢] فإذا قال الله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ أو قال : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ فنثبت له تعالى ما أثبته لنفسه من الوجه واليد لكن لا نقول وجه كوجهنا ولا يد كأيدينا حتى لا نقع فى التشبيه .

فالتشبيه كما يقول الإمام أحمد بن حنبل : « أن تقول يد كيد أو وجه كوجه فأما اثبات يد ليست كالأيدى فهو كاثبات ذات ليست كالذوات وحياة ليست كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس كالأسماع والأبصار [٣] .

هل السلف لا يريدون الظاهر من النصوص ؟

وهنا يبطل الأدعاء بأن السلف والخلف متفقون على عدم إرادة الظاهر من نصوص الكتاب والسنة فى باب الصفات الخبرية . فالمتكلمون حيثما يقولون إن ظواهر النصوص تؤدى إلى التشبيه والتجسيم إنما يعبرون عن فهمهم الخاص . أما النصوص فهى بعيدة عن ذلك كل البعد فلا يعقل أن ينص الله ورسوله على التجسيم والتشبيه وهو ينفيه (ليس كمثله شئ) وليس من المعقول أن ننفى النصوص وهو يثبتها (وهو السميع البصير) فالسلف حين أثبتوا ظواهر النصوص التى أثبتها الله تعالى أو أثبتها رسول الله ﷺ ما أثبتوها إلا لعلمهم بأن حقائق هذه الظواهر الثابتة له تعالى تليق بعظمته وجلاله وأنها غير تلك الحقائق الثابتة للمخلوق وحينئذ فلا يتأتى تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل .

كما يقول الإمام ابن تيمية حين عاب على المؤولين : « إنهم شبهوا أولا ثم عطلوا ثانيا حيث فهموا التشبيه من النصوص فنتج من ذلك تعطيل الصفات وتأويل آياتها [٤] .

---

(١) عقيدة السلف ضمن مجموعة الرسائل المنيرية صـ ١١٠ جـ١

(٢) الإتقان للسيوطى صـ ٦‍.٧ جـ ٢ (٣) الصواعق المرسلة صـ ١٩ جـ ١

(٤) مجموع الفتاوى صـ ٢٧ جـ ٥

ومن هنا يمكن الإنتهاء إلى أن مذهب السلف فى ذلك هو الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل .

فهو ينبنى حينئذ على أصلين : التنزيه والإثبات .

فالأول : تنزيه الله تعالى عن مشابهة صفات المخلوقين .

والثانى : الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ وإثبات ذلك حقيقة لا مجازا [1] على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى وهو المعنى اللائق بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ فأول الآية يقتضى عدم التمثيل وآخرها عدم التعطيل . تلك هى عقيدة السلف .

وسيتبين بعد ذلك القواعد والأسس التى بنوا عليها عقيدتهم .

مجمل إعتقاد السلف فى بقية القضايا العقدية

سوف أتناول بفضل الله تعالى إعتقاد السلف إجمالا إلا ما يحتاج إلى تفصيل أو مناقشة فى موضعه وسأرجئ إن شاء الله تعالى تفصيل ومناقشة بعض القضايا إلى حين الكلام عن عقيدة كل من الأمامين : ابن حنبل وابن تيمية بتوفيق الله تعالى .

● عقدة السلف فى أركان الإيمان :

يعتقد السلف أن أركان الإيمان هى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .

وهذه الأمور الستة هى أركان الإيمان فلا يتم الإيمان إلا بها جميعا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ومن جحد شيئا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فليس مؤمنا . وقد ذكرت هذه الأركان فى حديث جبريل المشهور (حين جاء إلى النبى ﷺ فى صورة أعرابى يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان

---

(١) الحموية الكبرى صـ ٤٥٢ ، مجموع الفتاوى صـ ٣٩ جـ ٥

فقال أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ونؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره حلوه ومره ويعتقدون بأن الإيمان هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان (١) .

ويعتقدون إن الإيمان يزيد وينقص . يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

● عقيدتهم فى الإتباع :

يعتقدون أن محمدا ﷺ عبد الله ورسوله ، وأنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين . ويوجبون أفراد الرسول ﷺ بالإتباع تحقيقا لشهادة أن محمدا رسول الله . ويعتقدون أن هذه الشهادة لا تكون كاملة إلا بالإيمان بأن محمدا ﷺ مبلغ عن ربه وأنه قد جاء بوحيين من عند الله . الأول القرآن الكريم والثانى سنته صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم (ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه) (٢) .

فكلام الله وكلام رسول الله ﷺ سواء فى الإعتقاد والعمل والقبول كلاهما من الله سبحانه وتعالى والرسول ﷺ لا يأمر ولا ينهى ولا يحرم فى أمور الدين بشئ من عند نفسه بل بأمر الله سبحانه وتعالى ولا يخبر بشئ من الغيب إلا بوحى منه جل وعلا وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ (٣) .

ويعتقدون أن الدين هو المنهج والطريق والحكم والصبغة وليس هو التقرب فقط كما يشاع بين الناس . ويعنى ذلك أن الرسول ﷺ هو المشرع بأمر الله لجميع شئون الحياة التى له فيها أمر ونهى وحكم وليس للطاعات والقربات فحسب .

---

(١) خلافا للإمام أبى حنيفة والإمام الطحاوى . حيث قالا الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان . ولكن جمهور السلف والأئمة الثلاثة على أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان (العقيدة الطحاوية للطحاوى ضمن المجموعة العلمية من درر السلف صـ ١٥) .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب فى لزوم السنة ٢/٥.٥ عن المقدام بن معدى كرب .

(٣) سورة الحاقة آية : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦

ومن هنا فمعصية الرسول ﷺ فى شئون التجارة والزواج والطلاق والحكم والسياسة وسائر المعاملات كمعصيته فى شئون العبادة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر العبادات .

وبهذا تصبح منزلة الرسول ﷺ فى الطاعة المطلقة لا تدانيها منزلة لأحد من البشر ولذلك فلا يقبل قول أحد - مهما كانت منزلته - يخالف رسول الله ﷺ وكل يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله ﷺ .

ويعتقدون أن المتابعة لرسول الله لا تكتمل إلا بكمال الحب له كما قال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين) (١) ومما يعين على هذا الحب ويدل عليه التزام أمره دائما وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر وإجتناب ما نهى عنه وزجر .

وتقديم قوله على كل قول وتذكر مواقفه ومشاهده ومدارسة سنته وسيرته ﷺ.

● عقيدتهم فى القضاء والقدر :

يؤمن السلف أن كل شئ يجرى بتقدير الله ومشيئته وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ويعتقدون أن الله يهدى من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا والخلق يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله (٢) . ويعتقدون أنه لاراد لقضاء الله ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره .

ويعتقدون أن للعبد فعلا وإرادة والله خالقه وخالق فعله وإرادته ويعتقدون أن للعبد مشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى لقوله عزّ و جلّ : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (٣) .

ويعتقدون أن القدر سر الله فى خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرسل والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيجاب باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ٥٨/١ عن أنس .

(٢) العقيدة الطحاوية صـ ٥ (٣) من سورة التكوير آية : ٢٨ - ٢٩

لأن اللّٰه طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه (١) .

فلا يسألون ولا يعترضون كما قال تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (٢) .

ويعتقدون أن أفعال العباد هى خلق اللّٰه وكسب من العباد (٣) .

ولا يجعلون قضاء اللّٰه وقدره حجة فى ترك الأوامر وإجتناب النواهى بل يوجبون العمل بما أمر والإنتهاء عما نهى لأن للّٰه الحجة علينا بإنزال الكتب وبعثه الرسل (لئلا يكون للناس على اللّٰه حجة بعد الرسل) (٤) .

ويعتقدون أن اللّٰه تعالى ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك وأنه لم يجبر أحدا على معصية ولا اضطره إلى ترك طاعة (٥) .

﴿ لا يكلف اللّٰه نفسا إلا وسعها ﴾ (٦) .

ويعتقدون أن على العبد أن يعمل ولكن لا يتكل على عمله أنه ينجيه وإنما النجاة فضل من اللّٰه لقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (لن ينجى أحدا منكم عمله . قالوا ولا أنت يا رسول اللّٰه . قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّٰه برحمته (٧) .

● تعليق :

ينبغى ألا يفهم من كلام الرسول ﷺ (لن ينجى أحدا منكم عمله .. الخ) – ترك العمل – بل يفهم منه أن النجاة بفضل اللّٰه ورحمته .

---

(١) العقيدة الطحاوية صـ ٧

(٢) من سورة الأنبياء آية : ٢٣

(٣) المجموعة العلمية من دررعلماء السلف صـ ٢١

(٤) من سورة النساء آية : ١٦٥

(٥) لمعة الإعتقاد ولابن قدامة صـ ٢٠

(٦) من سورة البقرة آية : ٢٨٦

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ٢٩٤/١١ عن أبى هريرة .

خلاصة بحث عن القضاء والقدر للكاتب .

وأيضا لا ينبغى أن نتكل على ما كتب علينا وندع العمل لأن الله عَزَّ و جَلَّ خبأه عنا ولذلك حث الرسول ﷺ على العمل لما قال له أصحابه رضى الله عنهم أفلا نتكل على كتابنا . قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة وأما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة» ثم تلا : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وإما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنسيره للعسرى ﴾ [1] .

● عقيدتهم فى القرآن :

يعتقد السلف أن القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود بلا كيفية قولا . وأنزله على رسوله وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق - ومن قال أنه مخلوق فقد كفر [2] - ككلام البرية . فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر لأن الله أوعد من قال ذلك بسقر حيث قال تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ [3] . ويعتقدون أن المسموع من القارئ كلام الله مستدلين بقوله تعالى : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ . فممن يسمع ؟ (من القارئ) إذن فالمسموع كلام الله [4] .

ولا يجيزون إطلاقا القول بأن القرآن حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه . بل إذا قرأه الناس أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا .

ويعتقدون أنه كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعانى ولا المعانى دون الحروف [5] .

---

(١) الليل آية : ٥ - ١٠ .
(٢) عقيدة الطبرانى ضمن المجموعة العلمية من درر السلف تحقيق ابن حميد صـ ٥
(٣) المدثر آية : ٢٦
(٤) الطحاوية صـ ٥
(٥) شرح العقيدة الواسطية . د. هراس صـ ١١٨

● عقيدتهم فى كلام الله :

ويعتقد السلف أن الكلام صفة لله قائمة بذاته تعالى يتكلم بها بمشيئته وقدرته فهو لم يزل ولا يزال متكلما إذا شاء . وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه . ولا لا زما لذاته لزوم الحياة بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

ويعتقدون أن الله تعالى كلم موسى بصوت ونادى آدم وحواء بصوت وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحى بصوت . ولكن الحروف والأصوات التى تكلم الله بها صفة له تعالى غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم [1] كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده فإن الله لا يماثل المخلوقين فى شئ من صفاته . ويحتجون بما احتج به أحمد بن حنبل[2].

بأن الله كلم موسى فكان الكلام من الله والاستماع من موسى . وبقوله فى قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ ولكن حق القول منى ﴾.

ويقول الرسول ﷺ :

(إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه يعنى القرآن) [3] .

ويعتقدون أن الحروف المكتوبة والأصوات المسموعة عين كلام الله لا حكاية ولا عبارة . قال الله تعالى : ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ المص ﴾ وقال : ﴿ الر ﴾ وقال : ﴿ المر ﴾ .

وقال : ﴿ كهيعص ﴾ فهذه الحروف عين كلام الله .

ويحتجون بما رواه الترمذى من طريق عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ (من قرأ حرفا من كتاب الله عَزَّ و جَلَّ فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول

---

(١) شرح العقيدة الواسطية . د. هراس ٨١

(٢) ذكره المقدسى فى عقيدته ضمن المجموعة العلمية صـ ٣٣

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب حدثنا أحمد بن منبع ١٧٧/٥ عن جبير بن نفير .

ألم حرف ولكن ألف حرف و لام حرف وميم حرف) [١] .

ويعتقدون أن الصوت والحرف من كلام الله لا يحتاج إلى مخارج كذا قاله المقدسى حكاية عن مذهب السلف [٢] .

* * *

---

(١) المقدسى : هو الإمام الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ذكره فى عقيدته ضمن المجموعة العلمية من درر علماء السلف صـ ٣٤ . وأنظر الرد على الجهمية للإمام ابن حنبل وشرح الدرة المضية للسفارينى صـ ١٤٠ ، الرد على بشر المريسى للإمام الدارمى صـ ١٥٣ ، عقيدة أهل الأثر للقنوجى صـ ٧٧

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرآ حرفا من القرآن ماله من الأجر ٥/١٧٥ عن عبد الله بن مسعود .

● الخلاصة :

يتلخص مما تقدم أن عقيدة السلف فى الكلام أنه صفة قائمة بذات اللّه تعالى يتكلم بها بمشيئته ولم يزل ولا يزال متكلما . وما تكلم اللّه به فهو قائم به ليس مخلوقا ويعتقدون أن كلام اللّه بصوت وحرف وأن هذه الأصوات المسموعة من كلام اللّه والحروف المكتوبة من كلام اللّه هى عين كلام اللّه لا حكاية ولا عبارة ويعتقدون بأن الحروف والأصوات بالنسبة لكلام اللّه تعالى غير مخلوقة ، ولاتشبه أصوات وحروف المخلوقين ولاتحتاج إلى مخارج وقد يحتج عليهم بأن الأصوات والحروف لابد لها من المخارج . ويجيبون : بأن السموات والأرض قالتا : أتينا طائعين . فحصل القول من غير مخارج ولا أدوات .

ويعتقدون بأن اللّه تعالى وإن ثبت له صفة الكلام ووصف بأنه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معانى البشر التى يكون الإنسان بها متكلما فإنه تعالى ليس كمثله شئ وهوالسميع البصير .

وما أحسن المثل المضروب للمثبت من غير تشبيه ولا تعطيل :

باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه لأن المعطل يعبد عدما والمشبه يعبد صنما .

وفى هذا يقول الإمام الطحاوى من لم يتوق النفى والتشبيه لم يصب التنزيه وشتان بين كلام البشر وكلام خالق البشر سبحانه وتعالى .

وهكذا على قاعدة الكمال اللائق باللّه تعالى يثبت السلف صفة الكلام

إلا أن ابن تيمية يجعل كلامه تعالى متعلقا بمشيئته وإختياره .

والمعلوم أن ما يتعلق بالمشيئة والإختيار لا يكون إلا حادثا .

فهل يجوز ابن تيمية قيام الحوادث بذاته تعالى ؟

والجواب بنعم .. فالمتتبع لما ورد عنه يجده لا يرى مانعا من ذلك ويستدل بالعقل والنقل على ذلك . وهذا ما سيتضح عند الكلام على عقيدة ابن تيمية ومدى قربه أو بعده من السلف فى هذا الموضوع حسب ما تتضح الحقيقة من طبيعة البحث ونتائجه إن شاء الله .

● عقيدتهم فى الرؤية :

ومن عقيدة السلف أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة فى الآخرة ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (١) .

ومما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ قال الطبرى : قال على بن أبى طالب وأنس بن مالك هو النظر إلى وجه الله عَزّ وجَلّ قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فالحسنى الجنة والزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم كما فسرها رسول الله ﷺ .

ومما رواه يزيد بن هارون فى مجلسه حديث إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن جرير بن عبد الله فى الرؤية وقوله صلى الله عليه وسلم (إنكم سترون ربكم (٢) كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته) (٣) فقال له رجل فى مجلسه يا أبا خالد ما معنى هذا الحديث ؟ - (يعنى كأنه يستنكر)(٤) - فغضب وحرد وقال :

ما أشبهك بصبيغ (٥) وأحوجك إلى مثل ما فُعل به ! ويلك ! ومن يدرى

---

(١) القيامة آية : ٢٢

(٢) ينبغى ملاحظة أن التشبيه هنا للرؤية لا للمرئى يعنى تشبيه الرؤية بالرؤية .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) ١٣/٤١٩ عن جرير .

(٤) ما بين القوسين تفسير .

(٥) قصة صبيغ مع عمر بن الخطاب لما سأله عن بعض الآيات مستنكرا قال عنها ابن كثير إنها ضعيفة وأقرب ما فيها أنها موقوفة على عمر .

كيف هذا ؟ ومن يجوز له أن يتجاوز هذا القول الذى جاء به الحديث أو يتكلم فيه بشئ من تلقاء نفسه إلا من سفه نفسه واستخف بدينه ؟ وإذا سمعتم الحديث عن رسول الله ﷺ فاتبعوه ولا تبتدعوا فيه فإنكم إن اتبعتموه ولم تماروا فيه سلمتم وإن لم تفعلوا هلكتم (١) .

والسلف يستدلون على إمكانها بسؤال موسى عليه السلام لها وهو رسول الله يعلم ما يستحيل فى حق الله فلو كانت ممتنعة لما طلبها وبأن الله علق الرؤية على إستقرار الجبل بالفعل وهو جماد فلا يمتنع إذا أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه .

ويدفعون ما يرد عليهم بأن « لن ترانى » لتأبيد النفى ؛ إنها ليست للتأبيد ويفسرون لن ترانى أى لن ترانى فى الدنيا وأما فى الآخرة فلا إستحالة فى ذلك ويفسرون قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ بأن الأبصار تراه ولا تحيط به كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علما (٢) . فالمنفى هو الإدراك على جهة الإحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى العام فلا يستلزم نفى مطلق الرؤية .

● الخلاصة :

إن عقيدة السلف فى الرؤية أنها ممكنة الوقوع للمؤمنين فى الدنيا واقعة فى الآخرة بلا إحاطة ولا كيفية مستدلين بما وردت به النصوص وصحت فيه الأحاديث وبما يجيزه العقل ولا يحيله وبأن الله تعالى تجلى للجبل وهو جماد فلا مانع أن يتجلى لبعض عباده بكيفية تليق بجلاله وكماله .

ومن هنا يمكن أن يقال ان الرؤية ممكنة واللوازم ممنوعة .

---

(١) عقيدة السلف للصابونى صـ ٣٤ ، أنظر عقيدة الطبرى صـ ٩

(٢) شرح العقيدة الواسطية صـ ٨٧

● عقيدتهم فى الإيمان بالجنة والنار :

اتفق السلف على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن [١] .

ويستدلون بقوله تعالى عن الجنة : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ وعن النار : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا ﴾ وبما ورد فى الصحيحين فى حديث أنس رضى الله عنه فى قصة الإسراء وفى آخره يقول صلى الله عليه وسلم : (ثم انطلق بى جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدرى ما هى قال : ثم دخلت الجنة فإذا هى جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك) وقوله صلى الله عليه وسلم : (وأيم الذى نفس بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) [٢] .

وعقيدة جمهور السلف أن الجنة والنار لا تفنيان أبدا ولا تبيدان وقال ببقاء الجنة وفناء النار جماعة من السلف [٣] ولكل فريق أدلته من الكتاب والسنة .

وبفضل الله تعالى سأناقش رأى كل من الفريقين وأدلتهما عند الكلام على عقيدة الأمامين ابن حنبل وابن تيمية . والمقارنة بينهما .

فى الباب الأخير من هذا البحث إن شاء الله رب العالمين

* * *

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز تحقيق أحمد شاكر صـ ٣٦٩

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب قول النبى ﷺ لو تعلمون ما أعلم الغ ٣١٩/١١ عن أبى هريرة .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٣٧٣ ، حادى الأرواح لابن قيم الجوزية صـ ٢٥ . وأنظر تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير .

موقف السلف من بعض المفاهيم الهامة

من الجدير الإشارة هنا بإيجاز إلى بعض المفاهيم من وجهة النظر السلفية - لتكون المعايير حاضرة ، فتسهل الموازنة والمقارنة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

من هذه المفاهيم التى ينبغى الإشارة إليها ما يلى :

١ - التأويل
٢ - الحقيقة والمجاز
٣ - المحكم والمتشابه
٤ - التفويض
٥ - ظواهر النصوص .

١ - موقف السلف من التأويل :

لقد عرف التأويل فى الكتاب والسنة واللغة وعند السلف وأطلق على معنيين:

الأول : بمعنى بيان المرجع والمصير والعاقبة .

الثانى : بمعنى التفسير والتدبر والبيان .

أما المعنى الأول فى الكتاب العزيز كقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول ن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

قال الطبرى (١) :

وأحسن تأويلا أى جزاء لأن الجزاء هو الذى آل إليه أمر القوم وصار إليه .

---

(١) تفسير الطبرى صـ ١٨٤ جـ ٣ ط ٢ القاهرة .

وقال ابن كثير [١] :

وأحسن تأويلا أى عاقبة ومآلا .

والمعنى الثانى : كقوله تعالى : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ .

وقال ابن كثير [٢] :

بتأويله أى بتفسيره .

وأما استعمال التأويل بالمعنى الأول وهو العاقبة والمرجع والمصير فى السنة المطهرة .

كقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه الإمام أحمد فى مسنده عن سعد بن أبى وقاص قال :

سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ فقال : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد . (أى لم يحصل ولم يحدث تأويلها العملى الذى هو عين تأويلها والذى هو مصير المخاطبين وعاقبة أمرهم) [٣] .

وأما استعمال التأويل بالمعنى الثانى وهو التفسير فى السنة أيضا كقوله عليه الصلاة والسلام حين دعا لابن عباس رضى الله عنه (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) [٤] .

فالمراد معرفة معانى الايات وبيان مقاصد الشريعة فالتأويل هنا بمعنى البيان والتفسير .

---

(١) تفسير ابن كثير صـ ٥١٨ جـ ١ طـ دار إحياء الكتب العربية .

(٢) تفسير ابن كثير صـ ٩٨ جـ ٣ طـ إحياء الكتب العربية .

(٣) تفسير ابن كثير صـ ١٤٠ جـ ٢

(٤) رواه أحمد والطبرانى والبيبهقى .

وأما كون التأويل فى اللغة ورد بالمعنى الأول والثانى أى بمعنى المرجع والعاقبة .. وبمعنى التفسير والبيان [١] .

فذلك ما ثبت فى مراجع اللغة وما استعمل على السنة اللغويين من رواة ومحدثين حتى بداية القرن الخامس الهجرى وهنا يمكن الإستفادة بنتائج البحث العلمى الذى توصل إليه الجليند [٢] فى رسالته عن التأويل وقد انتهى إلى نفس النتيجة حيث جاء فى بحثه (إن كلمة التأويل كانت تستعمل على ألسنة اللغويين من رواة ومحدثين حتى بداية القرن الخامس الهجرى فى معنى المرجع والمصير والعودحيث لم يرد إلينا فى المعاجم التى وضعت فى هذه الفترة - وهى المصدر الوحيد لكل المعاجم التى وضعت بعد ذلك - ما يخالف ذلك) .

وإذا إنتقلنا إلى لسان العرب وهو من نتاج القرن السابع الهجرى وقد جمع فيه ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ كل ما يتصل بمادة « أول » نجد أنه ينقل لنا أمثلة وإستشهادات تؤكد هذا المعنى وتوضحه [٣] .

وعلى كل فليس أمامنا إلا قواميس اللغة وقد دلت على ذلك .

وأما التأويل عند السلف : فلم يخرج عن المعنيين السابقين . فلقد استعملا فى عصر الصحابة رضى الله عنهم وعليهما درج السلف فعندهم تأويل الآية بمعنى تفسيرها وتوضيحها .

كما ورد عن الإمام ابن حنبل فى كتابة (الرد على الجهمية والزنادقة) يقول: القول فى تأويل هذه الآية : أى تفسيرها وبيانها وكذلك الإمام الطبرى فى تفسيره المعروف .

---

(١) مختار الصحاح ولسان العرب صـ ٣٣ جـ ١١ وتهذيب اللغة صـ ٤٣٧ جـ ١٥ والطبرى صـ ١٨٤ جـ ٣ .

(٢) أنظر الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل صـ ٣٠ .

(٣) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل للجليند صـ ٣٠.

وقد تبع كلاهما فى ذلك أئمة المفسرين كابن عباس ومحمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن إسحاق وابن قتيبة . ومجاهد .

وأما التأويل بمعنى المرجع والمآل والعاقبة :

فكما ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (إن القرآن نزل حيث نزل فمنه آىٌ قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى وقع تأويلهن على عهد النبى ﷺ .

ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم . ومنه آى يقع تأويلهن فى آخر الزمان . ومنه آى يقع تأويلهن يوم القيامة [١] .

فيفهم من هذا أن هناك من الآيات ما لا يعلم تأويلهن أحد إلا الله لا نهن لم يقعن ولم يعرفن .

يقول الإمام ابن تيمية فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها لاما يتصور من معانيها فى الأذهان ويعبر عنه باللسان. وهذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، وتأويل الصفات هو الحقيقة التى انفرد الله تعالى بعلمها ، وهو الكيف المجهول الذى قال فيه السلف - كما لك وغيره .

الإستواء معلوم والكيف مجهول .. يعلم معنى ويفسر ، وهو من التأويل الذى يعلمه الراسخون فى العلم وأما كيفية ذلك الإستواء : فهو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى [٢] .

ومن هنا يمكن معرفة الفرق بين التأويل بمعنى التفسير والتأويل بمعنى المرجع والمآل والمصير .

---

(١) تفسير سورة الأخلاص لابن تيمية صـ ١٠٦

(٢) مجموع الفتاوى صـ ٣٦ وما بعدها جـ ٥

فقد يعلم الإنسان معانى الألفاظ ويعلم التفسير اللغوى لها ولا يمكنه معرفة تأويلها الذى هو بمعنى المصير والحقيقة والكيف ، كما فى باب أسماء الله وصفاته . ومن هنا يقال فى صفة كالإستواء الاستواء معلوم والكيف مجهول .

أى أن معنى اللفظ وهو الإستواء معلوم ومعروف أما كيفيته فلا يمكن تأويلها لأن كيفية صفات الله لا يعلمها إلا الله .

والمعنيان السابقان للتأويل وهما التفسير والمآل . هما اللذان عرفا عند السلف .

أما عند المتأخرين : فقد عرف نوع ثالث من التأويل وهوالذى اصطلح عليه علماء الكلام والأصول والفقه .

● وعرفوه بأنه :

حمل الظاهر على المحتمل المرجوح فإن حمل لدليل فصحيح أو لما يظن دليلا ففاسد أو لا شئ فلعب لا تأويل [١] .

وقيل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به [٢] .

وقيل هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلى إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك اللفظ [٣] .

والتأويل يهذا المعنى الأخير هو الذى رفضه السلف واعتبروه تحريفا باطلا لأنه صرف للكلام عن ظاهره إلى ما يخالف هذا الظاهر [٤] .

---

(١) حاشية البنانى على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع للسبكى صـ ٤٦ جـ ٢

(٢) رسالة الأكليل ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٧ جـ ٢

(٣) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير صـ ٨٠ جـ ١ ط المكتبة العربية ولسان العرب صـ ٣٣ جـ ١١ طـ بيروت للطباعة والنشر .

(٤) رسالة الأكليل لابن تيمية صـ ٢٣ جـ ٢

ويقسم ابن قيم الجوزية التأويل الباطل إلى أنواع :

١ - منها ما لم يحتمله اللفظ بوضعه الأول مثل تأويل قوله صلى الله عليه وسلم « حتى يضع رب العزة فيها رجله » كتأويل الرجل بأنها جماعة من الناس فإنه لا يعرف فى لغة العرب .

٢ - ومنها ما لم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع وإن احتمله مفردا كتأويل قوله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدى ﴾ بالقدرة .

٣ - ومنها ما لم يحتمله سياقه وتركيبه وإن احتمله فى غير ذلك السياق كتأويل قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ﴾ بأن اتيان الرب اتيان بعض آياته التى هى أمره . وهذا يأباه السياق (١) .

لأن كثيرا من ألفاظ العربية قد تحتمل معنى فى سياق لا تحتمله فى سياق آخر كلفظ اليد مثلا فإنها عند الإطلاق تحتمل معانى كثيرة كالنعمة والقدرة وإنما يتبين معناها بحسب السياق الذى وردت فيه .

ومن لم يفرق بين ما يقتضيه السياق من المعنى المراد وقع فى الخطأ (٢) .

وبالجملة فكل تأويل يرجع إلى نصوص الكتاب والسنة بالإبطال فهو تأويل باطل (٣) .

• أما التأويل الصحيح :

فهو كل تأويل له أصل من الأدلة الشرعية فترك شئ من ظواهر النصوص لأجل دليل آخر من الكتاب والسنة يوضح المراد فهو تأويل صحيح مقبول لدى الأئمة.

---

(٢) مختصص الصواعق لابن قيم الجوزية صـ ١١ جـ ١

(٣) الإمام بن تيمية وموقفه من قضية التأويل صـ ١٧٦

(٤) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم صـ ١٤ جـ ١

وقد يدل سياق الكلام ويوضح المراد من النصوص لأن السياق والقرائن المحققة بالألفاظ تبين المراد من بعض الكلمات المجملة التى تحتمل لعدة معان لأن كثيرا من الألفاظ العربية قد تحتمل معنى فى سياق بينما لا تحتمله فى سياق آخر . فالسياق والقرائن والعبارات الخاصة لها أهميتها فى بيان المقصود بالألفاظ [1].

ومن هنا كان التأويل الصحيح هو الذى يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة [2] وما خالف ذلك فهو فاسد ولذا يقول الإمام ابن تيمية فالتأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم . والتأويلات التى يذكرونها لا يعلم أن الرسول أرادها بل يعلم بلاضطرار فى عامة النصوص أن المراد منها نقيض ما قالوه [3] .

ومن الأمثلة على التأويل الصحيح « قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وتأويل المعية هنا بالعلم لأن السياق يدل عليها فقد بدأ الآية بالعلم وختمها بالعلم .

وقد دل النص على ذلك فكان مسوغا للجواز .

فليس التأويل لمجرد الرأى والهوى بل لابد من السياق والقرائن المحققة بالألفاظ التى تبين المراد من بعض الكلمات المجملة .

وإنما منع التأويل لكونه ردا لكثير من ظواهر النصوص التي يجب إثباتها . وأيضا لأنه يمهد الطريق لكل من يريد هدم الدين وابطال نصوصه وتعطيل أحكامه .

---

(١) مختصر الصواعق صـ ١١ وما بعدها جـ ١ ومقدمة أصول التفير لابن تيمية صـ ٤٣ وما بعدها طـ السلفية .

(٢) العقيدة الطحاوية صـ ١٧٣

(٣) موافقة صريح المعقول الصحيح المنقول صـ ١٥٤ جـ ١

ومن هناكثرت الفرق الزائفة فى الإسلام تحت شعار التأويل للنصوص وصرفها عن ظاهرها وادى ذلك إلى إستباحة تفسير كل فرقة وتأويل النصوص على هواها. حتى قيل إنه ما نشأت الفتن وإستحدثت البدع إلا بسبب التأويل وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية « وجميع ما فى الكون من بدع وإحداث تخالف موجب القرآن فأساسها التأويل ذو البطلان لا تأويل أهل العلم والإيمان [١] .

* * *

---

(١) نونيه ابن القيم صـ ٢٦٦ جـ ١ ط الإمام .

موقف السلف من الحقيقة والمجاز

لما كان التأويل فى جوهره حمل اللفظ على معناه المجازى لا الحقيقى كان من الأوفق الإشارة إلي الحقيقة والمجاز وهل يجوز المجاز فى القرآن الكريم . وهل تحمل آيات الصفات على الحقيقة أم المجاز ؟! وهل تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز وارد أم لا ؟

ومن خلال البحث والدراسة : تبين أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز لم يكن واردا فى القرون الثلاثة الأولى .

يقول ابن قيم الجوزية :

إن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيما شرعيا ولا عقليا ولا لغويا فهو اصطلاح محض ، وهو إصطلاح حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة بالنص وقد ساق أدلة كثيرة بلغت الخمسين دليلا على منعه [(١)] وإنه وإن كان المجاز غالبا على اللغات إلاأن المنكرين له لا يسمونه مجازا بل هو عندهم أسلوب من أساليب اللغة [(٢)] .

وإن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز عمل محدث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ولا أساس لهذا التقسيم بين أئمة اللغة المتقدمين ومن ظن أن من أهل اللغة من نص على أن هذا اللفظ حقيقة فى هذا المعنى مجاز فى غيره فقد قال بما لا يستطيع أن يقدم دليلا عليه ، وقال فى ذلك بلا علم [(٣)] .

---

(١) مختصرا لصواعق المرسلة صـ ٥ جـ ٢

(٢) منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز للشنقيطى (المقدمة) .

(٣) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ص ٣٦٢ .

إن منشأ القول بتقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز - يرجع إلى المعتزلة والجهمية ومن سلك طريقهم من المتكلمين .

وأشهر ضوابطهم للحقيقة :

إنها اللفظ المستعمل فيما وضع له أولا .

والمجاز :

هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولا .

وما دام تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيماً محدثاً لم يعرف إلا بعد القرون الثلاثة الأولى ولم يشتهر إلا في القرن الرابع الهجري حيثما صار أصحاب المذاهب المختلفة من أنباط الفرس وأهل الأهواء يستعملون الألفاظ في غير معانيها بل يعبرون بها عن معان خاصة بهم قد اصطلحوا عليها فيما بينهم وتلقاها جمهور الناس عنهم .

ومن هنا وقع الغلط بين كثير من الناس لأنهم قد تعودوا ما جرى بينهم من الخطاب على عاداتهم في إستعمال الألفاظ في المعنى المستعمل على ألسنة علمائهم من أهل الفلسفة والكلام ، فإذا سمعوا اللفظ في القرآن أو في الحديث ظنوا على حسب فهمهم أنه مستعمل في ذلك المعنى المحدث الذي تعارف عليه هؤلاء ، فيحملون كلام الله ورسوله على ألسنتهم . وكان هذا مدخل الخلط عند كثير من الناس [1] بينما لو عرفت لغة العرب الذين نزل القرآن عليهم بلغتهم وكانوا يفهمون من مدلول هذه الألفاظ عند نزول القرآن بها فبتلك اللغة وعلى عادة القوم وعرفهم في الخطاب كان خطاب القرآن لهم وليس بما حدث بعد ذلك عن هذه التقسيمات المحدثة ولا كان خطابهم بهذه المعاني الاصطلاحية الخاصة ، وكل لفظ ورد في القرآن فإنه مقيد بما يدل على معناه .

---

(١) الإمام بن تيمية وموقفه من قضية التأويل صـ ٣٦٦

ومن هنا يمكن أن يقال إنه لا يوجد فى القرآن شئ من المجاز بل كله حقيقة [١] والدليل على منع المجاز فى القرآن الكريم الإجماع على أن كل مجاز يجوز نفيه ويكون نافيه صادقا فى نفس الأمر ، فتقول لمن قال رأيت أسدا يرمى ليس هو بأسد وإنما هو رجل شجاع فيلزم على القول بأن فى القرآن مجازا أن فى القرآن ما يجوز نفيه مع أنه لا يجوز نفى شئ من القرآن [٢] ولهذا يقول الإمام ابن تيمية :

إذا جاز تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز حسب الاصطلاحات الحادثة ، فينبغى ألا نخضع لغة القرآن لهذا التقسيم لأنه نوع من التمويه والإيهام على السامع . بل إنه ذهب إلى أكثر من هذا فقال بنفى المجاز ليس فى القرآن فحسب بل وفى السنة وفى لغة العرب [٣] .

ويفهم مما سبق أن القرآن ليس فيه مجاز وأن القول فيه بالمجاز ذريعة لنفى كثير من صفات الكمال والجلال للّه تعالى [٤] وأن نفى ما ثبت فى الكتاب أو السنة لا شك فى أنه محال .

ومن هنا يمكن القول بأن آيات الصفات تحمل على الحقيقة لا على المجاز طالما أن القرآن ليس فيه نوع من المجاز . فإن قيل : إذا منع المجاز فى آيات الصفات فما معنى الحقيقة فيها ؟ فالجواب أن الصفات تختلف حقائقها بإختلاف موصوفاتها فللخالق جل وعلا صفات حقيقية تليق به وللمخلوق صفات حقيقية تناسبه وتلائمه وكلّ من ذلك حقيقة فى محله [٥] .

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع .

(٢) منع جواز المجاز صـ ٨

(٣) الإيمان لابن تيمية والكافية الشافية فى الإنتصار للفرقة الناجية لابن قيم الجوزية شرح أحمد ابن إبراهيم صـ ١٣٠ جـ ٢

(٤) منع جواز المجاز للشنقيطى صـ ٣ طـ المدنى بمصر

(٥) المرجع السابق صـ ٥٣ بتصرف .

فإن قيل إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسول الله ﷺ . أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم فلصرفها عن ظاهرها .

لابد فيه من أربعة أمور :

أحدهما : أن يكون ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازى لأن الكتاب والسنة كلام السلف جاء بلسان العرب ولا يجوز أن يراد بشئ منه خلاف لسان العرب . فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازى مما يراد به اللفظ وإلا فيمكن لكل مبطل أن يفسر أى لفظ بأى معنى يسنح له وإن لم يكن له أصل فى اللغة .

ثانيهما : أن يكون معه دليل قاطع يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه.

ثالثهما : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل القاطع عن المعارض .

رابعها : أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره فلابد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه سواء عينه أم لم يعينه لاسيما فى الخطاب العلمى الذى أريد منهم فيه الإعتقاد والعلم (١) فإنه سبحانه جعل القرآن نورا وهدى وبيانا للناس وشفاء لما فى الصدور .

ولتوضيح الموضوع يمكن تقسيم الألفاظ إلى نوعين (٢) :

النوع الأول :

ما معناه مفرد : كلفظ السيف مثلا فإنه إذا استعمل فى تركيب لغوى مثل : « خالد سيف الله » فاللفظ فى هذا الإستعمال فيه تجوز وإن كان قد ظهر من اللفظ مراد صاحبه فهو محمول على هذا الظاهر فى (استعمال المتكلم) لا على الظاهر فى معناه (المفرد) عن هذا التركيب ، وهذا يوجب أن يكون اللفظ نصا فى معناه لا محتملا .

---

(١) الرسالة المدنية فى تحقيق المجاز والحقيقة فى صفات الله تعالى صـ ١٤ وما بعدها ملخصا طـ السلفية .

(٢) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ملخصا .

وليس حمل هذا اللفظ على هذا المعنى من التأويل الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره ، حتى يقال إن المراد من هذا المثال « خالد سيف من سيوف الله » حقيقة السيف المعروفة . ولكن هذا المثال وأمثاله يجب أن يفهم فى ضوء ما يسمى بالموقف اللغوى العام وذلك يكون بقرائن الأحوال بالنسبة للمتكلم والمخاطب وسياق الكلام ، والعرف اللغوى فكل هذه العوامل وغيرها تعطى اللفظ صفة الظهور فى دلالته على معناه الذى يريده المتكلم ويكون نصا فى هذه الدلالة بصرف النظر عن معناه المجرد عن السياق ويكون هذا من باب ما يجوز أن يعبر به لغة . فهو من قبيل المجاز اللغوى ، لكنه ليس قسيما للحقيقة بل المقصد أنه مما يجوز فى اللغة . ويكون نصا فى دلالته على مراد المتكلم وليس مجاز فيه .

فالتجوز ليس فى دلالة اللفظ على المراد ، وإنما هو فى التعبير به عن المراد .

النوع الثانى :

ما يكون فى معناه إضافة :

إما بأن يكون المعنى إضافة محضة كالعلو والإستواء والفوق و التحت أو بأن يكون المعنى ثبوتيا فيه إضافة كالعلم والحب والبغض .

وهذا النوع من الألفاظ لا يمكن أن يكون له معنى مفرد بحسب موارده لأنه لم يستعمل مفردا بل لابد فيه من إضافة توضح ما يراد منه ، وجميع أفراد هذا النوع من الألفاظ لا يلزم منها الإشتراك أو المجاز ، بل هى حقيقة فى القدر المشترك بين جميع مواردها وصفات الله تعالى من هذا الباب فمثلا لفظ استوى لم تستعمله العرب فى خصوص جلوس الإنسان على السرير حتى يصير حقيقة فى هذا المعنى .. مجازاً فيما عداه بل يستعمل الإستواء أحيانا مطلقا بلا تعدية كقوله تعالى (ولما بلغ أشده واستوى) وأحيانا مقرونا بحرف الغاية (استوى إلى السماء) وأحيانا بحرف الإستعلاء (ثم استوى على العرش) وتارة يكون صفة لله تعالى ، وتارة يكون صفة للبشر ، ولا ينبغى أن يكون فى أحد الموضعين حقيقة وفى الآخر مجازا كما لا ينبغى أن يفهم أن الخاصية الثابتة لله تعالى هى الخاصة الثابتة للبشر . بل يجب التفريق بين ما يدل عليه اللفظ مجردا وما يدل عليه بخصوص إضافته إلى الفاعل المعين .

وبهذه التفرقة ينكشف الإشكال الذى وقع فيه كثير من الناس ويزول اللبس (١) فهو إذا أضيف إلى الله يكون حقيقة في المعنى المراد وصف الله به لا مجازا وهذه الحقيقة لا يشركه فيها غيره لخصوصيتها به .

وكذا إذا أضيف إلى الإنسان يكون حقيقة فيه لا مجازا لخصوصيته به .

ومن هنا يعلم أن الحقيقتين مختلفتان لإختلاف الذاتين الموصوفتين بهما .

ومن هنا يعلم أيضا الفرق بين المجاز فى اللغة والمجاز فى الدلالة فالمجاز فى اللغة هو المجاز فى التعبير اللغوى بمعنى أنه جائز وسائغ .

أما المجاز فى الدلالة على المراد فمعناه أن اللفظ حقيقة فى هذا المعنى مجاز فى غيره . وهذا لم يقل به أحد من المتقدمين كما سبق .

وغاية ما يحتج به القائلون بالمجاز قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ وقوله تعالى : ﴿ جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ . وأمثال ذلك فالجواب : أن قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ لا مانع من حمله على حقيقة الإرادة المعروفة فى اللغة ، لأن الله يعلم للجمادات مالا نعلمه لها كما قال تعالى : ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن ولا تفقهون تسبيحهم ﴾ وقد ثبت فى الصحيح (٢) حنين الجذع الذى كان يخطب عليه صلى الله عليه وسلم وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال : (إنى أعرف حجرا كان يسلم على فى مكة) (٣) وأمثال هذا كثير فلا مانع أن يعلم الله من ذلك الجدار إرادة الأنقضاض .

والجواب من قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ من وجهين :

الأول : ان إطلاق القرية وإرادة أهلها من أساليب اللغة العربية الجائزة .

الثانى : ان المضاف المحذوف كأنه مذكور لأنه مدلول عليه بالإقتضاء وتغيير الإعراب عند الحذف من أساليب اللغة الجائزة أيضا (وما يلى المضاف يأتى خلفا - عنه فى الإعراب إذا ما حذفا) مع أن كثيرا من علماء الأصول يسمون

---

(١) الرسالة التسعينية صـ ١٢٩ وما بعدها ملخصا . وأنظر الفتاوى جـ ٥

(٢) رواه البخارى

(٣) رواه مسلم

الدلالة على المحذوف فى مثل (واسأل القرية) دلالة الإقتضاء ، واختلفوا هل هى من المنطوق غير الصريح أو من المفهوم ؟

والجمهور على أنها من المفهوم لأنها دلالة التزام وعامة البيانيين وأكثر الأصوليين على أن دلالة الإلتزام غير وضعية وإنما هى عقلية ودلالة المجاز على معناه مطابقة وهى وضعية بلا خلاف [1] .

ومن هنا يتبين أن مثل (واسأل أهل القرية) من المدلول عليه بالإقتضاء وإنه ليس من المجاز عند جمهور الأصوليين القائلين بالمجاز فى القرآن فليس عند غيرهم من باب أولى ، مع أن حد المجاز لا يشمل مثل هذه الآية لأن القرية فيه عند القائلين بأنه من مجاز النقص مستعلمة فى معناها الحقيقى ، وإنما جاءها المجاز عندهم من قبل النقص المؤدى لتغيير الإعراب . وقد تقدم أن المحذوف مقتضى ، وإن إعراب المضاف إليه إعراب المضاف إذا حذف من أساليب اللغة العربية الجائزة .

● الخلاصة :

وهكذا فى مثل هذه الأمثلة يقال انها من الأساليب الجائزة ولا يقال انها من باب المجاز الذى هو قسيم الحقيقة .

لأن المجاز اختلف فى أصل وقوعه قال أبو إسحاق الإسفرائينى وأبو على الفارسى : أنه لا مجاز فى اللغة أصلا كما عزاه لهما ابن السبكى فى جمع الجوامع . فمنعه فى القرآن من باب أولى وغاية ما يقال أنه غالب على اللغات وواقع فيها فيجاب عنه بأن كل ما يسميه القائلون بالمجاز مجازا فهو من أساليب اللغة الجائزة وليس المجاز الذى هو قسيم الحقيقة .

وعلى فرض وقوعه فى اللغة العربية فلا يجوز القول به فى القرآن الكريم وذلك لأن القائلين بالمجاز مجمعون على أن كل مجاز يجوز نفيه ويكون نافيه

---

(١) منع جوازالمجاز للشنقيطى ٢٦

صادقا فى نفس الأمر فتقول لمن قال رأيت أسداً يرمى ليس هو بأسد وإنما هو رجل شجاع فيلزم على القول بأن فى القرآن مجازا أن فى القرآن ما يجوز نفيه . ولا شك أنه لا يجوز نفى شئ من القرآن .

والقول به ذريعة إلى نفى كثير من صفات الله تعالى وعن طريق القول بالمجاز توصل المعطلون لنفى كثير منها فقالوا : لايد ولا إستواء ولا نزول ونحو ذلك فى كثير من آيات الصفات لأن هذه الصفات عندهم لم ترد حقيقتها بل هى عندهم مجازات . فاليد مستعملة عندهم فى النعمة أو القدرة والإستواء فى الإستيلاء وهذا يؤدى إلى نفى الصفات الثابتة بالوحى عن طريق القول بالمجاز .

ومن هنا كان المجاز ذريعة تؤدى إلى العبث بكتاب الله تعالى وجعله مثل سائر الكلام ، فسدا للذرائع وتكريما لكلام الله عن سائر الكلام لا يقال فيه بالمجاز .

وأيضا فان القول بالمجاز فى الصفات الالهية يقتضى أن الله تعالى لم يتصف بهذه الصفات حقيقة وإنما وصف بها على سبيل المجاز ، والمجاز نوع من الكذب فى الخطاب ، وتمويه فى الأسلوب ومن هنا كان منع جواز المجاز فى القرآن الكريم وتنزيه آياته فيما يخص الجانب الالهى منه أولى وأحق .

* * *

موقف السلف من المحكم والمتشابه

إن الدافع للإشارة هنا إلى المحكم والمتشابه أن كثيرا من أهل العلم يعتبرون الصفات الخبرية من باب المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ومن هنا ينسب إلى السلف أنهم مفوضون بينما نفى السلف عن أنفسهم هذه النسبة .

وثبت أن بعض الصحابة رضى الله عنهم كابن عباس رضى الله عنه قال : نحن من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله [1] فى قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات * فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ [2] .

وبإيجاز نوضح معنى المحكم والمتشابه :

المحكم لغة : الذى لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى .

والمتشابه خلافه . وسورة محكمة غير منسوخة [3] .

ويطلق المحكم والمتشابه فى القرآن باطلاقات ثلاثة :

١ - فيطلق المحكم ويراد به الناسخ .

ويطلق المتشابه ويراد به المنسوخ .

٢ - يطلق المحكم على ما يقابل المتشابه ويراد به على هذا الإطلاق معنيان :

(١ متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار صـ ١٥

(٢) آل عمران : ٧

(٣) معجم متن اللغة صـ . ١٤ جـ ٤ ط الحياة بيروت .

الأول : ما كان واضح الدلالة على المعنى المراد والمتشابه على العكس وهو ما كان خفى الدلالة على المعنى المراد . أو ما كان محتملا لأكثر من معنى ويسمى المتشابه النسبى .

والثانى : ما كانت حقيقته المقصودة معلومة .

والمتشابه على خلاف ذلك وهو ما لا يعلم حقيقته ومآله وكيفيته إلا اللّٰه كذاته تعالى وصفاته . وهو المتشابه الحقيقى .

والمحكم والمتشابه بالإطلاق الثانى هما المعنيان فى الآية السابقة من آل عمران [1] كما يقول ابن تيمية [2] .

٣ - والثالث : يطلق المحكم ويراد به المتقن الذى لا يتطرق إليه الخلل ويطلق مقابلا لما يلقيه الشيطان .

وجملة كتاب اللّٰه على هذين المعنيين محكم لأنه لا يشتبه بغيره ولا يشتبه به غيره قال تعالى : ﴿ كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ فالمراد بالمحكم هنا جميع القرآن . لأنه أريد به الإتقان المانع من تطرق الخلل إليه . وهذا معنى كون القرآن كله محكما .

وأما كونه كله متشابها :

كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ اللّٰه نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّٰه ﴾ [3] .

فالمتشابه هنا أريد به المماثلة فى الصدق والحسن والبيان ولا شك أن القرآن كله متشابه بهذا المعنى . أى يشبه بعضه بعضا فى الهداية والسلامة من التناقض والإختلاف [4] .

---

(١) آية : ٧

(٢) رسالة الأكليل ضمن مجموعة الرسائل صـ ٧ جـ ٢ والموافقات صـ ٨٥ جـ ٣

(٣) الزمر : ٢٢

(٤) تفسير المنار صـ ١٦٣ جـ ٣ ملخصا .

وأما كون بعضه محكما وبعضه متشابها :

كما قال الله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾[1]

فإن القرآن منه ما هو خفى الدلالة على المعنى المراد وواضح الدلالة على المعنى المراد .

فما كان خفيا فهو المتشابه وما كان واضحا فهو المحكم وحينئذ فلا تعارض بين هذه الإطلاقات [2] .

وقد ينجر الكلام فى هذا المقام إلى هذا الإستفسار وهو هل التأويل فى آية آل عمران [3] يعلمه الله فقط أم يعلمه الله والراسخون فى العلم ؟

للعلماء مذهبان :

الأول : أن التأويل لا يعلمه إلا الله وهذا عند من يقف على لفظ الجلالة .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . والواو مستأنفة غير عاطفة وهومذهب جمهور السلف من الصحابة والتابعين منهم عمر وابن عباس وابن مسعود ومنهم ابن الأنبارى وإختاره بعض المفسرين كالطبرى .

الثانى : أن التأويل يعلمه الله والراسخون فى العلم وهذا عند من يقفون على قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ .

وهو مذهب بعض السلف ذهب إليه ابن عباس فى بعض ما أثر عنه ومجاهد والربيع [4] وأيد هذا المذهب الإمام النووى وابن الحاجب وابن فورك [5] .

---

(١) جزء من الآية ٧ آل عمران .

(٢) مناهل العرفان صـ ١٦٧ جـ ٢ ط دار إحياء التراث ببيروت .

(٣) آية : ٧

(٤) تفسير ابن كثير صـ ٣٤٧ وموافقة صريح المعقول صـ ١٥٨ جـ ١ملخصا .

(٥) تفسير أضواء البيان صـ ٣٣٧ جـ ١ وفتح القدير للشوكانى صـ ٢٨٦ وما بعدها جـ ١ ملخصا .

ويمكن التوفيق بين المذهبين بتحديد معنى التأويل الذى لا يعلمه إلا اللّٰه والذى يعلمه الراسخون فى العلم .

فالذى لا يعلمه إلا اللّٰه هو المتشابه الحقيقى ويكون المراد بالتأويل هنا المآل والمرجع والحقيقة والكنه .

واما الذى يعلمه اللّٰه ويعلمه الراسخون فهو المتشابه الإضافى لا الحقيقى وهو ما كان خفى الدلالة على غير الراسخين ، أما الراسخون فيعلمونه ويفسرونه .

ويكون المراد بالتأويل حينئذ : التفسير والبيان ومن هنا يكون التأويل المنفى عن الراسخين غير التأويل الثابت لهم .

ومن هنا يمكن الجمع بين المذهبين .

ويمكن الوقف عند لفظ الجلالة وعند الراسخين فى العلم فى الآية السابقة [١] .

* * *

(١) الاية : ٧ من سورة آل عمران .

موقف السلف من التفويض

نشأ مفهوم التفويض بناء على القول بأن التأويل لا يعلمه إلا الله .

وذهب كثير من المتكلمين إلى القول بأن مذهب السلف هو التفويض ويعنون به : أنه لا سبيل إلى معرفة معانى آيات الصفات لأحد من الخلق لأن علم ذلك إلى الله وحده مع القطع بأن ظواهر النصوص غير مرادة . أى يؤمنون بها ويفوضون معناها إلى الله . ومن الذين حكوا أن مذهب السلف التفويض فى الصفات الإمام الرازى والإمام السيوطى وغيرهما .

يقول الإمام السيوطى :

ان جمهور أهل السنة وأهل الحديث على الإيمان بها - أى آيات الصفات - وتفويض معناها إلى الله ، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها (١) .

ويصرح بعض المتأخرين :

أن السلف والخلف متفقون على صرف نصوص الصفات عن ظواهرها . وبذلك يصبح الجميع (أى السلف والخلف) فى نظرهم من المؤولين (٢) ، غير أن السلف كان تأويلهم إجماليا بمعنى أنهم لا يعينون المراد من النصوص مع القطع أن ظاهر النصوص غير مراد والخلف عينوا المعنى المراد (٣) فكان تأويلهم تفصيليا . وبعضهم يقر مذهب السلف بأنه صرف النصوص عن ظواهرها المستحيلة وإعتقاد أنها غير مرادة وباطلة ثم يعبر عن مذهب السلف ويسميه مذهب المفوضة وهو تفويض معانى هذه المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهها عن ظواهرها المستحيلة (٤) .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى صـ ٦ جـ ٢ ط حجازى القاهرة .

(٢) تحفة المريد على جوهرة التوحيد صـ ٥٧ ط الحلبى .

(٣) شرح الخريدة البهية للدرديرى صـ ٧٥ ط الإستقامة .

(٤) مناهل العرفان للزرقانى صـ ١٨٢ جـ ٢ ط التراث بيروت .

ومن هنا قيل إن السلف لا يعلمون معنى الصفات ، وإنما يفوضون معناها إلى الله تعالى .

وقيل إن هذا التفويض هو التأويل الإجمالى . وقيل إن الفرق بينهم وبين الخلف أن السلف يؤولون تأويلا إجماليا والخلف يؤولون تأويلا تفصيليا .

وظن كثير من الناس - خطأ - أن هذا مذهب السلف ولكن السلف يدافعون عن مذهبهم وينفون عن أنفسهم أنهم مفوضون إلا إذا قصد بالتفويض هنا التفويض فى الكيف والكنه أما المعنى اللغوى فهم يعرفونه (١) .

وإما التفويض بمعنى عدم معرفة المعنى فلا يقولون به بل يقولون المعنى معلوم والكيف مجهول .

وإذا كان الوقوف على قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فلا يريدون بالتأويل هنا تفسير اللفظ وبيانه ولا التأويل بالمعنى الإصطلاحى الذى هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح إلى الإحتمال المرجوح (٢) .

بل يريدون بالتأويل الذى لا يعلمه إلا الله التأويل بمعنى المرجع والمآل والحقيقة.

أما ما يظن من أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما فمدفوع لأنه يترتب عليه أن جبريل ومحمدا عليهما السلام يتلوان أشرف ما فى القرآن من الأخبار عن الله تعالى بأسمائه وصفاته وكلاهما لا يعرف مما يتلو شيئا (٣) .

وقد يدفع السلف عن أنفسهم أيضا .

القول بإجراء النصوص على ظاهرها وما يعلم تأويلها إلا الله .

فإذا عنى بظواهرها بأنه ما يظهر فيها من المعانى ؛ كان هذا تناقضا للقول بأن لها تأويلا ويخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله .

---

(١) العقائد السلفية لابن حجر صـ ١٩٩ جـ ط بيروت .

(٢) مجموع الفتاوى صـ ٣٥ جـ ٥

(٣) تفسير سورة الأخلاص لابن تيمية صـ ٩٨

وإن عنى بظاهرها مجرد الألفاظ كان المعنى أنه يتكلم بهذه الألفاظ ولها باطن يخالف ما ظهر منها وهو التأويل وذلك لا يعلمه إلا الله .

وينفى السلف عن أنفسهم ان تكون طريقتهم هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها . لأن ذلك يجعلهم بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ ولهذا يقول الإمام ابن تيمية : والحال فى هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه وفهم لمراد الله ورسوله منها واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين وإن طريقة المتأخرين هى إستخراج معانى النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستكرهات التأويلات وهذا الظن الفاسد أدى إلى نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين [١] مع أن السنة شارحة للقرآن والرسول ﷺ ترك الناس على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقد ثبت عنه أنه قال ما من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شرما يعلمه لهم .

وقال أبو ذر رضى الله عنه لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما وقال عمر رضى الله قام بيننا رسول الله ﷺ مقاما فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه [٢] .

فكيف يتوهم بعد ذلك أن الرسول أمسك أو توقف عن بيان الأمر وكيف يتوهم أن الصحابة لم يفقهوا ولم يعلموا وهم خير الأمة وهداتها واسبقها إلى كل خير [٣] .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة صـ ٨ جـ ١

(٢) رواه البخارى

(٣) الصواعق المرسلة صـ ٨ جـ ١

وإذا كان التفويض أمية وجهالة فكيف ينسب إلى سلف هذه الأمة أنهم مفوضون أو أميون ثم يظن بهم أنهم لا حظ لهم من الكتاب الحكيم إلا الألفاظ يرددونها بلا علم ولا فهم وأن الله وحده لا شريك له هو الذى استأثر بعلمه .

وقد يكون ذلك الظن مترتبا على الوقوف على قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ وهو وقف صحيح ، لكن لابد من التفرقة بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذى انفرد الله تعالى بعلمه .

فالظن بأن التأويل المذكور فى كلام الله تعالى هو التأويل المذكور فى كلام المتأخرين غلط [١] .

أى أن التأويل الذى استأثر الله تعالى بعلمه إنما هو بمعنى المرجع والمآل والحقيقة كما سبق وهذا فعلا مما استأثر الله تعالى بعلمه .

أما التأويل بمعنى التفسير والبيان فقد علمه الله تعالى لأنبيائه والراسخين فى العلم بل إن الرسول ﷺ دعا لابن عباس رضى الله عنه بأن يفقهه الله فى الدين ويعلمه التأويل فلا يعقل أن يدعو الرسول ﷺ له بشئ لا يصح أن يعلمه . بل الثابت أن الرسول ﷺ علمه وعلمه وكثير من الصحابة علموه . وقد ثبت عن ابن عباس رضى الله عنه قال : (أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله) [٢] .

وقد فسر كثير منهم القرآن الكريم وبينوه .

وفى هذا يقول الإمام ابن تيمية :

لا يجوز أن يكون الله تعالى أنزل كلاما لا معنى له ولا يجوز أن الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه [٣] لأن الدلائل واضحة أن القرآن نزل للبيان وأنهم بينوه (هذا بيان للناس ولينذروا به) (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة صـ ١٠٦ والفتاوى صـ ٣٥ جـ ٥

(٢) متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار صـ ١٥ وما بعدها ملخصا .

(٣) تفسير سورة الأخلاص صـ ١١٩

ومن هنا لم يقل أحد من السلف أن المتشابه لا يعلم تأويله أى تفسيره إلا الله لأن الصحابة كما ذكر فسروه ومن تبعهم بإحسان كانوا على ذلك وكتاب الإمام ابن حنبل « الرد على الجهمية والزنادقة كله تفسير للمتشابهات » وكذلك كتاب « الرد على الجهمية للإمام الدارمى » (١) .

ولكن المهم أن يفرق بين التأويل بمعنى التفسير وبين التأويل فى اصطلاح المتأخرين الذى هو صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى يخالف ذلك .

فالخلاصة أن المذموم فقط تأويل الكلام على غير تأويله .

أما تأويله بمعنى تفسيره المطابق لمعناه فهو محمود ليس بمذموم (٢) .

ومن هنا يتضح القول بأن أهل السنة مفوضون مردود . ولعل الذى اقتضى شهرة القول عن السلف – بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله – ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية وغيرهم فصار أولئك يتكلمون فى تأويل القرآن برأيهم الفاسد .

وتفاسيرهم مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله . وهذا الذى أنكره السلف والأئمة من التأويل (٣) ولكن جاء بعدهم من ينتسب للسنة وظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه فى إصطلاح المتأخرين . بينما قد يكون معنى التأويل هو التفسير والبيان وهذا معلوم لدى السلف يعرفونه ولا يفوضون فيه .

ومن هنا لا يقال عن السلف أنهم مفوضون على الإطلاق .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن يقال عن الصفات الخبرية التى كثر الكلام فيها بين المشبهين أو المؤولين ، أو المعطلين أو المفوضين :

---

(١) عقائد السلف . تحقيق النشار والطالبى صـ ٢٥٥ ط المعارف . اسكندرية .

(٢) تفسير سورة الأخلاص صـ ١١٩

(٣) تفسير سورة الأخلاص صـ ١٣٣

أنه بهذا التقسيم لم يظهروا رأى السلف الحقيقى فى المسألة فإنه على التحقيق يتبين أن السلف ليسوا مفوضين إلا فى العلم بالكيف فحسب . أما المعنى فلم يتوقفوا عنه ولم يجهلوه وليسوا مؤولين إلا التأويل الصحيح الجائز الذى هو بمعنى التفسير والبيان أو ما دل عليه دليل .

وليسوا مشبهين أو مجسمين لأنهم معترفون بالتنزيه لله تعالى وأنه « ليس كمثله شئ » وليسوا معطلين أو نافين .

لأنهم مثبتون لما أثبته الله ورسوله على الوجه اللائق به تعالى .

وإنما هم وسط بين المؤولة والمفوضة من جهة وبين المشبهة والمجسمة من جهة أخرى [1] .

أي أنهم يبقون نصوص الصفات الالهية - التى وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله - على ما دلت عليه من المعانى الظاهرة للألفاظ مع نفى التشبيه وتفويض علم الكيفية إلى الله تعالى .

* * *

(١) مختصر الصواعق صـ ٥٥ جـ ١

الخلاصة

إن حقيقة مذهب السلف ليس التفويض كما يشاع عنهم بل مذهبهم كما يقررونه : إثبات جميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة دون تفويض فى المعنى الذى أريد اثباته له تعالى . ويعتقدون أن نسبة التفويض إليهم كذب وافتراء وأن السلف وإن تنازعوا فى الأحكام إلا أنهم لم يتنازعوا فى آيات الصفات بل اتفق الصحابة ومن تبعهم بإحسان على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها لا فهم الكنه والكيفية (١) .

ولقد ثبت عن غير واحد من السلف أنهم فسروا معانى كثير من الصفات كالإستواء مثلا تفسيرا يدل على فهمهم للمعنى وعدم التفويض فمنهم من فسر الإستواء بمعنى الإرتفاع ومنهم من فسره بمعنى صعد أو استقر .

فهذه المعانى ثابتة عند السلف ذكرها الإمام البخارى (٢) .

وذكره الإمام أبو حنيفة فى تفسير معنى الإستواء (الرحمن على العرش استوى) أى علا (٣) وذكر فى الفقه الأكبر أن من قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض فقد كفر لأن الله يقول : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سبع سموات . ثم ذكر أن الله يدعى من أعلى لا من اسفل (٤) .

وروى البيهقى باسناد صحيح إلى الأوزاعى قال :

---

(١) مختصر الصواعق صـ ١٥ جـ ١

(٢) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء ورساله الأكليل ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٤ جـ ٢

(٣) غاية الأمانى صـ ٤٦.

(٤) العقائد السلفية لابن حجر صـ ١٢١ جـ ١

كنا والتابعين متوافرون نقول : (إن اللّه جل ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته) [1] .

وقد أنكر الإمام ابن حنبل على الجهمية إنكارهم أن يكون اللّه على العرش وقال لم أنكرتم وقد قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [2]

ورد على الجهمية والزنادقة جميع شبههم وبين معناها فى جميع الآيات المتشابهات فدل ذلك على أنه لم يكن مفوضا وإنما كان عالما بالمعنى بدليل تفسيره ، وبيانه لهم ، ودفع شبههم ، وهكذا كان السلف يعلمون المعنى ويتركون معرفة الكيف إلى اللّه تعالى .

وهذا هو ما قاله الإمام مالك الإستواء معلوم والكيف مجهول .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الرد على الجهمية صـ ١٣٥

موقف السلف من ظواهر النصوص

من مقتضيات البحث عند دراسة السلف ضرورة الوقوف على قضية النصوص وبموقف السلف منها باعتبارها ركيزة السلف وقاعدتهم فى العقيدة .

فما المراد بظاهر النصوص وهل هذا الظاهر مراد أم غير مراد ؟!!

وهنا يقال أن لفظ الظاهر فيه إجمال وإشتراك .

فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب ان هذا غير مراد . مع ان السلف لم يسموا هذا ظاهرا لأنهم لا يرضون أن يكون ظاهر القرآن كفرا وباطلا والغلط هنا من وجهين :

الأول : جعل المعنى الفاسد هو ظاهر اللفظ ومن هنا يؤولونه ليخالف الظاهر الفاسد .

والوجه الثانى : رد المعنى الصحيح الذى هو ظاهر اللفظ لاعتقادهم أنه باطل .

وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها والظاهر هو المراد فى الجميع - فإن الله تعالى لما أخبر أنه ﴿ بكل شئ عليم ﴾ واتفق السلف على أن هذا على ظاهره وان ظاهر ذلك مراد .

كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وكذلك القول فى الصفات الخبرية كقوله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ أنه على ظاهره .

لم يقتض ذلك أن يكون ظاهر الحب كحب المخلوقين .

وهنا لابد من أمرين (١) :

---

(١) العقائد السلفية صـ ٢٠٦ وما بعدها جـ ١ ملخصا . والتحفة المهدية صـ ١٣٤ ط الرياضى .

الأول : أما أن يقول المؤول أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه ألا يكون شئ من ظاهر ذلك مرادا لا علم الله ولا حبه ولا غير ذلك من الصفات .

الثانى : أن يعتقد أن ظاهر هذه الصفات على ما يليق بالخالق ويختص به وحينئذ لم يكن له نفى هذا الظاهر ونفى أن يكون مرادا إلا بدليل . وليس فى العقل ولا فى النقل ما ينفى هذا إلا من جنس ما ينفى به سائر الصفات فيكون الكلام فى الجميع واحدا [(١)] .

فإذا كانت ذاته المقدسة ليست مثل بقية الذوات فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين لأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه .

وليس المنسوب كالمنسوب ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه كما قال صلى الله عليه وسلم (ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر) [(٢)] .

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئى بالمرئى أى لم يشبه الشمس والقمر بالله تعالى . فكل منهما مرئى وموصوف بأنه يرى ولكن ليس المرئى كالمرئى فكل من الخالق والمخلوق مرئى ولم يوجب ذلك أن يكون المرئى مثل المرئى .

فالخلاصة : أنه قد يتفق الخالق والمخلوق فى الأسماء والصفات عند الإطلاق . ويختلفان عند الإضافة والإختصاص فلكل منهما ما يناسبه . وهذا معنى إن كل موصوف تناسبه صفته . وإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين [(٣)] لأنه كما علم أن الصفات فرع الذات ، فكما أن الذات لا تشبه الذوات فكذلك الصفات لا تشبه الصفات لأن المماثلة إذا انتفت بالنسبة للذات انتفت بالنسبة للصفات .

---

(١) شرح الرسالة التدمرية صـ ١٣٤ جـ ١

(٢) رواه البخارى .

(٣) الرسالة التدمرية صـ ١٣٨ ط الرياضى

ومن هنا يتضح أن من يتوهم فى بعض الصفات أو فى جميعها أنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفى ذلك يقع فى أربعة أنواع من المحاذير [(١)] .

الأول : كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

الثانى : أنه إذا جعل ذلك مفهوما وعطله ، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله تعالى .

فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السئ الذى يظنه بالله ورسوله - حيث ظن أن الذى يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل - قد عطل ما أودع الله ورسرله فى كلامهما من إثبات الصفات لله والمعانى الالهية اللائقة بجلاله تعالى .

الثالث : أنه ينفى تلك الصفات عن الله عَزَّ و جَلَّ بغير علم . فيكون معطلا لما يستحقه الرب .

الرابع : أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات فيكون قد عطل به صفات الكمال التى يستحقها الرب ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات . وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات فيجمع فى كلام الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملحدا فى أسماء الله وآياته [(١)] .

وتوضيح ما تقدم :

أن من لم يفهم من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ثم يشرع فى نفى تلك المفهومات فقد جمع بين التعطيل والتمثيل فمثل أولا ثم عطل آخرا فأما تمثيله ففى إعتقاده أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتمثيل .

وأما تعطيله ففى جحده للصفات وذلك من وجوه :

---

(١) المرجع السابق صـ ١٤٠ ملخصا .

الأول : أنه عطل النصوص التى تثبت الصفات حيث صرفها عن مقتضى ما تدل عليه فإن النصوص دالة على إثبات صفات لائقة بالله لا على إثبات صفات تدل على مشابهة الله لخلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

الثانى : أنه إذا مثل الخالق بالمخلوق فقد عطله عن كماله الواجب له حيث شبه الكامل بالناقص .

الثالث : أنه إذا شبه الله بخلقه فقد عطل كل نص يدل على نفى مشابهة الله لخلقه . يعنى إذا لم نثبت الصفات لله تعالى كانت آيات التنزيه لا فائدة منها إذ هذه الآيات تأتى حين نثبت الصفات ثم ننزه الله بعد إثباتها له وإنها ليست مثل صفاتنا وهنا يمكن أعمال مثل قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ . ومثل ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾ ومثل ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ ومثل ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ .

فالخلاصة أن ظواهر النصوص مرادة وليس وجودها فى القرآن المقدس عبثا وحاشى لله أن يكون فى ظواهر كلامه ما يوهم التشبيه . حتى نؤوله أو نعطله أو ننفيه .

هذا حاصل المفهوم من مذهب السلف فى موضوع النصوص التى لو أعطيت حقها من الدلالة لعلم أنها لا تدل إلا على حق . وحاشاها أن تدل على باطل .

* * *

صرف النصوص عن ظاهرها عند علماء الأصول

وقد يصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه عند علماء الأصول فى ثلاث حالات :

١ - الأولى : أن يصرفه عن ظاهر دليل صحيح من الكتاب أو السنة كقول الرسول ﷺ « الجار أحق بصقبه » فظاهره ثبوت الشفعة للجار وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل اللفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر. إلا أن حديث جابر (فإذا ضربت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة) دل على أن المراد بالجار الذى هو أحق بصقبه خصوص الشريك المقاسم . فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة ، وهذا من باب التأويل الصحيح القريب وهو جائز طالما دل عليه النص .

٢ - الثانية : صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر لشئ يعتقده المجتهد دليلا وهو ليس بدليل كتفسير الإمام أبى حنيفة لفظ امرأة فى قوله صلى الله عليه وسلم (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل) على خصوص المكاتبة وهو تفسير بعيد لأنه حمل للفظ على غير ظاهره بلا دليل .

٣ - الحالة الثالثة : حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل كتفسير الروافض قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قالوا هى عائشة ، وكصرف آيات الصفات عن ظاهرها كتأويل ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ بأنه استولى. فهذا عبث فى كتاب الله تعالى لأنه صرف عن ظاهر نص أثبته الله [1] .

لأن الله يستحيل عقلا أن يثبت فى كتابه نصا يلزم منه محذور أو محال أو ما يؤدى إلى نقص .

بل إن الله لا يثبت من النصوص إلا ما يحتمل الشرف والعلو والكمال .

---

(١) منهج ودراسات لآيات الصفات للشنقيطى صـ ١٨ وما بعدها ملخصا . ط/الجامعة الإسلامية المنورة .

الفصل الثالث
أسس الإتجاه السلفى

مما سبق من عرض عقيدة السلف يمكن إستخلاص الأسس والقواعد التى بنيت عليها عقيدتهم حتى تكون هذه القواعد والأسس مميزة لأصحاب هذا الإتجاه عمن سواهم من المدعين والمنتسبين . وتتركز هذه الأسس فى :

١ - تقديم الشرع على العقل .

٢ - عدم تأويل النقل .

٣ - منهج الإستدلال هو منهج القرآن الكريم .

وتتضح فيما يلى :

الأساس الأول - تقديم الشرع على العقل :

يتمثل الشرع فى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ حيث إنها شارحة له والإقتداء بالصحابة رضى الله عنهم حيث إن الوحى نزل بين أظهرهم ، ورسول الله ﷺ بينهم ، فهم أعلم بالكتاب والسنة من غيرهم .

يقول أبو سعيد الدارمى (١) : فالمعقول ما وافق هديهم والمجهول ما خالفهم ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا بالآثار الواردة .

فالأساس الأول عند السلف هو الشرع وهو عندهم الأسلم والأعلم والأحكم لأنه لا يأتيه الباطل ولا يعتريه الضلال .

فالمنقول عندهم مقدم على المعقول لأن المعقول ليس لشئ واحد موصوف بحدود عند الجميع حتى يقتصر عليه بل المعقول عند كل حزب ما هم عليه والمجهول

الرد على الجهمية ضمن عقائد السلف صـ ٣٠٩

عندهم ما خالفهم فكأن كل حزب يدعى أن المعقول هو ما يدعو إليه والمجهول ما يخالفه . وكأنهم كما قال الله تعالى : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (١) .

لذلك فالمعتمد فى الدين كله على النقل أما الإعتماد على العقل فقط فهو كحاطب ليل (٢) أى أن العقل لا يستقيم منفردا إلى حقائق الدين بل لا بد من النقل .

ولا يفهم من ذلك أن السلف يهملون العقل . بل لا يجعلونه متبوعا ولكنه تابع . ومحكوم بالشرع لا حاكما ، وتاليا للشرع لا مقدما .

ومن هنا كان تمسك الإمام أحمد بالأثر (٣) لم يقدم عليه شيئا كائنا ما كان .

وثبت عنه « وجوب الإنتهاء إلى ما فى كتاب الله لا نتعداه » (٤) .

فالشرع عندهم هو السبيل . مستدلين بقوله تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٥) .

فصار الأساس عند السلف تقديم الرواية على الدراية حيث يبدءون بالشرع ثم يخضعون العقل له . ويقولون العقل الصريح يتفق مع النقل الصحيح .

ويتمسكون بأن الأوائل كانوا أكثر دراية وفهما للشرع من غيرهم فالمعقول ماوافق هديهم (٦) والمجهول ما خالفهم . ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا هذه الآثار (٧) .

---

(١) من سورة المؤمنون آية : ٥٣

(٢) ابن تيمية للشيخ أبو زهرة صـ ٢١٥

(٣) مناقب الإمام أحمد ، طبقات الحنابلة وغيرها وترجمة الإمام أحمد فى مقدمة المسند .

(٤) ترجمة الإمام أحمد فى مقدمة المسند تحقيق شاكر .

(٥) سورة النساء آية : ١١٥

(٦) أى هدى الصحابة .

(٧) نقض المنطق ابن تيمية صـ ٢

ومن هنا تظهر أصول العقيدة لديهم فى الإيمان بكل ما جاء به الكتاب والسنة من غير تحريف أو تأويل ومن غير تعطيل أوتمثيل .

وبهذا يتضح لنا طريقتهم فى إخضاع العقل وليس العكس .

مستدلين بقوله تعالى : ﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ [1] . والاثارة هى الرواية أو الإسناد .

* * *

(١) من سورة الأحقاف آية : ٤

مناقشة الموضوع

إن السلف حين يختلفون مع قواعد المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة ومن نحا نحوهم من الذين يقدمون العقل على النقل وممن يحتجون بأن العقل أصل والنقل فرع وتقديم النقل على العقل إبطال للأصل وفيه إبطال للفرع (١) .

فإذا تعارض العقل والنقل فلا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما لما يلزم عنه من إجتماع النقيضين . ولا بانتفاء ذلك لإستلزامه إرتفاعهما وبقى أن يقدم النقل على العقل أو العقل على النقل . والأول باطل لأنه إبطال للاصل بالفرع (٢) . وتوضيح ذلك عندهم أن النقل لا يمكن إثباته إلا بالعقل وذلك لأن إثبات الصانع ومعرفة النبوة وسائر ما يتوقف عليه صحة النقل لا يتم إلا بطريق العقل فهو أصل للنقل الذى تتوقف صحته عليه . فإذا قدم على العقل وحكم بثبوت مقتضاه وحده فقد أبطل الأصل بالفرع ويلزم منه إبطال الفرع أيضا لأنه حينئذ تكون صحة النقل متفرعة على حكم العقل الذى يجوز فساده وبطلانه فلا يقطع بصحة النقل . فلزم من تصحيح النقل بتقديمه على العقل عدم صحته .

فإذا لم يمكن تقديم النقل على العقل بالدليل السابق فقد تعين تقديم العقل على النقل وهو المطلوب عندهم .

ويجيب السلف عن ذلك بأنه إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل لأن العقل مصدق فى كل ما أخبر به . والنقل لم يصدق العقل فى كل ما أخبر به .

ولأن العلم بصدقه ليس موقوفا على كل ما يخبر به العقل (٣) .

---

(١) المواقف صـ ٥١ جـ ٢ .

(٢) الضياء الشارق صـ ١٤٤

(٣) الضياء الشارق صـ ١٤٤

ومن هنا فالواجب عندهم رد ما أثبته إلى نصوص الكتاب والسنة . ويمكن أن يقال إن كان النقل صحيحا فلا يعارضه معقول لأن النقل الصحيح لا يعارضه العقل الصريح وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة .

ويجيبون عن ذلك أيضا بأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل .

ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصح أن يكون معارضا النقل (١) .

وبيان ذلك أن ما ليس دليلاً لا يصلح لمعارضة شيئ من الأشياء فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه فلا يجوز تقديمه . لأن العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته . وإن خبره مطابق لمخبره فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم الا يكون العقل دليلا صحيحا . وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يلزم أن يتبع فضلا عن أن يقدم فصار تقديم العقل على النقل قدحا فى العقل فالواجب إذن كمال التسليم لله تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ (٢) وللرسول ﷺ (وما ينطق عن الهوى) (٣) فما يقرره الله ورسوله ليس للعقل سلطان عليه إنما العقل يصدق ويذعن ويقرب المنقول من المعقول ويزيل التنافر بينهما فالعقل يكون حينئذ شاهدا لا حاكما ، ومؤيداً لا رافضا ، وعلى ذلك يمكن أن يقال أن ما يظن أنه معقول قد عارض المنقول الصحيح فإنه لا يعدو أن يكون مجرد وهم طارئ على العقل أو ما يظن أنه منقول صحيح قد لا يكون صحيحا بأن يكون الناقل للنص أخطأ فى النقل كالأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ أو أخطأ فى الإستدلال كأن يكون النص بعيدا عن الإستدلال على المطلوب فالخلاصة :

أن السلف يقدمون الشرع على العقل لأن الشرع هو الذى لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه الشك ولا يعتريه التنافر والتناقض . ولأن الأمور الشرعية صفه لازمة لا تختلف من إنسان إلى آخر بخلاف الأمور العقلية فإن إختلاف الناس فيها كثير فما يراه البعض ضروريا قد يراه البعض الآخر محالا كما هو حال كثير من المتكلمين .

---

(١) الضياء الشارق صـ ٤٥ (٢) من سورة آل عمران ٥ (٣) من سورة النجم آية : ٣

فإن كان الإختلاف هو شأن العقول فالأولى تقديم الشرع الذى جاء به المعصوم صلى الله عليه وسلم فهو الذى لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه الشك . أما العقل فيختلف من إنسان لآخر قوة وضعفا ووهما ويقينا .

ونرى السلف يردون على مثل ما يقوله بعض المتكلمين كالرازى [١] ويطرحون سؤالا إنكاريا فحواه :

لو فرضنا صحة القول بتقديم العقل فإلى أى عقل نرجع ؟ أم يرجع كل عاقل إلى ما يراه عقله ؟ وعلى ذلك فأى فائدة لكتب الله أو رسله ؟!

وهل يجب تقديم ما يعتريه الإختلاف والغلط أم تقديم ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟!

وهل يجب تقديم ما يعتريه الشك والوهم ؟ أم تقديم خبر المعصوم صلى الله عليه وسلم ؟ (وما ينطق عن الهوى) .

والسلف أيضا يستندون فى تقديم الشرع على العقل بأن الله تعالى جعل للعقول فى إدراكها حدا تنتهى إليه لا تتعداه ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك فى كل مطلوب ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان عليه وما يكون ومالا يكون . ومعلومات الله لا تتناهى ومعلومات العبد متناهية والمتناهى لا يساوى ما لا يتناهى [٢] ولذا يجب تقديم ما لا يتناهى على ما يتناهى .

وأيضا يقولون لا يجعل العقل حاكما بإطلاق لأنه ثبت أن عليه حاكما بإطلاق وهو الشرع . فالواجب تقديم ما حقه التقديم وهو الشرع لأنه كامل وتأخير ما حقه التأخير وهو العقل [٣] لأنه ليس بكامل ومن هنا فلا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل .

---

(١) نهاية العقول للرازى صـ ٢١ .

(٢) الإعتصام للشاطبى صـ ٣١٨ جـ ٢

(٣) المصدر السابق صـ ٣٢٦ جـ ٢

ومعنى كون العقل ناقصا أنه لا يستقل بادرك الأحكام حتى يأتى المصدق أو المكذب له . يعنى لابد من الإفتقار إلى الشرع .

ولكن يمكن أن يقال :

إن العقل قد يستقل ببعض المعلومات الضرورية كعلم الإنسان بوجوده مثلا فيثبت له الإستقلال . ويجاب بأن ذلك لا يقدح فى دعوى الإفتقار لأن الأخبار قد تأتى بما يدركه الإنسان بعقله تنبيها لغافل أو ارشادا لقاصر أو إيقاظا لمغمور بالعوائد يغفل عن كونه ضروريا فهو إذن مفتقر إليه ولا بد للعقل من التنبيه من خارج . وهى فائدة بعث الرسل .

ويمكن توضيح ذلك بأن حسن الصدق والإيمان وقبح الكذب والكفران معلوم ضرورة . وقد جاء الشرع بمدح هذا وأمر به وذم ذلك ونهى عنه فلو كان العقل غير محتاج إلى التنبيه لزم المحال وهو الإخبار بما لا فائدة فيه لكنه أتى بذلك فدل على حاجة العقل وإفتقاره إلى الشرع .

وما يقال من أن الشرع يتوقف صدقة على تصديق العقل يجيب السلفيون عنه بأن (العقل سلطان ولىّ الرسول ثم عزل نفسه) [(١)] . فهم يرون أن الشرع لا يتوقف صدقه على تصديق العقل له . ولا المعجزة هى الطريقة الوحيدة لأثبات النبوة فما جاء به الرسول من الشرع يصدق بحسب ما يدعو إليه فلو دعا إلى خير كان صادقا ولو دعا إلى شر لا يكون صادقا .

ولقد استدل النجاشى وهرقل على صدق الرسول ﷺ .. لما علموا المبادئ الصادقة التى يدعو إليها . وهكذا ورقة بن نوفل وخديجة وأوائل المسلمين . وهذا معنى ما يقوله ابن تيمية [(٢)] إن معرفة ما جاء به الأنبياء يعرف من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء .

---

(١) الصواعق المرسلة صـ ١٨٣ .

(٢) العقيدة الأصفهانية صـ ٨٨ والبنوات صـ ٢٦

ثم نراه يفند مزاعم القائلين باعتبار العقل أصلا للنقل [١] .

على أساس ما ينبنى عليه النقل من أن العقل ليس هو كل العقليات فمنها حق ومنها باطل بل غاية ما يتوقف عليه الشرع من العقل هو تصديقه للرسول ﷺ ثم على العقل أن يعزل نفسه بعد ذلك . فتصديق العقل للنقل له دلالة عامة مطلقة . أما تصديق النقل للعقل فليس كذلك . ولا يقال ان العقل قد زكى الشرع وعدله فإذا قدم الشرع عليه لكان قدحا فيمن زكاه وعدله فيكون قدحا فيه .

لأن الرجوع فى موارد النزاع إلى قول الأعلم ليس قدحا فيما علم به أنه أعلم .

وعند التعارض لو ابطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل .

بعنى باعتبار أنه هو الذى دل على صحة النقل . وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصلح معارضا للنقل فلا يجوز تقديمه .

ثم يقول إن هذا لا يعنى تقديم النقل عند تعارض ظاهره مع العقل بل القطعى أيا كان يقدم لكونه قطعيا لا غير . ولا يجوز القول بتعارض النقل والعقل القطعيين لأنه قول بالجمع بين النقيضين .

ويتفق ابن قيم الجوزية مع ابن تيمية حين يقرر أن استفسارات الصحابة للرسول ﷺ لم يكن منشؤها التعارض بين النص والعقل بل التعارض بين النصوص فى ظاهرها [٢] وأما الإستشكال بالتعارض بين النص والعقل فقد حكى عن الكفار فحسب .

فإن قيل إن العقل قد توضع فيه الثقةالكاملة لقدرته على الوصول إلى اليقين وإعتباره حكما بصيرا مما يؤهله إلى أن يكون الأساس المنهجى للعقيدة .

فيقال ان هذه القضية غير مسلمة . لأن العقول قد تقع فى التضارب [٣] وكان

---

(١) درء تعارض العقل والنقل صـ ١٣٨ جـ ١

(٢) الصواعق المرسلة صـ ٢١٩ جـ ١

(٣) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام د . يحى هاشم .

من الممكن أن يدفع هذا التضارب لو أن العقل كان عقلا واحدا . ولكن العقل لم يكن واحدا وهذا معلوم بالضرورة .

ولأن للعقل حدا لا يتجاوزه ، وسبيلا لا يتعداه .

يقول الإمام الشاطبى [١] إن الله جعل للعقول فى إدراكها حدا تنتهى إليه لا تتعداه ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك فى كل مطلوب ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون . ثم ينتهى إلى أن إدراك العقول قاصر وناقص . ومن هنا فطاقة العقل محدودة ولذلك لابد فى المعرفة من قيد (بقدر الطاقة البشرية) كما يقول شارح المقاصد [٢] .

وأما ما يقال من ظنية الدليل النقلى لأنه لا يكون يقينيا إلا عند عدم المعارض العقلى والحكم بعدم المعارض العقلى مستحيل . فيقال إن إشتراط عدم المعارض وارد أيضا على أصحاب الدليل العقلى مما يلزم بظنيته [٣] .

وما يقال من أن العقل حاكم على الشرع مدفوع بأن العقل محكوم بالشرع لأنه محتاج ومدفوع بأن الشرع كامل والعقل ناقص فلا يحكم بالناقص على الكامل وكذلك العقل محتاج إلى الشرع لأنه مخلوق للشارع ومملوك له . فهو إذن محكوم بالشرع لا حاكما عليه .

ويقول ابن حزم (أف لكل عقل يقوم فيه حاكم على خالقه ومحدثه بعد أن لم يكن ومرتبه على ما هو ومصرفه على ما يشاء) [٤] .

وكذلك يمكن أن يقال ان الشرع هو الأعلى لأنه صادر من قبل الخالق فلا يصح أن يكون الأعلى وهو الشرع محكوما بالأدنى وهو العقل .

---

(١) الإعتصام صـ ٢١٦ جـ ٣

(٢) شرح المقاصد صـ ٤٥ جـ ١

(٣) الأسس المنهجية لبناء العقيدة د . يحيى هاشم صـ ٢٧٨ .

(٤) الفصل صـ ٧ جـ ١

وكذلك يقال إن العقول قد تخاصمت وهذا واقع لا يمكن إنكاره . فلا يمكن أن تكون العقول المتخاصمة المتخالفة حكما وهذه طبيعتها .

وما دام الأمر كذلك فلا يعقل أن يحتكم الشرع إلى عقول متناحرة متنافرة مختلفة .

ومن هنا كان الدين فوق العقل :

وما ذاك إلا لكونه حقا لا يرهب نزعات المبطلين وقوة لا تخشى هجمات الضالين كيف لا وهو دين القيمة الذى أطلق العقول من قيودها وسن للناس سبل النظر والتفكير وعلمهم معنى الإجتهاد فى المعقول والمنقول فمحال أن يعتريه وجل من مقارعه البراهين ومحال أن يطرقه وهن فى أى ناحية من نواحيه ومحال أن يدركه الخطأ فى أى قضية من قضاياه بل قضاياه حارسة للعقل من الضلال وحافظة له من الخطأ والزلل ومرجعه عند الحيرة والإضطراب فمن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا نفصام لها ومن حاد عنه فقد خسر خسرانا مبينا[1] .

فالحاصل كما يقول الشاطبى أنه لا ينبغى للعقل أن يتقدم على الشرع فإنه من التقدم بين يدى الله ورسوله بل يكون ملبيا من وراء وراء[2] .

ويوضح الشاطبى ذلك مؤيدا لتقديم الشرع على العقل ومدللا على قصور العقل فى العلم بأن ما ادعى العقل علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التى زعم أنه أدركها لا مكان أن يدركها من وجه دون وجه وعلى حال دون حال والبرهان على ذلك أحوال أهل الفترة فإنهم استحسنوا أمورا تجد العقول بعد تنويرها بالشرع تنكرها وتعتبرها ضلالا مع الإعتراف بأنهم أدركوا بعقولهم أشياء قد وافقت وجاء الشرع بإقرارها وتصحيحها ومع أنهم كانوا أصحاب عقول باهرة لكنها بالنسبة إلى ما لم يصيبوا فيه قليلة وناقصة .

---

(١) توضيح العقائد فى علم التوحيد للجزيرى صـ ١٣

(٢) الإعتصام صـ ٢٣٥ جـ ٣

فلأجل هذا و قع الاعذار والانذار وبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (١) .

ومن هنا يقول السلف لا سبيل إلى دعوى استقلال العقل لإختلافه وقصوره ومجاله المحدود .

أما الشرع فلا اختلاف فيه ولا نقص ولا قصور وما لا مجال للعقل فيه فإن الشرع مجاله وميدانه الفسيح .

يقول ابن تيمية إن على العقول النظر فى حدود النص حتى لا تتعثرأو تنحرف ومقياس صحة العقل وفساده ، هو الموافقة للنص أو المخالفة له .

وإن خلاصة ما عند أرباب النظر العقلى فى الالهيات من الأدلة اليقينية قد جاء به الرسول ﷺ من ذلك فوق ما فى عقول جميع العقلاء من الأولين والأخرين (٢) . وهو بذلك يدعو إلى عرض الأراء والمذاهب على ما جاء به الرسول ﷺ لأخذ ما وافقه وترك ما خالفه . وكأنه يحذر من الشطط والانحراف .

والسير وراء العقول التى لا ضابط لها ولا كفاية معها ولا مأمن لها من الضلال . على الرغم من أن العقل الإنسانى نما فى مراحل التاريخ ونضج تفكيره إلا أن خصوبة الخيال وسيطرة الأوهام بقيت هى المتغلبة عليه فغلفته بضبابها وتركته سائرا حائرا لا يهتدى سبيلا ولا يعرف مخرجا . والعقول قد تضل إن لم تتداركها عناية الله حتى ولو كانت هذه العقول لمشاهير المفكرين والحكماء والدليل على ذلك أخطاء الفلاسفة والمتكلمين الذين حرموا نور الوحى وهداية الله واعتمدوا فى الوصول إلى الحق على عقولهم فحسب فعميت عليهم الطريق وتفرقت بهم السبل . ولكن ليس معنى ذلك رفض العقل وإهماله . كيف وهو وسيلة النظر والتفكير والتدبر التى أمرنا الله بها .

---

(١) الإعتصام للشاطبى صـ ٣٢١

(٢) منهاج السنة صـ ١٧٤ جـ ١

وقد جاءت الآيات الكثيرة تدل على ذلك قال تعالى : ﴿ قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٣) .

وقد وردت الأحاديث المتعددة كذلك مكرمة للعقل ومشرفة لصاحبه .

قال رسول الله ﷺ : (كرم الرجل دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه) (٤) .

قال صلى الله عليه وسلم : (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والإناه) (٥) .

قال النووى الحلم : العقل . وقال صلى الله عليم وسلم : (ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى) (٦) .

قال النووى أولوا الأحلام هم العقلاء والنهى : العقول .

والسلف يعترفون بقيمة العقل ولا يرفضونه ويدرءون تعارض العقل الصريح مع النص الصحيح ولكنهم حين يعترفون به لا يؤلهونه ولا يقدمونه بل يجعلون له حدودا لا يتعداها وميدانا لا يتجاوزه .

وحينئذ فلا ينبغى للعقل أن يتقدم بين يدى الشرع فإنه من التقدم بين يدى الله ورسوله بل عليه أن يستنير بالشرع ويسترشد به ويستهدى به السبيل . ونخلص من هذا إلى أن الشرع هو الأساس الأول والقاعدة الصلبة التى بنى عليها السلف منهجهم واتجاههم .

---

(١) من سورة يونس آية : ١٠١

(٢) من سورة الحج آية رقم : ٤٦

(٣) من سورة النساء آية رقم : ٨٢

(٤) أخرجه أحمد ٣٦٥/٢ عن أبى هريرة .

(٥) رواه مسلم (١٨٩/١ شرح النووى) .

(٦) روا مسلم (١٥٤/٤ شرح النووى) .

الأساس الثانى رفض التأويل (١) :

اعتمد السلف على الكتاب والسنة وطوعواالمفاهيم العقلية تبعا لذلك فكانت القاعدة عندهم ألا يقبلوا ما يعارض القرآن والسنة برأى ولا ذوق ولا معقول ولا قياس فالأساس عندهم أن القرآن يهدى للتى هى أقوم وأن الرسول جاء بالهدى ودين الحق (٢) .

فهو يقين لا يعارض بما دونه .

وما يقال من أن النصوص ظواهر ظنية لا تعارض اليقينيات فتؤول اما إجمالا وإما تفصيلا فيجيبون عنه بأن التمسك بالكتاب والسنة هو الأصل فيجب إثبات ما أثبته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله ولايؤولون الآيات ولا الأحاديث ويعتبرونها يقينية لا ظنية إذ كيف تكون أدلة الكتاب والسنة ظنية مع أن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وكلام رسول الله ﷺ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وقد جاء فى الحديث. عن رسول الله ﷺ فيما يرويه على رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ . قال « كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكرالحكيم ، وهوالصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه : الحديث (٣) .

---

(١) المراد بالتأويل المرفوض هو تأويل المتأخرين الذى هو صرف اللفظ من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى الذى يحتمله النص لدليل يقترن به (فصل المقال لابن رشد صـ ٨) أما التأويل بمعنى الحقيقة أو المرجع والعاقبة أو التدبر والتفسير والبيان فليس بممنوع .

(٢) وسالة الفرقان لابن تيمية صـ ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل القرآن ١٧٢/٥ عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فالسلف يقرون ويذعنون لكلام الله ورسوله دون معارضة أو مصادمة . ومن هنا أنكر ابن حنبل بشدة قول الجهمية بالتعطيل والتأويل فى القرآن والحديث وأوجب أن يؤمن المرء بالله بلا كيف ويطرح دقائق علم الكلام فى تناوله للعقائد لأنها تنطوى على الغرور والخطر ولذلك كان تمسكه بالأثر ورفضه للتأويل وقد أثر عنه فى ذلك أنه لا ينبغى العبث بكتاب الله وتغيير معالمه بالتأويل لأنه مهما تجتهد العقول فلن تصل إلى ما ليس من شأنها . وأثر عنه أيضا أن السلامة فى الإتباع والهلكة فى الإبتداع ، والأمر فى التسليم والإنتهاء إلى ما فى كتاب الله لا تعد (١) ذلك . أى أنه رضى الله عنه يأمر باتباع الأثر دون تأويل وكثيرا ماكان يقرأ على أسماع المؤولين رادعا لهم قوله تعالى : ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ (٢) .

ومن هنا يرى الإمام أحمد أن الأساس هو أن ندع كلام الله تعالى فى ذاته وصفاته والثابت من حديث رسول الله ﷺ فى ذلك أن ندعهما يمران إلى قلوبنا من غير تأويل ولا تعقيد لأنا لا ندرى - إن أولنا - أكان تأويلنا موافقا لمراد الله تعالى فيما أنزل أم لا ؟ فالمؤول لا يستطيع أن يدعى الجزم بما أول ، واليقين هو الظاهر ، وهو الحقيقة دون المجاز (٣) .

ويؤيد السلف تمسكهم بهذا الأساس الذى بنوا عليه قاعدتهم بما يروى عن الدارمى أنه لا يتأول برأيه كتاب الله إلا من أتخذ الهه هواه فنراه أيضا رافضا للتأويل يقول : لسنا أعلم بمراد الله من الله ولا أعلم بكتاب الله من رسول الله ﷺ ولا أعلم من الصحابة رضى الله عنهم فيما يتعلق بالوحى ولم يثبت أنهم أولوا مع أن الوحى نزل بين أظهرهم إذ لو أولوا لنقل إلينا ، فلما لم ينقل دل على أنهم آمنوا به كما جاء دون تأويل فهم أولى بالإتباع (٤) . ويستند السلف أيضا فى

---

(١) المناقب لابن الجوزى صـ ١٥٦ .

(٢) سورة الرعد آية ١٣

(٣) ترجمة الإمام أحمد فى مقدمة المسند تحقيق أحمد شاكر والمناقب صـ ١٥٦

(٤) عقائد السلف صـ ٣٠٨

رفضهم للتأويل والرأي بما ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أصحاب الرأي [1] أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها وإستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فاياكم واياهم [2] . وفى هذا المعنى يقول مسروق رضى الله عنه من قال برأيه فى قول الله ضل . وعن هشام ابن عروة عن أبيه . وهو يحذر من الرأى : السنن السنن إن السنن قوام الدين [3]

وعن أبى بكر بن أبى داود [4] قال : أهل الرأى هم أهل البدع ، ثم قال فى قصيدة فى هذا المعنى :

دع عنك تأويل الرجال ورأيهم   فقول رسول الله أزكى وأشرح

وأيضا عن الحسن [5] إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل وحادوا عن الطريق فأولوا الآثار وقالوا فى الدين برأيهم فضلوا وأضلوا .

ورحم الله الربيع بن خيثم حيث يقول [6] : يا عبد الله ما علمك الله فى كتابه من علم فأحمد الله وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه ولا تتكلف فإن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [7] .

وعن الأوزاعى قال كان مكحول والزهرى يقولون أمروا هذه النصوص كما جاءت ولا تتناظروا فيها [8] ومثله عن مالك والأوزاعى وسفيان بن عينية كانوا

---

(١) المراد بالرأى المذموم هنا البدع المحدثة فى الإعتقاد من تأويل النصوص أوردها .

(٢) الإعتصام للشاطبى صـ ٣٣٤ جـ ٢   (٣) نفس المرجع .

(٤) هو أبو بكر عبد الله بن سليمان بن داود . محدث بغداد توفى سنة ٣١٦ هـ .

(٥) لعله الحسن البصرى حيث تتبعت البحث عنه فلم إهتد إلى التعرف عليه وذكر هذا الأثر هكذا فى الإعتصام للشاطبى صـ ٣٣٤ جـ ٢

(٦) الإعتصام للشاطبى صـ ٢٤٢ جـ ٣

(٧) من سورة ص آية : ٨٦

(٨) الإعتصام للشاطبى ص ٣٣٦ جـ ٢

يقولون فى النصوص أمروها كما جاءت [١] وينبه ابن قتيبة [٢] ويشير إلى مصدر المشكلات التى ترد على فهم النص وهو أن المتكلمين يعتنقون الأراء التى يذهبون إليها بعقولهم ثم ينظرون فى كتاب الله فإذا وجدوه ينقض ما قالوا ويبطل ما أسسوا . طلبوا له التأويلات .

وذكر الشاطبى [٣] أن الحسن البصرى كان فى مجلس فذكر فيه أصحاب محمد ﷺ فقال إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا . قوم إختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأقومها هديا وأقلها تكلفا فاتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم [٤] .

والسلف حين يستشهدون بهذه الآثار يبينون إن الأساس المتين هو التمسك بما تمسك به الرعيل الأول من إقرارا النصوص وإجرائها كما جاءت فيوجبون الإفتداء بهم والإتباع لطريقهم لأنه النجاة حسبما نبه عليه حديث الفرق فى قوله صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة . قال الصحابة : من هى يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » [٥] .

ويخلصون من كل ذلك إلى أن الصحابة ومن تبعهم لم يعارضوا النصوص بآرائهم ولم يؤولوها حسب عقولهم فطريقهم أصوب وإتباعهم أحق .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الإختلاف فى اللفظ لابن قتيبة صـ ١٢

(٣) الإعتصام صـ ٣٣٧ جـ ٢

(٤) سبق تخريجه فى التمهيد من هذا البحث .

(٥) غرائب الإغتراب للالوسى صـ ٣٨٦

وحينئذ فلا يجوز تأويل ما جاء من النصوص لكونها لا تطابق الدليل العقلى لأنه لو خرج الخطاب عما وضع له لما كان له فائدة .

ومعنى ذلك : أنهم لا يجوزون تأويل ما جاء من أخبار السمع لكونها لا تطابق الدليل العقلى كأخبارالنزول مثلا بالنسبة لله تعالى لأن خروجها - أى الأخبار - حينئذ عما وضعت له لا يجعل لها فائدة .

وقد علمنا أنه صلى الله عليه وسلم أرسل ليبين للناس ما أنزل إليهم وهو صلوات الله وسلامه عليه مع فصاحته وسعة علمه وبيانه لم يقل إنه تعالى تنزل رحمته ومن قال ينزل رحمته فقد حمل الخطاب على الأدلة العقلية والله تعالى حقيقته مجهولة لدينا فلا يصح الحكم عليه بوصف مقيد معين . والعرب تفهم نسبة النزول مطلقا فلا تقيده بحكم دون حكم خصوصا وقد تقرر أنه (ليس كمثله شئ) فيحصل حينئذ المعنى مطلقا منزها . فإن قيل هذا يحيله العقل . فيجاب بأن هذا الشأن إذا صح ان يكون الحق تعالى من مدركات العقول حتى تمضى عليه أحكامها . أما إنه لا تدركه العقول ولا تحيط به علما فلتقف العقول عند مجالها المحدد لها وفى حدود النص لا تؤوله ولا تتعداه ولزيادة التوضيح يمكن أن يقال إن التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره يلزم منه القول بأن للنص معانى تخالف مدلولها المفهوم منها وحينئذ يقتضى صرفها عما دلت عليه وحينئذ يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد بين المراد بذلك اللفظ بخطاب آخر ولا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذى مفهومه ومدلوله باطل ثم يسكت عن بيان المراد الذى هو الحق . كما لا يجوز أن يريد من الخلق أن يعقلوا من كلامه ما لم يبينه لهم . لأن ذلك يؤدى إلى القدح فى الرسول ﷺ كما بينه ابن تيمية بقوله [1] : «فمن زعم أنه تكلم بما لا يدل إلا على الباطل لا على الحق ولم يبين مراده وأنه أراد بذلك اللفظ المعنى الذى ليس بباطل وأحال الناس فى معرفة المراد على مايعلم من غير جهته بآرائهم فقد قدح فى الرسول ﷺ . وينتهى القول بالقدح فى علم المتكلم بها أو فى بيانه أو فى نصحه [2] .

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول صـ ١٢. وما بعدها جـ ١

(٢) مختصر الصواعق المرسلة للموصلى صـ ٥٦ جـ ١

ومن هنا منع السلف التأويل بهذا المعنى . وردوا على المؤولين شبهتهم في أن هناك تعارضا بين ما تقتضى به دلالة النصوص وبين ما تقتضى به دلالة العقل من تنزيه الله تعالى وعدم تشبيهه بخلقه مما دعاهم إلى صرف النصوص عن ظاهرها بحجة أنها تقتضيه التشبيه والتجسيم وبينوا أنه لا تعارض بين ما تقتضيه دلالة النصوص وبين ما تقتضى به دلاله العقل . لأن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح : فليس هناك نص صحيح يخالفه عقل صريح . وإنما المخالفة لا تكون إلا حيث يكون الخطأ فى النقل أو الإنحراف فى العقل . وإذا صح النص وثبت . فلا يحق للعقل مخالة النص وتأويله بحجة التنزيه وعدم التشبيه إذ ليس العقل أعلم بتنزيه الله من الله . أو من رسول الله ﷺ . ولذا يجب ألا يكون العقل متحكما في الكتاب والسنة بل محكوما . وتابعا لا متبوعا ؛ وبالتالى لا يتأول القرآن إن خالفه أو السنة إذا خالفته . بل عليه أن يتجه إلى القرآن والسنة ويتفهم كلا منهما بالآخر فليس مثل السنة بيانا وتفسيرا للقرآن وليس مثل الصحابة علما وتوضيحا لسنة النبى عليه الصلاة والسلام .

● مناقشة الموضوع :

يقول ابن قتيبة إن المتكلمين اعتنقوا الرأى فلما اطرد القول لهم على ما أصلوا بعقولهم ورأوه حسن الظاهر نظروا فى كتاب الله فوجدوه ينقض ما قاسوا ويبطل ما أسسوا فطلبوا له التأويلات المستكرهة والمخارج البعيدة وجعلوه عويصا وألغازا وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح فى النظر ولا فى اللغة (١) .

اما السلف فقد أدركوا خطورة الوقوع في القول بالرأى فى الدين والتأويل فى النصوص ومن هنا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (إتهموا الرأى فى الدين فإن الرأى عن رسول الله ﷺ إنما كان صوابا لإن الله تعالى كان يريه . وهو منا تكلف وظن . وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) (١) .

---

(١) الإختلاف فى اللفظ لابن قتيبة صـ ١٢

(٢) مناقب الإمام الشافعى للرازى صـ ٢٥٣ .

ومن هنا كان الأصل فى الدين الإتباع ولو كان الدين يبنى على المعقول لما جاز للعقول ان تقبل شيئا إلا ما يوافقها مع ان هناك أمورا لا تدرك حقائقها بالعقول كعذاب القبر والميزان والصراط وغيرها مما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها . فما أدركته العقول وعلمته من أمور الدين حمدت عليه الله وما لم تبلغه العقول آمنت به وصدقته (١) .

ولذا يقول ابن خلدون : (فإذا هدانا الله إلى مدرك فينبغى أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر فى تصحيحه بمدارك العقل ولوعارضه . بل نعتمد ما أمرنا به أعتقادا وعلما . ونسكت عما لم نفهمه من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه (٢) .

ولعل ابن خلدون لا يقصد بعزل العقل إلغاءه بل يقصد ألا يكتفى به إذ لو اكتفى به لما كان للوحى فائدة إذ كيف يكتفى به وهو عاجز عن إدراك أمور لا قبل لها بإدراكها . فينبغى أن يستسلم العقل للشرع كما قال الإمام الطحاوى :

« لا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر الإستسلام » (٣) أى التسليم الكامل لكل ما جاء به الشرع دون تحريف أو تأويل .

وقد ذكر ابن القيم عن أبى العباس بن سريج فى الآى المتشابهة فى القرآن : (نقبلها ولا نردها ولا نتأولها بتأويل المخالفين ولا نحملها على تشبيه المشبهين ولا نزيد عليها ولا ننقص) (٤) .

وقد أدرك هذه الحقيقة بعض علماء الكلام الذين كانوا يقولون بتأويل النص حتى لا يتصادم مع العقل . كالإمام الجوينى الذى أشاع منهج التأويل واعتمد عليه ردحا طويلا من أيام حياته فإذا به يتبع منهج السلف بترك التأويل .

---

(١) صون المنطق للسيوطى صـ ١٨٢

(٢) مقدمة ابن خلدون صـ ٤٩٥

(٣) بيان أهل السنة للطحاوى صـ ٧

(٤) إجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم صـ ٦٤

ويقول : (الأولى إتباع ما ذهب إليه أئمة السلف من الإنكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها [1] إلى الرب سبحانه) ويقول انه انصرم عصر الرسول ﷺ والصحابة فعلى صاحب الدين أن يعتقد تنزيه الرب عن صفات المحدثين ولا يخوض فى تأويل المشكلات وكان يذكر قول الإمام مالك « الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » [2] .

فالأولى أن يخضع العقل للنص ويكون تابعا له . فإن قيل ما الحكم إذا تناقض العقل والنقل . أجابوا بأن الحق لا يتناقض لأن الرسل إنما أخبرت بحق .

والله فطر عباده على معرفة الحق والرسل إنما بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة [3] ومعنى هذا أن العقل الصريح كما علم لا يتناقض ولا يتعارض مع النص الصحيح ولا يحصل التصادم إلا لوهم فى العقل أو خطأ فى النقل فإذا ثبتت صحة النقل وجب إعماله دون تعطيل أو تأويل وإن ثبت صراحة العقل وجبت موافقته للنص لأن النص أصبح ثابتا متيقنا أما التأويل فهو مجرد احتمال أو تحويل - يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب ولهذا يرفض ابن حنبل التأويل محتجا بأنا لا ندرى إن أولنا أكان تأويلنا موافقا لمراد الله تعالى فيما نزل أم لا [4] فالمؤول لا يستطيع أن يدعى الجزم بما أول ولا يستطيع أن يتيقن أنه المراد فالظاهر هو الحقيقة يقينا أما التأويل فمجاز ومجرد إحتمال فالحقيقة أقوى من المجاز واليقين أولى من مجرد الإحتمال .

ومن هنا يرفض السلف التأويل لأن الشرع عندهم هو الأساس الذى يجب تقديمه ولا يعدلون عن النص ولا يتعدونه . فالعقل عندهم ليس هو الأساس فى المنهج حتى يحكموه فى النص ويؤولونه من أجله .

---

(١) إن كان يقصد بتفويض معنى الكيف فهو يتفق مع السلف . أما مطلق التفويض فلا .

(٢) العقيدة النظامية صـ ٢٣

(٣) منهاج السنة صـ ٨٢ جـ ١

(٤) مناقب الإمام أحمد صـ ١٥٦

فإن قيل إن العقل هو الحاكم لأنه هو الذى نحكم به على الشرع أجابوا بأن العقول متفاوتة ومتضاربة فلا يحكم بها على الثابت الكامل وهو الشرع .

وإن قيل بأن العقل هو الإساس لأن دلالته يقينية بخلاف النقل فإن دلالته ظنية كما هو مذهب الرازى (١) .

ويتلخص فى جعل العقل أصلا لقبول النقل أو تأويله وبنى على ذلك رأيه فى التأويل ورأيه فى الأدلة النقلية أنها ظنية لا تفيد اليقين أما العقلية فهى قطعية والظن لا يعارض اليقين . وقد بنى قانونه فى التأويل على قاعدتين :

الأولى : إمكان تعارض العقل والنقل .

الثانية : إذا وقع التعارض فيجب تأويل النقل وتقديم العقل (٢) .

وقد يجاب عن هاتين القاعدتين بأن الدليل يجب أن يرجح لكونه قطعيا لا لكونه عقليا وأيضا إن القاعدة الأولى مبناها على إمكان تعارض العقل والنقل وهذا لم يثبت لأن العقل الصريح لا يتعارض مع النص الصحيح ولا يتعارضا إلا إذا كان العقل غير صريح أو النقل غير صحيح . أما صراحة العقل وصحة النقل فلا يمكن التعارض بينهما (٣) .

وأما القاعدة الثانية فمبناها على تقديم العقل على النقل وهى أيضا منهارة لإن إيجاب الشرع لأمر من الأمور يجعله معلوما عند كل من آمن به وشرعية هذه الأمور صفة لا زمة لها لا تختلف من إنسان لآخر ولا علاقة لها بإختلاف الناس . والعلم بشرعيتها ممكن لوجود النص فيها . وهذا بخلاف الأمور العقلية فإن إختلاف الناس فيها كثير . وكون الشئ معلوما بالعقل ليس صفة لا زمة له . بل تختلف من إنسان لآخر وما يراه بعض الناس ضروريا قد يراه الآخر نظريا (٤) .

---

(١) معالم أصول الدين بهامش محصل أفكار المتقدمين صـ ١٣ وما بعدها ملخصا .

(٢) نهاية العقول صـ ٢١ وما بعدها

(٣) درء تعارض العقل والنقل صـ جـ ١

(٤) المرجع السابق

وعلى ذلك فقول المعصوم الذى لا يخطئ هو المقدم . وجدير بالذكر أن الرازى قد تراجع عن كثير من مذهبه كما تراجع غيره عن تقديمه أو تقديسه على الشرع ولذا نراه يقول: أختبرت الطرق الكلامية فما رأيت فيها فائدة ثم يقول وما ذلك إلا لأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والطرق الخفية (١) .

وهنا يمكن الإسترشاد بأن عامة ما يتنازع فيه الناس من الأمور الخفية التى تحار فيها العقول ومعظمها من أمور الغيب التى تقتصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق معرفتها بمجرد الرأى . ولهذا كان اللجوء إلى السمع فى مثل هذه القضايا أسلم وأعلم (٢) .

● مناقشة التأويل :

وقد يقال أنه لا مناص من التأويل وصرف اللفظ عن ظاهره لما يؤديه الظاهر من المحالات .

وقد يحتج بأن الإمام أحمد بن حنبل أول فى كثير من النصوص وأيضا بأن الإمام الأشعرى أول فى إحدى الروايتين المنقولتين عنه (٣) .

وقد يجاب عن الإمام أحمد بأن ما أثر عنه كانت ردودا على الجهمية والزنادقة كان يرد عليهم حججهم ولم يكن ذلك مذهبا له فى التأويل وسيأتى الجواب عن ذلك مفصلا حين المقارنة والتحقيق فى الباب الأخير إن شاء الله تعالى .

وأما تحقيق موضوع التأويل بالنسبية للأشعرى فقد ثبت عنه خلاف ذلك كما يحكيه الإمام ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة النبوية من نصوص توضح أن الإمام الأشعرى أثبت الصفات دون تأويل مع من أثبتها من الفقهاء والمحدثين

---

(١) عيون الأنباء صـ ٤٦٧

(٢) ابن تيمية وموقفه من التأويل للجليند صـ ٨٦

(٣) ذكر ذلك الدكتور عبد العزيز سيف النصر فى رسالته الجامعية « العقيدة الإسلامية بين التفويض والتأويل » . واعتمد على ما حكاه الشهرستانى وصاحب المواقف .

والمثبتين من المتكلمين وفى هذا يقول : المثبتون للصفات منهم من يثبت الصفات المعلومة بالسمع كما يثبت الصفات المعلومة بالعقل وهذا قول أهل السنة ومن وافقهم وهو قول أئمة الفقهاء وقول أئمة الكلام من أهل الأثبات كأبى محمد بن كلاب وأبى العباس القلانسي وأبى الحسن الأشعرى وأبى عبد الله بن مجاهد وأبى الحسن الطبرى والقاضى أبى بكر الباقلانى (١) .

ثم يقول بعد ذلك : « ولم يختلف فى ذلك قول الأشعرى والأئمة القدماء من أصحابه (٢) .

ثم يصرح بعد ذلك بما يدفع ما قيل عن الأشعرى ومن تابعه من تأويل فيقول: فهؤلاء (أى من سبق ذكرهم بما فيهم الأشعرى) يقولون تأويلها أى الصفات - بما يقتضى نفيها - تأويل باطل .

فلا يكتفون بالتفويض ، بل يبطلون تأويلات النفاة وقد ذكر الأشعرى ذلك فى عامة كتبه كالموجز والمقالات الكبير . والمقالات الصغير والابانة وغير ذلك .

ثم يوضح الإمام ابن تيمية وهو ينفى إختلاف الأشعرى فيقول : « ولم يختلف فى ذلك كلامه (أى كلام الأشعرى) - لكن طائفة توافقه . ومن تخالفه يحكون له قولا آخر أو تقول أظهر غير ما أبطن . ولكن كتبه تدل على بطلان هذين الظنين (٣) .

ويؤكد هذا الدفاع -عن الإمام الأشعرى وبطلان من يدعى عليه التأويل - الإمام ابن قيم الجوزية ويقول ان من يدعى عليه التأويل فقد أخطأ لأن الثابت فى كتبه أنه يصرح بإثبات الصفات الخبرية وذلك فى كتبه كلها .

وقد ذكر مثل ذلك كثير من المحققين كالبيهقى فى الأسماء والصفات والقشيرى فى الشكاية وابن عساكر فى تبيين كذب المفترى .

---

(١) منهاج السنة صـ ٢٧٢ - ٢٧٣ جـ ١

(٢) المرجع السابق .

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية صـ ٢٧٣ جـ ١

ويختم ابن القيم دفاعه عن الأشعرى بقوله : وهذه كتبه كلها ليس فيها إلا الإثبات (بلا تأويل) فهو الذى يحكيه عن أهل السنة وينصره (١) .

ثم يفرق بين ما كان عليه الأشعرى مع المعتزلة وما أصبح عليه بعد إنتمائه لأهل السنة فيقول :

« نعم كان قبل ذلك يقول بقول المعتزلة ثم رجع عنه وصرح بخلافه وإستمر على ذلك حتى مات رحمه الله (٢) .

وبهذا يندفع ما حكى عن الإمام الأشعرى من نسبة التأويل إليه (٣) .

وإما الإحتجاج على السلف بأنهم أولوا فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم ﴾ (٤) . فقالوا أى السلف المراد بالمعية هنا العلم : وهذا أى التأويل صحيح عندهم وليس من التأويل الممنوع لأن التفاسير المعول عليها كلها على ذلك ولأن بداية الآية ونهايتها تدل على ذلك (٥) .

حيث أخبر الله بالعلم ثم أخبر أنه مع كل مناج ثم ختم الآية بالعلم بقوله : ﴿ إن الله بكل شئ عليم ﴾ فالسياق يدل دلالة واضحة على ذلك حيث بدأ بالعلم وختم بالعلم فبين أنه أراد أنه يعلمهم حيث كانوا لا يخفون عليه ولا يخفى مناجاتهم .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة صـ ٢٤٦ جـ ٢

(٢) المرجع السابق

(٣) وهنا أرجو شاكرا من أخى الدكتور عبد العزيز سيف النصر مراجعة ما كتبه فى رسالته الجامعية « العقيدة الإسلامية بين التأويل والتفويض » وما نسبه إلى الإمام الأشعرى من التأويل لأن مجرد الحكاية لا يعتمد عليها فى إثبات المذهب . إذا كانت هناك وثائق ومؤلفات لصاحب المذهب نفسه . وللحق فلم أعثر فيما أطلعت عيه أنه كان مؤولا .

(٤) المجادلة آية : ٧

(٥) مجموع الفتاوى صـ ٧. جـ ٥

• فالخلاصة :

إن التأويل لا يتجاوز مستوى الظن ولا يرتقى إلى درجة اليقين .

وقد جاء الدين بآياته مبرهنة مدللة وليس على العقل إلا أن ينظر فى تلك الأدلة والبراهين (١) .

والأصل فى الإطلاق الحقيقة ،

وأنه متى صح النص فلا يعدل عنه بقياس أو نظر أوغير ذلك لأن الطريق الوحيد إلى اليقين إنما هو فيما جاء به الرسول ﷺ من النصوص الثابتة لأن الرسول مبلغ للدين ومبين له فلا يؤخذ إلا منه ولا يوثق إلا فيما جاء به وإلا لم يكن علما ولم يكن دينا .

ومن هنا فإن السلف لا يقفون كما وقف المتكلمون حيث يأخذون بالنص حين يوافق عقولهم وإلا فهم له مؤولون . بل إن القاعدة الأساسية التى تميزهم عن غيرهم تتمثل فى أنهم لا يعارضون النصوص بل يقدمونها ويستدلون بها ولا يحيدون عنها قيد أنملة بتأويل أو تعطيل وبهذا سلم لهم هذا الأساس وصلحت لهم هذه القاعدة .

الأساس الثالث : الإعتماد على منهج القرآن فى الأستدلال (٢) :

القرآن الكريم كتاب الله المبين المنقذ من الشك والهادى إلى الحق قامت حججه وبراهينه على أسس سليمة ومتينة . له منهجه الخاص فى الإقناع والإستدلال يراعى الفطرة الإنسانية التى هى القدر المشترك بين الناس جميعا .

والسلف جعلوا طريقة القرآن الكريم قاعدتهم التى هى الأساس عندهم .

---

(١) الله فى الفلسفة الحديثة لكولينز صـ ١٦٨ . أى آياته بينات مع الدليل والبرهان .

(٢) الإستدلال هو إيراد الدليل لدعم القضية سواء أكان بطلب من المخالف أم استطراد من المستدل (أنظر التعريفات للجرجانى صـ ٥٣) .

ولذا نرى الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة السنة لم يحيدوا عن منهج القرآن ولم يجرؤا على ما جرؤ عليه غيرهم من إتخاذ المناهج الفلسفية أو الكلامية وإشتهر عن الإمام أحمد أن منهجه هو الإنتهاء إلى ما فى كتاب الله لا يتعدى ذلك [١] .

ويقول ابن قيم الجوزية أن طريقة القرآن فى الإستدلال ملائمة للعقل والفطرة والوجدان [٢] .

والسلف جعلوا طريقة القرآن الكريم فى الإستدلال هى الطريقة المثلى وهى الأساس السليم وذلك لأن أدلة القرآن جميعها أدلة الزامية لثبوت الاعجاز لها من جهة ولسلامتها من الإختلاف والتناقض من جهة أخرى .

ومن هنا فجميع أدلته أيضا قطعية فى ثبوتها لأنها وردت بطريق يستحيل فيها الكذب .

والمراد بأدلة القرآن هنا الأدلة العقدية . التى يرد بها على الخصوم ويقرر بها القواعد الإعتقادية كالالهيات والسمعيات والنبوات .

ويرى السلف أن فى طريقة القرآن الكريم إقحام المعاندين وإلزام وإرشاد المترددين .

وقد اختاروا منهج القرآن فى الإستدلال دون سواه من المناهج والطرق الأخرى لما يأتى :

(١) إن طريقة الإستدلال القرآنى إعتمدت على ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس فهى أقوى فى الحجة وأبلغ فى الأثر .

(٢) إن القرآن لم يخضع لقواعد بشرية تخطئ وتصيب بل قواعده ثابتة لا تحتمل إلا الصواب .

---

(١) ترجمة الإمام أحمد فى مقدمة المسند تحقيق - أحمد شاكر - .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية صـ ٢٢٥ جـ ١ بتصرف .

(٣) إن إستدلالات القرآن الكريم مشتملة على التوجيه والإرشاد والدعوة بالتى هى أحسن وأسلوب اللين والرفق أدعى لقبول الحق والرضى به .

(٤) إن القرآن الكريم خاطب العقل البشرى فى أروع مظاهر القوة والبيان والإقناع .

(٥) إن القرآن الكريم فيه تقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وقد جادل المعاندين بما يشفى ويكفى . لكنه كان يورد فى مناقضة الخصوم أدلة فسادها بحيث لا يستطيع العقل السليم والفطرة المستقيمة إلا الإعتراف والأذعان .

(٦) إن طريقة القرآن الكريم تتناول الخاصة والعامة بما يرضى العقول ويمتع الوجدان ويحرك المشاعر .

(٧) إن القرآن فى تقريره للعقائد يتخذ منهجا ذا شقين أحدهما للهدم والآخر للبناء . أى هدم العقائد الفاسدة وبناء العقيدة الصحيحة [١] .

ويحتج السلف بأن منهج القرآن هو المنهج الذى أخذ به الرسول ﷺ . بل هو منهج الرسل جميعا فى غرس العقيدة فى سهولة ويسر تلائم الفطرة وتوافق الوجدان ،

وتلفت الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض وتوقظ العقول إلى التفكير فى هذه الآيات وتنبه الفطرة إلى ما غرس فيها من شعور وإحساس بحاجتها إلى الله ويقولون إن الرسول ﷺ مضى على هذا المنهج ونحن نمضى عليه فطالما كان صلى الله عليه وسلم يغرس العقيدة فى نفوس الأمة لا فتا الأنظار وموجها الأفكار ومنبها للفطر حتى استطاع أن ينقل الأمة من الوثنية إلى التوحيد والإيمان واليقين .

ويرون أن الإنحراف عن هذا المنهج هو السبب فى زعزعة العقيدة فى القلوب ويستدلون بأن مناهج الفلاسفة والمتكلمين لم تعالج موضوع العقيدة إلا بما زاد الأمور تعقيدا وشكا وحيرة وإضطرابا .

---

(١) تجديد التفكير الدينى . محمد إقبال صـ ١٦

وأما طريقة القرآن الكريم وإثارتها لمشاعر الإيمان فى العقل والفطرة والوجدان فهى الطريقة المثلى والمنهاج القويم .

فالقرآن حين يجعل الطبيعة ما ثلة أمام الإنسان بكل ما فيها من مناظر مبهجة للنفس وممتعة للحس ومثيرة للمشاعر وباعثه على التأمل والتفكير .

وبما فيها من الدلائل والآيات المعجزة من نشأة الحياة وإبداعها وتعدد الكائنات وإتقانها والعناية الفائقة فى حركتها ودقتها .

حين يعرض هذا كله فى آياته عرضا سهلا ميسرا متلائما مع الفطرة ووضوح الحق وإستلهام الدليل .

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعلها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولا نعامكم ﴾ (١) .

إن هذا العرض القرآنى الذى يفتح القلوب وينير العقول ويثير الوجدان عرض سهل لا يعسر فهمه ولا إدراكه على أى إنسان فيصل إلى الإيمان بالاله القدير المبدع الذى يحس به شعوره ووجدانه وتتلاءم معه فطرته ، فيقر حينئذ بوحدانيته جل وعلا .

---

(١) الأنعام :آية : ٩٩ (٢) الرعد آية : ٤ (٣) عبس آية ٣٢

ولا يسعه حينئذ إلا أن يستخرج من تلك الآيات ما هو دليل على الجمال والكمال ، وما هو دليل على الحركة والإستمرار ، وما هو دليل على الخلق والإحياء ، وما هو دليل على العناية واللطف والتدبير وما هو دليل على القدرة والقوة والإعجاز . وما هو دليل على القصد والاتقان والإبداع له تعالى وحده ، ودليل على أن الألوهية له تعالى وحده .

● طرق القرآن :

وقد سلك القرأن الكريم طرقا متعددة فى جوانب العقيدة منها :

طريقة القرأن في إثبات وجود الله و منها طريقته فى إثبات وحدانية الله وطريقته فى إثبات الرسالات ، وتتمثل هذه الطرق القرأنية فيما يلى [1] :

أولا : طريقة القرآن فى إثبات وجود الله تعالى :

١ - الدليل الفطرى :

يقرر السلف بأن وجود الله تعالى أمر مغروس فى الجبلة الإنسانية حيث إن الفطرة السليمة تشهد بذلك [2] وهذه الفطرة مضطرة إلى الإقرار بوجود الله تعالى مالم تعقها العواق . والنصوص القرآنية لم يكن هدفها إثبات وجود الله لأن الإيمان بوجوده ضرورة حتمية وإذا انحرفت الفطرة فلا يعنى ذلك عدم الإحساس بوجود الله وإنما هى العوائق والظلمات الحائلة بين الفطرة الإنسانية والوجود الالهى المتمثلة فى الجهل والكذب والجحود الذى يلقى عليها الغشاوة فلا ترى الحقيقة [3] ولو خلوا وفطرتهم فلا يسعهم إلا الإعتراف والتسليم بهذا الوجود

---

(١) مراجع هذا الموضوع : ملخصة من تفسير القرطبى والالوسى والرازى وأيضا : بدائع الفوائد لابن القيم ، الكشف عن منهاج الأدلة وإستخراج الجدال من القرآن لابن الحنبلى والملل والنحل للشهرستانى والفصل لابن حزم والإتقان للسيوطى ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية صـ ٤/٨٣

(٣) ابن تيمية وموقفه من التأويل للجليند صـ ٣٣.

الالهى الذى يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم من حيث لا يشعرون . ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ [(١)] .

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ [(٢)] .

﴿ حتى إذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [(٣)] .

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ [(٤)] .

﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ [(٥)] .

٢ - دليل الإبداع والإختراع :

وهو الاستدلال على وجود الله تعالى بهذا الكون وما أبدعه الله فيه من أرض وسماء وسحاب وهواء وحيوان وإنسان وجماد ونبات وسائر المخلوقات . ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأض كيف سطحت ﴾ [(٦)] .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ [(٧)] .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ [(٨)] .

فهذه الآيات التى تدل على قدرة الله وعظمته وخلقه وصنعته هى دليل على وجوده جل فى علاه .

٣ - دليل العناية :

ويتمثل فى ارتباط الكون بعضه ببعض [(٩)] وتسخيره ومنفعته من أجل الإنسان ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ [(١٠)]

---

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) الزخرف آية : ٨٧

(٣) العنكبوت آية : ٢٩

(٤) النحل آية : ٦٢

(٥) إبراهيم آية : ١٠

(٦) الغاشية آية : ١٧ - ٢٠

(٧) الطارق آية : ٥ - ٦

(٨) ق آية : ٦

(٩) الصفات الخبرية - رسالة للأثيوبى صـ ٣٣

(١٠) الجاثية آية : ١٣

وطريقة القرآن فى ذلك هى الإرشاد إلى المنافع المترتبة على هذه المخلوقات والمصالح المترتبة على الخلق . فإنزال المطر لأنبات الزرع وارسال الرياح لواقح وجعل الشمس سراجا والقمر نورا والجبال أوتادا والأرض مهادا والليل لباسا والنهار معاشا .

وكل هذه المخلوقات المرتبطة بمنافع معينة وجدت لها كل ذلك دليل على أن لهذه المخلوقات موجدا مدبرا حكيما (١) .

قال تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ (٢) .

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾ (٣) .

فهذه الآيات التى تبين ما فى العالم من تناسق وإنسجام وتدبير وإحكام وعناية كبيرة بكل صغيرة وكبيرة دليل علي وجود الله سبحانه وتعالى .

ثانيا : طريقة القرآن فى إثبات وحدانية الله :

لقد سلك القرآن الكريم فى سبيل الإستدلال على وحدانية الله تعالى مسلكين :

المسلك الأول : إنتظام الكون وسلامته من الفساد المترتب على وجود آلهة كثيرة تعبد من دون الله . والفساد المراد هنا الذى هو ضد الصلاح الذى فيه سعادة البشر وهذا لا يكون إلا بتوجيه جميع القلوب إلى إله واحد تؤلهه وتخضع له (٤) . وإلا كان الفساد .

---

(١) تلبيس الجهمية صـ ١٧٨

(٢) الروم آية : ٤٨

(٣) النبأ آية : ٦ - ١٦

(٤) العقل والنقل (مخطوط) ٤٤ - ٣١٤

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (١) .

يقول بعض السلف ان الآية مسوقة لنفى التعدد فى الالوهية أما توحيد الربوبية فكان معترفا به من الجميع فليس هناك حاجة إلى تقريره وإنما الحاجة إلى بيان أن من يقر بربوبيته وحده يجب أن يعبد وحده فمقصود القرآن هو توحيد الالوهية وهو متضمن لتوحيد الربوبية من غير عكس أى أن توحيد الربوبية وحده لا يكفى (٢) .

وتقرير الدليل فى الآية على ما يراه الإمام عبد الرحمن بن نجم فى كتابه استخراج الجدال من القرآن .

أن يقال الله واحد لأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمدبرين . فكيف ينتظم هذا التدبير العام فى جميع هذا الكون بمدبرين . فلو وجد ذلك لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب يريد أحدهم حياة شخص والاخر موته وهذا التنازع يؤدى إلى فساد السموات والأرض لتخالف الإرادات ولكنهما صالحين غير فاسدين . فبطل ما يؤدى إلى فسادهما وهو تعدد الالهة وثبتت الوحدانية . ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على يعض سبحان الله عما يصفون ﴾ (٣)

وتقرير الدليل أنه لو فرض وجود اله مع الله لا نفرد كل اله بسلطانه المستقل واتجه للإستعلاء على الأخر فينشأ الفساد أو يغلب أحدهما الآخر فالمغلوب لا يكون الها (٤) .

ويقرر ابن تيمية أن الآية نفت أن يكون لله ولد يتقرب إليه بعبادة هذا الولد وفى هذا نفى لتأليه الوسائط بين الله وعباده ثم نفت أيضا أن يكون آلهة أخرى تعبد

---

(١) الأنبياء آية : ٢٢
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية صـ ٢٢ جـ
(٣) المؤمنون آي ٩١
(٤) الجدال لابن نجم صـ ١٢ وما بعدها .

كشركاء معه . لأنه لو كان معه من يستحق العبادة لكان الأمر لا يخلو من أحد احتمالين :

الإحتمال الأول : أما ان يكون كل اله قادر مستقلا فيتحقق الفرض الأول (إذا لذهب كل اله بما خلق) وإنتفاء اللازم يدل على إنتفاء الملزوم .

الإحتمال الثانى : أن يكون أحدهما قادراً دون الآخر فيتحقق . الفرض الثانى (ولعلا بعضهم على بعض) والمعلوم أن ذلك لم يقع . فدل على إمتناع أن يكون هناك اله قادر وآخر عاجز ولو فرض لكان القادر هو الإله [١] .

ومن هذا القبيل :

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [٢] .

فالآية فى هذا السؤال إلى المشركين :

هل الذين عبد تموهم من دون الله يملكون مثقال ذرة فى السموات أو فى الأرض على سبيل الإستقلال أو الشركة ؟

وهل ساعد أحد منهم فى خلق السموات والأرض ؟ ولحصول العلم لديهم بنفس ذلك لنجد القرآن الكريم يعمد إلى نفى قضية أخرى ربما كانت سببا فى وقوع الشركة فى هذه الدنيا فينبههم إلى أن الشفاعة لا تقبل عنده إلا لمن أذن له . وذلك لينفى دعواهم فى شركهم حيث قالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [٣] .

فالذى لا يخلق على سبيل الشركة ولا على سبيل الإستقلال لا يستحق العبادة . فإن كانوا قد أقروا بالربوبية فالآيات توضح لهم أن الرب الخالق القادر هو الذى يجب أن يعبد ولا يعبد سواه (٤) .

---

(١) العقل والنقل ٤ - ٣٢١ ومابعدها

(٢) سورة سبأ آية ٢٣

(٣) الزمر آية : ٣

(٤) انظر تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير .

المسلك الثانى : إبطال معبودات المشركين :

وذلك ببيان تفاهة هذه المعبودات وإظهار عجزها وإفتقارها وإذا بطلت عبادتها فلا تستحق إن تكون آلهه مع الله وثبتت وحدانيته .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت إتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ (١) . فهنا تثبت الآية تفاهة المشركين عندما يعبدون غير الله ويتخذون من دونه أولياء لا ينفعوهم ولا يضروهم لأنهم أى المعبودات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملك لغيرها ؟ وإن كانت كذلك بطلت عبادتها . وثبتت وحدانية الله تعالى وترك ما يعبد من دون الله .

وهذه هى طريقة القرآن فى إثبات الوحدانية يستغنى عن الطرق الأخرى ليثبت بطريقته الخاصة أنه : ﴿ أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

ثالثا : طريقة القرآن فى إثبات الرسالة :

وتتلخص هذه الطريقة بعرض الرسول لرسالته وتبليغ قومه بها فإن كانت لهم شبهة أو إعتراض دحضها وفندها .

كما قال تعالى فى حق رسوله محمد ﷺ : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٢) .

ولكن الكفار عارضوا ذلك كما حكى عنهم القرآن الكريم .

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ (٣) .

وقد نقض القرآن هذه الدعوى بأمرين :

---

(١) العنكبوت آية : ٤١ (٢) الفرقان آية : ١

(٣) الفرقان آية : ٤

أولهما : أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب فكيف يظهر عليهم بهذه المفاجأة (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) (١) . فلما لم يعقل أن يأتى بمثل ذلك أمى ثبت كذبهم وتحقق صدق نبوته .

ثانيهما : أنه لو كان ذلك فى إستطاعته وحده أو بمساعدة غيره له لكان ذلك أيضاً فى إستطاعة قريش وهم أهل الفصاحة وقد تحداهم الرسول أن يأتوا بمثله أو بعشرسور أو بسورة من مثله ولكنهم عجزوا (قل لئن إجتمعتالإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٢).

فتحداهم وأظهر عجزهم فثبتت رسالته صلى الله عليه وسلم .

رابعا : طريقة القرآن فى إثبات البعث والجزاء :

نهج القرآن الكريم فى إمكان البعث والجزاء طريقة جمع فيها بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بالمشاهد المحسوس وبين ما تقرره العقول السليمة بما لا يتنافى مع الفطر المستقيمة وذلك مثل الإستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم :

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ (٣) .

ومثل الإستدلال على البعث بالنشأة الأولى :

﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾ (٤) .

ومثل الإستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان التى هى أعظم من خلق الإنسان : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ (٥) .

---

(١) العنكبوت آية : ٤٨
(٢) الإسراء آية :
(٣) البقرة : ٢٤٣
(٤) الإسراء : ٥١
(٥) يس : ٨١

تلك هى طريقة القرآن الكريم كمنهج عام متكامل وشامل يغنى عن طريقة الفلاسفة والمتكلمين وإن الناظر إلى هذا المنهج القرآنى يجده قد حوى نماذج متعددة من طرق الإستدلال مما يدل على هذا الشمول والتكامل .

ومن هذه النماذج ما يلى (١) :

(١) قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ (٢) .

فهنا نجد القرآن الكريم عقد المشابهة بين البدء والإعادة . قاس الإعادة وهى محل الانكار والإستغراب على البدء وهو أمر واقع ومشاهد لا تنكره العقول .

فمن قدر على البدء فهو قادر على الإعادة . وهذه الطريقة هى ما يسمى بقياس التمثيل الذى هو الحاق أحد الأمرين بالآخر كما ألحق الإعادة بالبدء .

(٢) ومنها قوله تعالى وهو يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٣) فهنا مقايسة بين خلقه آدم وعيسى عليهما السلام وأنه إذا كان الخلق من غير أب مسوغا لإتخاذ عيسى ابنا أو إلها فالأولى أن يكون الخلق من غير أب وأم مسوغا لاتخاذ آدم ابنا أو إلها . لكن أدم ليس أبنا ولا إلها فكذلك عيسى ليس أبنا ولا إلها . وهى ما تسمى بالأقيسة الإضمارية التى تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف .

(٣) ومنها قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ﴾ (٤) .

---

(١) هذه النماذج من العقيدة الطحاوية للطحاوى . والمعجزة الكبرى لأبى زهرة ، والإرشاد للشوكانى ومناهج الجدل للألمعى والإتقان للسيوطى ومنهج الفرقان لمحمد سلامة وغيرها من المراجع.

(٢) سورة يس الآيات من : ٧٨ - ٨١

(٣) سورة آل عمران آية : ٥٩ (٤) الطور آية : ٣٥

فهنا يسلم الخصم بالمقدمات لأنها بينة معروفة ولذا فهى برهانية ولذا فهى أدعى للأنقياد للحق ومجانبة الباطل علاوة على ما فى الاستفهام من إستثارة للنفس ليكون الإلزام أقوى وأبلغ . وهو ما يسمى بالإستفهام التقريرى وهو الإستفهام عن المقدمات البينة التى لا ينكرها أحد .

(٤) ومنها قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [١] .

فالدعوى مبنية على أحد إقتراحين : إما أن يكون عندهم من الله عهد وبرهان واما أن يكون قولا بلا علم فتكون الدعوى خالية من الدليل فتكون باطلة . وهو المعروف بمطالبة الخصم بتصحيح دعواه وإثبات كذبه فى مدعاه وهو إثبات أن دعوى الخصم خالية من الدليل فتبطل حينئذ لخلوها من العلم والبرهان .

(٥) وكقوله تعالى فى شأن اليهود : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ...﴾ الآية [٢] .

فهنا ادعى اليهود نفى إنزال شئ من الكتب فكذبهم الله تعالى بإعترافهم بإنزال التوراة . فهذا تناقض منهم ومن هنا ألزمهم القرآن وأفحمهم . وهو ما يعرف « بإبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها » .

(٦) قوله تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [٣] .

فهنا يعترف الخصم بعجز الشركاء عن أن يخلقوا ذبابا وعجزهم أن يستردوا ما يسلبه الذباب منهم ضعف الطالب وضعف المطلوب .

وحينئذ يجب إلزام الخصم بما يعترف به مما هو مشاهد محسوس ويسمى هذا الإستدلال إلزام الخصم بما يعترف به .

---

(١) البقرة آية : ٨٠ .   (٢) الأنعام آية : ٩١   (٣) الحج آية : ٧٣

(٧) قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾ (١) .

فهنا إفحام الخصم ببيان أن أحدا لم يقل بأنه تعالى له صاحبة . ومن ينسب إليه الولد يعترف بعدم وجود الصاحبة له تعالى فكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة لأن التوالد يكون مع الصاحبة ولما لم يكن له صاحبة لم يكن له ولد سبحانه وتعالى عما يصفون . ويسمى هذا النوع من الإستدلال « إفحام الخصم » « تلك النماذج السابقة وإن كانت أدلة سمعية إلا أنها فى نفس الوقت عقلية وشعورية ونفسية لا يسع العقل السليم إلا أن يقتنع بها ولا يسع الشعور المرهف إلا الإحساس بمضمونها ولا النفس السوية إلا الرضى بها والتسليم لها . وقد سقتها لبيان أن طريقة القرآن فى الإستدلال أكمل وأفضل من جميع طرق الفلاسفة والمتكلمين ولهذا كانت قاعدة قوية ارتكز عليها السلف فى منهجهم .

ولهذا نرى الإمام محمد عبده يدعو إلى القرآن واتخاذه منهجا وطريقا ناقدا بذلك مناهج المتكلمين ومؤكدا أن منهج القرآن هو الطريق المستقيم وسر نجاح المسلمين . ثم يقول ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم – وهو القرآن الكريم . ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم (٢) .

● مناقشة الموضوع :

يقول الإمام الرازى (إن الدلائل التى ذكرها الحكماء والمتكلمون وإن كانت كاملة قوية إلا أن الطريقة المذكورة فى القرآن أقرب إلى الإقناع وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة بل خفية أحيانا وبسبب ما فيها من الدقة والخفاء إنفتحت إبواب

---

(١) الأنعام آية : ١٠٠ - ١٠١

(٢) تاريخ الإمام محمد عبده صـ ٤١ جـ ٢

الشبهات وكثرت السؤالات . وأما الطريق الوارد فى القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد وهوالمنع من التعمق والإحتراز عن فتح باب القيل والقال . ثم يقول ولقد إختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم . لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع عن العمق فى إيراد المعارضات والمناقضات . وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية لا تصلح لتلك القضايا العميقة والمناهج الخفية) [١] .

ومن هنا أخبر الواقف [٢] على نهاية أقدام أصحاب المناهج النظرية بما إنتهى إليه أمرهم .

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أوقار عاسن نادم

وبهذا أقروا على أنفسهم بما قاله الرازى :

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهذا هو الذى دفع الرازى ليقول : » لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولاتروى غليلا » .

ثم يقول : (رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم) [٣] أقرا فى الإثبات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وأقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ ثم يقول ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى [٤] .

---

(١) عيون الأنباء : صـ ٦٦٧

(٢) هو الشهرستانى كما ذكره ابن تيمية فى العقل والنقل صـ ٩٨

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية صـ ٣٢١

(٤) أقسام اللذات للرازى كما ذكره ابن القيم فى كتابه إجتماع الجيوش الإسلامية صـ ١٢١

ويقول بعض علماء السلف [١] (نظرت فى سبعين كتابا من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ فهذه آية واحدة فكيف بالقرآن كله ؟!

وإذا إتضح أن الطرق العقلية والكلامية لا يمكن الإكتفاء بها حتى عند أصحابها أنفسهم فكان لا بد من البحث عن مصدر فوق العقل يهديه وينقذه مما هو فيه . وليس فوق العقل إلا الوحى . ولذا يقول الدكتور البهى فى الجانب الالهى بصدد نقده للفلاسفة المسلمين (لو علموا نتائج قبولهم آراء أفلاطون وأرسطو - فى أمور العقيدة - لتركوا للقرآن الكريم وحده الطريق إلى قلوب المصدقين وعقول الخاصة من الناس) [٢] .

وذلك لما أدى إليه قبولهم بطرق الحكماء والمتكلمين إلى الحيرة والشك والإضطراب ومن هنا كان بعض المتكلمين والحكماء يعدل عن تلك الطرق العقلية والكلامية ويختار طريقة القرآن بدلا منها . تجنبا للإختلافات والمتاهات حيث إنها الطريقة الصائبة والرشيدة لأن القرآن جاء هاديا للعقل يرشده ولا يناقضه ويثبته ولا يشككه .

وقد إشتمل القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة [٣] .

وهو بهذا الشمول لا يحتاج إلى قواعد المتكلمين وقوانين الفلاسفة ويكفى أن آيات القرآن الكريم فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية وأما الخمسة الآلاف والستمائة والست والثلاثون آية الباقية تقريبا ففى بيان العقيدة .. أليس هذا شمولا [٤] ؟!!

---

(١) إستخراج الجدال من القرآن للإمام ابن نجم صـ ١١ - ١٢

(٢) الجانب الالهى - د. محمد البهى - الخاتمة .

(٣) أبجد العلوم لطديق خان صـ ٦٣. جـ ٢

(٤) مفاتيح الغيب صـ ٢٤ جـ ١

ويقول الزركشى (وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شئ من كليات العلوم العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به [1] .

مقارنة بين منهج القرآن الكريم ومنهج المتكلمين :

ليس معنى أن القرآن الكريم يدعو إلى النظر أنه يسلك مسلك أرباب النظر من الفلاسفة والمتكلمين بل إن له طريقته الخاصة ومسلكه الفريد . المتميز بملاءمة الفطرة والسهولة وصلاحيته للعامة والخاصة . فحين نقرأ آية الخلق فى قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيئ أم هم الخالقون ﴾ .

يجد الإنسان نفسه مضطرا إلى الإعتراف بوجود الخالق [2] سبحانه وتعالى لأن آية الخلق فطرية فى النفس وسهلة فى العقل وميسرة للعامة والخاصة . بينما طرق المتكلمين تستلزم – فى إثبات وجود الله – طريقة الإعراض . ثم ملازمتها للجواهر وإلتزامهم فى ذلك بمقدمات طويلة ومعقدة . بينما القرآن يستدل بالخلق على الخالق . فى وضوح ويسر فأيهما أجدى وأفضل ؟!

وقد يقال إن طرق الفلاسفة والمتكلين قد تتفق مع طريقة القرآن فى الإستدلال إلا أن طريقة القرآن لا تلجأ إلى تعقيد القواعد ووضع الإصطلاحات وإنما هى مباشرة وتطبيقية وتدل على المطلوب من أقرب طريق فالقرآن حين ينفى تعدد الالهة كما فى قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ لم يقعد أولا أن نفى التعدد يكون بدليل التمانع أوقياس الخلف بل بين أن الفساد مترتب على تعدد الالهية وأظهر ذلك فى سهولة ووضوح وقد يقال إن القرآن حين يدعو إلى النظر والبرهان أنه يقر العقل على الإستقلال عن الوحى . بل غاية ما يقال أنه يرضى العقل فى نزعته إلى الإجتهاد فى الفهم أو يشجعه عليها .

وليس معنى إن الدين بالحجة والبرهان دون التقليد الذى هو عصا العميان كما يقول الخوازمى [3] .

---

(١) البرهان للزركشى صـ ٢٤ جـ ٢

(٢) الإضطرار بمعنى الإحتياج أنظر القاموس المحيط للفيروز أبادى صـ ١/٧٧

(٣) مفيد العلوم ومبيد الهموم – للخوازمى صـ ٩ .

ليس معنى هذا أن الأخذ من الرسول ﷺ تقليد أو تعطيل للعقل لأن تصديق الرسول ﷺ مبنى على منطق خاص به وإتباعه على أنه لا ينطق عن الهوى أن هو إلا وحى يوحى - أما التقليد المذموم فهو الأخذ من الأباء لمجرد أنهم آباء .

ونخلص من ذلك أن طريقة القرآن فى إثبات العقيدة هى الأساس الأيسر والأصوب ويكفى أنه المنهج الذى جاء به الرسول ﷺ ولو كان هناك طرق أخرى لعلمنا أياها ولسلكها أصحابه من بعده . فكما أن الرسول ﷺ جاء بأرقى المناهج وأعلمها وأحكمها (١) فكذلك السالكون (٢) لتلك الطريقة أرقى وأعلم وأحكم كيف وإيمان الواحد منهم كان يعدل إيمان أمة بأسرها !!

ولو أنفق امرؤ مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .

وهكذا كانت طريقة القرآن الكريم - على هذا النحو من البساطة المتفقة مع الفطرة والمناسبة لجميع العقول والبعيدة عن تعقيدات طرق المتكلمين - هى القاعدة التى ارتكز عليها السلف وجعلوها أساسافى منهجهم .

وبعد - فهل خلصت لهم هذه الأسس والقواعد ؟

الجواب : نعم فتقديم الشرع هو الأولى والأفضل ، وعدم التأويل هو الأسلم والأحكم والأعلم ، وطريقة القرآن هى الأيسر والأسهل . وتلك المعايير هى ميزانهم ، وميزتهم ، بها يغربلون غيرهم ويقننون أنفسهم ، ويحددون هويتهم . واتجاههم .!!

* * *

---

(١) أعنى القرآن الكريم .

(٢) أعنى الصحابة رضى الله عنهم .

الباب الثانى

الإتجاه السلفى عند الإمام ابن حنبل

ويتناول الفصول الآتية :

الفصل الأول : التعريف بالإمام ابن حنبل

الفصل الثانى : عقيدته

الفصل الثالث : منهجه

الفصل الأول

التعريف بالإمام أحمد بن حنبل

● تقديم :

الكتابة عن الإمام ابن حنبل ليست بالأمر الهين ذلك أن إماما يقال عنه أنه حجة على أهل زمانه ، وأحيا الله على يديه السنة ، وأمات البدعة ، وكان محدثا وفقيها وصاحب دعوة ، وعقيدة .

يقول :

إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟!!!

والحق الذى يريد الإمام ابن حنبل إظهاره هو الحق فى كل شئ .. فى العقيدة، والشريعة ، والسلوك .

ولما كانت دراستى للإمام ين حنبل - بحكم التخصص - فى جانب العقيدة فلقد وجدت الأمر صعب المرتقى ؛ فإنه وإن كانت شخصيته واضحة ومفتوحة وثرية بما نقل عنه من نصوص بلغت فيما جمعه الإمام « الخلال » (١) وحده فى الجامع الكبير نحو العشرين سفرا كما يقول ابن القيم (٢) لكنها متناثرة وغير متناسقة ، وأيضا بالإضافة إلى ذلك فإن شخصية الإمام بن حنبل كمحدث ، وكراهيته للتعميم والقياس عاقاه عن أن يخلف مذهبا فكريا منسقا ، وذلك أنه كان يكره أن ينقل عنه شئ (٣) ناهيك عن القيام بترتيب مذهب أو تنظيمه .

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال مرتب آثار الإمام أحمد .

(٢) نقلا عن أحمد بن حنبل محنة الدنيا والدين للدارمى صـ ١١

(٣) غذاء الآلباب صـ ١٥٩

واليوم وإن كان يحق للباحثين أن يصوغوا آراء الإمام وأفكاره وأن ينهضوا بتشكيلها وتنسيقها على الوجه اللائق بها فإنى أستعين بالله تعالى لكشف هذه المنابع الصافية من عظمة هذه الأمة ممثلة فى واحد من عظمائها وإمام من أئمتها .

ويجدر قبل الحديث عن الإمام أن أشير إلى الحديث عن العصر الذى نشأ فيه ذلك أن العصر هو المحتوى والمحك لكل الصراعات المتضاربة والأفكار المختلفة والعقائد المتباينة .

* * *

عصر الإمام أحمد

كانت حياة الإمام بن حنبل رضى الله عنه فى العصر الذى نضجت فيه كل عناصر العصر العباسى وكان هذا العصر قد آتى أكله حلوا أو مراً (١) .

وامتاز العصر الأول من الحكم العباسى بالثبات ولاقوة ، مع الإختلاف فى العناصر والبيئات والعقائد والأراء (٢) .

وقد جاء هذا الإختلاف نتيجة لدخول العناصر الأجنبية فى الدولة العباسية (٣) .

فالخليفة المأمون قد استعان بالفرس واعتمد الخليفة المعتصم من بعده على الترك وحملت الدولة بهذا الخلط عوامل ضعفها وهدمها فكان من تلك العناصر الأجنبية من استباح الحمى واستبد بالأمر وضرب بالعقيدة الدينية عرض الحائط ، فانقسمت الدولة شيعا وأحزابا وكل حزب بما لديهم فرحون كل هذا والإمام أحمد يرقبه عن قرب ولم تكن هذه الأحوال لترضيه ولم تكن مظاهر سخطه عليها حربا يعلنها فلم يكن من رجال السيف .

ولم يرض أن يكون محرضا لفتنة تقوض بنيان الدولة الإسلامية حيث يرى أن ذلك يفك من عراها ، ويفرق من وحدتها كذلك لم يكن من مظاهرغضبه وإستيائه الجرح والتأنيب بل كانت مظاهر غضبه مما يتفق مع سمته وأدبه ورأى فى إنصرافه إلى العلم وقطع نفسه عن السياسة عزاء مما يعانيه .

---

(١) الإمام ابن حنبل للشيخ أبى زهرة صـ ١١٩

(٢) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة للدقر صـ ١١

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان رقم ١٩ والنجوم الزاهرة صـ ٧٣٥ جـ ١

ومع أنه لم يحمل السيف ليشارك فهو أيضا لم يستعمل التقية ليداهن بل كان بين ذلك قواما . لم يدع إلى فتنة أوثورة على الولاة والحكام وفى نفس الوقت لم يوالهم ولم ينافقهم . ومع زحمة المعارك السياسية كانت المعارك العلمية والفكرية أيضا فقد كان من مميزات ذلك العصر أن اتسعت فيه دوحة الثقافة الأجنبية والفكر الغريب فنقل إلى العربية من اليونانية والسريانية كثير من المعارف والعلوم .

كذلك دخلت مع العنصر الفارسى أفكار وعقائد تحمل فى بعضها الزندقة والإلحاد والإنحراف الذى يظهر ولاء الاسلام ويبطن الكيد والعداء والهدم .

وانتشرت النحل والعقائد الفاسدة . وكان لابد للخلفاء العباسيين أن لا يكتفوا بالسيف فى دحض هذه الزندقة فكانت الحرب الفكرية و وقف الفكر بجانب السيف يحارب الأعداء . فآووا إليهم كثيرا من العلماء والمفكرين . وفيهم المعتزلة الذين عرفوا حينئذ بقوة المحاجة والجدل وتحكيم العقل فى كل شئ .. وأخذوا على عاتقهم الدفاع عن الاسلام ولكن بطريقتهم الخاصة [١] .

وأعجب الخليفة المأمون بهم أيما إعجاب وختارهم جلساءه ومؤانسيه .

وخص منهم ابن أبى داود [١] وكان بارعا فى الكلام والفكر بليغا فى الأسلوب فصيحا فى اللسان . فأخذ المأمون به وولاه القضاء وسكن لآرائه ومعتقداته بل إعتنقها ودافع عنها . وكان من عقيدة المعتزلة أن القرآن كلام الله ولكنه مخلوق .

وصعب على الناس أن يقولوا فى كلام الله ما لا يعتقدون أو يقولوا فى كلام الله بما لم يرد عن الله ولا عن رسوله فيه شئ .

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستانى وطبقات الشافعية والنجوم الزاهرة وابن حنبل لأبى زهرة ملخصا .

(٢) هو أحمد بن أبى داود قيل الصحيح بدون همز كما ذكره ابن خلكان فى ترجمته بدأ خدمته للعباسيين سنة ٢٠٤ هـ وكان قاصدا اللفظ فى عهد المعتصم .

وأصر الخليفة المأمون حينئذ بحمل الناس قسرا على تغيير عقيدتهم ومن أبى منهم دعى إلى المناظرة ولكنها مناظرة مسبوقة بالنار والحديد . فاستسلم البعض منهم والمستنكفون دعوا مرة ثانية فاستجاب بعضهم بلسانه والله أعلم بما فى القلوب . والآخرون ما زالوا على إصرارهم وعقيدتهم . فلما دعوا للمرة الثالثة إستجاب الاكثرون ولم يبق فيهم إلا ثلاثة أخذوا مكبلين فى الحديد ولكنهم لم يجاوزوا نصف الطريق حتى توفى المأمون .

وتولى المعتصم وعمل بوصية أخيه فى إستمرار المحنة وكذلك ابنه الواثق من بعده وكان أشنع ما أثر عنه فى هذه الحقبة ضرب العلماء وسجنهم وقتلهم حتى تكون عقيدتهم موافقة لعقيدة الخليفة (١) .

ثم جاء المتوكل فأزال المحنة وأعاد للعلماء قدرهم وانتهت المحنة بعد إستمرارها خمسة عشر عاما من أحلك الأعوام . ثم ماتت ومات أصحابها وبقى الإسلام (٢) . وعقيدة الإسلام على يد أصحاب العقيدة السليمة الذين امتحنوا فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

وسوف يتضح موقف جليل من مواقف الإمام إزاء هذه المحن والفتن فى عصره الذى عاش فيه لتكون منهجا للأجيال على مر العصور .

• موقف الإمام إزاء المحن والفتن :

من طبيعة العصر الذى تكثر فيه المنازعات ويضطرم بإحتكاك الأفكار المختلفة أن تظهر فيه الآراء المنحرفة ويكثر فيه الشذوذ الفكرى والإجتماعى .

ولقد ظهر ذلك كله فى العصر العباسى . حين وفدت الآراء الغريبه على الفكر الإسلامى وترجمت العلوم الفلسفية من اليونانية والسريانية والفارسية وغيرها .

---

(١) تاريخ الطبرى صـ ١١١٢ جـ ٢ والنجوم الزاهرة صـ ٣٦٧ جـ ١

(٢) وفيات الأعيان ترجمة رقم ١٣٣ والنجوم الزاهرة صـ ٦٩١ جـ٢ ومابعدها ملخصا ط القاهرة .

واختار الإمام أحمد حياة سلفية خالصة تجرد فيها من ملابسات العصر ومناحراته وما يجرى فيه من منازلات وصراعات .

واختار أن يحيا حياة الصحابة والتابعين ومن نهج منهجهم واتبع سبيلهم . فكان يتلمس الأثر ويرتكز عليه فلا يخوض فى أمر إلا إذا علم أن الصحابة خاضوا فيه . وكان لا يقف ما ليس له به علم بل كان حذرا متوقفا معتصما بالكتاب والسنة والأثر (١) . حيث يعتقد أن الخروج عن ذلك زيغ عن مناهج السلف . وكان لا يتكلف التعمق فى مسائل عقلية قد تكون متاهات للعقل البشرى يضل فيها ويزل .

ولهذا إختار الإمام أحمد أن يعيش فى وسط تلك المنازع غريبا عنها محلقا فى جو السلف حتى وصف حينئذ من بعض معاصريه بأنه :

(تابعى كبير تخلف به الزمن) (١) .

وكان موقفه كما يقول الذهبى (١) أنه يقاطع - الذين لا يخضعون لما أثر عن السلف - مقاطعة تامة حتى أنه ما كان يستجيز لنفسه الرد عليهم . كتب إليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام فرد عليه الإمام بقوله : (أحسن الله عاقبتك، الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر فى التسليم والإنتهاء إلى ما فى كتاب الله لا يتعدى ذلك)..

وهكذا كان الإمام أحمد ينهى الناس عن علم الكلام وهو العلم الذى يتكلم فى العقائد بطرق الفلاسفة . وما كان ذلك منه إلا لأنه مسلك غير مسلك السلف .

ويقول إنه وإن أدى إلى الصواب مرة فقد يؤدى إلى الضلال مرات .

---

(١) المناقب لابن الجوزى . ملخصا .

(٢) ابن حنبل لأبى زهرة صـ ٤٤

(٣) ترجمة الدهبى فى مقدمة المسند ط المعارف .

ومن هنا انصرف إلى دراسة العلم مطمئنا به متحصنا فيه رافعا نفسه إلى عصر الصحابة والتابعين وكان يدعو تلاميذه إلى أن ينهجوا هذا المنهج قولا وعملا . ذلك موقفه بصفة عامة وقد كان له موقف مشهود فى التاريخ إزاء محنة القول بأن القرآن مخلوق . سنشير إليها بإيجاز حيث إنها قد استوت بحثا ويمكن الرجوع إليها فى مظانها (١) .

● موقفه من المحنة فى القول بأن القرآن مخلوق :

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وكلام الله صفة من صفاته وصفات الله ليست مخلوقة ويستحيل أن تكون صفة من صفاته تعالى مخلوقة لأن صفاته لا تشبه صفات خلقه ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ .

قد توعد الله تعالى بسقر لمن وصف القرآن بأنه مثل كلام البشر .

﴿ إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر ﴾ . وكلام الله تعالى لا ينفد لأنه غير مخلوق ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ .

وهكذا كان موقف السلف يثبتون صفة الكلام لله تعالى ويعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق من باب وصف الله بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص. وكان الخلفاء على مذهب السلف ومنهجهم حتى عصر المأمون الذى دخل فيه الغزو الفكرى وحاول المنهج العقلى أن يحل محل المنهج السلفى .

وكان ابن حنبل حينئذ هو الناطق بلسان السلف والممثل للمنهج السلفى واشتهر المعتزلة بمنهجهم العقلى الذى تبناه المأمون وأغرم به فنهج نهجهم واعتنق عقيدتهم (٢) .

---

(١) أنظر فى المحنة رسالة دكتوراه عن أحمد بن حنبل - ولترياتون - ترجمة عبد العزيز عبد الحق - وأنظر محنة الإمام ابن حنبل تحقيق د. محمد نغش وابن حنبل لأبى زهرة وأنظر أحمد بن حنبل محنة الدنيا والدين للدومى وانظر شيخ الأمة لسيد الأهل وأنظر أحمد بن حنبل للدقر وأنظر كتب التراجم وغيرها .

(٢) تاريخ السيوطى صـ ٢٠٥ والطبرى صـ ٦١٩ جـ ٨

وكان من عقيدة المعتزلة القول بأن القرآن مخلوق .

فحمل المأمون الناس وفى مقدمتهم علماء الأمة على القول بما يقوله المعتزلة . ولكن أحدا لم يستسغ أن يقول بقولهم كما يروى فى المناقب لابن الجوزى عن أحمد بن عمر بن عيسى [1] يقول : (سمعت أبى يقول : ما رأيت مجلسا يجتمع فيه المشايخ أنبل مما يجتمعون فى مسجد الكوفة فى وقت المحنة وكانوا حينئذ ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين شيخا ليس منهم أحد يقول بأن القرآن مخلوق) .

ولكن هؤلاء الشيوخ والعلماء دعوا إلى الإستجابة لرأى الخليفة المأمون أو الرأى الإعتزالى فى الواقع ونفس الأمر . ومن لم يستجب يدعى إلى المناظرة والإمتحان ولكن النتيجة كانت معروفة مسبقا والحكم معلوما بين الضرب والحبس والقتل !! وتحت التهديدات العنيفة استسلم الكثير إلا أربعة . وهؤلاء قد ربط الله على قلوبهم واطمأنوا إلى حكم الله . وآثروا الباقية على الفانية : هم الإمام ابن حنبل ومحمد بن نوح والقواريرى وسجادة .

فشدوا فى الوثاق وكبلوا فى الحديد لملاقاة المأمون فلما كان الغد أجابهم « سجادة » إلى ما طلبوا . ففكوا قيوده . وفى اليوم الثانى خارت نفس « القواريرى » فأجابهم أيضا فرفعت عنه الأغلال وبقى ابن حنبل وابن نوح لكن ابن نوح استشهد قبل وصوله ولم يبق إلا الإمام ابن حنبل وبينما هم فى الطريق نعى المأمون ولكنه قبل أن يموت أوصى أخاه المعتصم بالإستمساك بعقيدته فى خلق القرآن . فأعيد الإمام ابن حنبل (مكبلا فى الأغلال) ولا زالت التهديدات تترى عليه ولكنه لم يتغير ولم يزد على أن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق لا أزيد وكلما أشتدوا عليه قال آتونى بآية من كتاب الله أو حديثا من أحاديث رسول الله ﷺ على ما تقولون . وكان القوم يرهبونه مرة ويغرونه أخرى ولكنه لم يستجب لهم ولما لم تنفع معه التهديدات والإغراءات نفذوا فيه وعيدهم فأخذوا يضربونه بالسياط مرة بعد أخرى ولم يترك فى كل مرة إلا بعد

---

(١) المناقب صـ ٢٠٥ وما بعدها .

أن يغمى عليه وينخس بالسيف فلا يحس وظل هكذا محبوسا فى السجن طوال ثمانية وعشرين شهرا . ولما أستيأسوا منه أطلقوا سراحه وأعادوه إلى بيته مثخنا بالجراح ولكنه وإن تأثر جسمه وضعفت عافيته تحت سياط العذاب إلا أن عقيدته ظلت قوية ثابتة مضربا للأمثال [١] .

ولم يكن الأمر ينتهى عند الإنتهاء بمحنة الدين ولكن تلتها محنة الدنيا زاهية مغرية . ولكن الذى قدر على الإنتصار فى المحنة الأولى كان على غيرها أقدر فرفض الإمام عروض الخلفاء عليه ونأى عن دنياهم وتجافى عن أموالهم وتنزه عن كل مغرياتهم التى حاولوا أن يغروه ويؤثروه بها .

وهكذا أعز اللّه الدين على يديه وأحيا السنة وأمات البدعة وأرسى العقيدة ونصر اللّه به الدين . قال عنه ابن المدينى [٢] :

إن اللّه أعز هذا الدين برجلين أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنةوقال أبو عبيد بن القاسم [٣] إن أبا بكر وجد أعوانا وأنصارا وابن حنبل وقف وحده .. ثم قال لست أعلم فى الإسلام مثله [٤] .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ابن عساكر صـ ٦٧ جـ ٢

(٣) المرجع السابق .

(٤) أى من أهل عصره . وإلا فالخيرية فى الأمة باقية إلى قيام الساعة .

لمحات من حياة الإمام ابن حنبل

● مولده ونسبه :

هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن أدريس بن عبد الله بن حبان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديله بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان [١] .

يلتقى مع رسول الله ﷺ فى نزار [٢] .

ولد فى بغداد فى ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائة هـ . وتوفى فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين [٣] .

● نشأته وطلبه للعلم :

حين بلغ أحمد من العمر ثلاث سنين توفى أبوه فكفلته أمه . حتى إذا صار غلاما إختلف إلى الكتاب ثم إلى الديوان وهو ابن أربع عشرة سنة [٤] .

ثم نزعت همته إلى طلب العلم فبدأ بدراسة فقه الشريعة والحديث فى بغداد . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره خلصت وجهته فى تعلم الحديث [٥] .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان صـ ٢٠ جـ ١

(٢) والتقاؤه كما ذكر المؤرخون من طريقين فالنبى ﷺ من ولد مضر بن نزار وابن حنبل من ربيعة ابن نزار ومضرور بيعه وإياد وأنمار أولاد نزار . نقلا عن أنساب الأشراف صـ ٢٩ جـ ١ ونهاية الأرب صـ ٣٨ والمناقب صـ ١٩

(٣) شذرات الذهب صـ ٩٦ جـ ٢ والمناقب صـ ١٣

(٤) المناقب صـ ٢١

(٥) البداية والنهاية صـ ٣٢٦ جـ ١٠

● رحلته فى طلب الحديث :

ثم رحل من أجل الرواية والسماع إلى بلاد كثيرة منها الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والمغرب وغيرها (١) حتى قال عنه ابن كثير (٢) أنه طاف فى البلاد والآفاق وسمع من مشايخ كانوا يجلونه ويحترمونه .

وهكذا كان دائب الرحلة فى طلب الحديث وملازما للفقهاء فى طلب العلم لا تعتزله همه ولا تقعد به عزيمة حتى حكى عنه ابنه صالح قال : رأى رجل مع أبى محبرة فقال له يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين ؟ فقال « مع المحبرة إلى المقبرة » (٣) .

رحل فى سبيل العلم إلى بغداد ليطلب الحديث من المحدث الكبير هشيم بن بشير بن حازم الواسطى . ورحل إلى صنعاء ليسمع عبد الرزاق ابن همام وكان فى نيته أن يرحل إلى ابن جرير لولا أن ضيق ذات اليد هو الذى منعه من ذلك (٤).

وكان حبه للعلم حبا فطريا تعمق فى وجدانه وعاش فى كيانه وكان مخلصا فى علمه لم يشبه بشائبة تعكر صفوه . كانت المعصية لا تعرف طريقها إليه ولا يعرف الترف مدخلا عليه . ولا يعرف اللهو ولا اللهو يعرفه .

عرض عليه الإمام الشافعى ليكون قاضيا باليمن حتى يستعين بتلك الوظيفة على دنياه وحتى يكون قريبا من عبد الرزاق (٥) .

فأبى إلا أن تكون رحلته للحديث فحسب لا تشوبها شائبة !!

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية صـ ٣٧ . العدد ١٣

(٢) البداية والنهاية صـ ٣٢٦ جـ ١٠ .

(٣) كناية عن مزاولته للعلم إلى آخرحياته .

(٤) ابن حنبل للدومى صـ ٢٢٣

(٥) هو عبد الرزاق بن همام المحدث المشهور باليمن وصاحب المصنف المعروف فى الحديث .

وكانت رحلاته المتعددة عاملا قويا في تحمله وصبره وسعة صدره ورجاحة عقله .

وكان تواضعه لشيوخه وخفض جناحه لأساتذته من عوامل فقهه .

وكانت ذاكرته واعية وعقليته لا قطة وذكاؤه لماحا وقلبه سليما .

كل تلك العوامل هيأته ليكون حافظا بل أحفظ أهل زمانه ومعاصريه قال عنه أحمد بن سعيد الرازى « ما رأيت أسود الرأس [1] أحفظ لحديث رسول الله ﷺ من أحمد بن حنبل » .

نقل الشوكانى عن ابن أبى زرعة قال : كانت كتب أحمد بن حنبل أثنى عشر حملا وكان يحفظها عن ظهر قلب [2] .

ويكفى كتابه « المسند » الذى تنبأ بإمامته وقد كان له غير المسند أحد عشر كتابا إن لم تكن كوكبا .

حيث أضاءت دنيا الناس وفقههم وكانت معالم لهم على طريق الدين والأحد عشر [3] إخوات المسند هى :

١ - كتاب التفسير .
٢ - كتاب الإيمان .
٣ - كتاب المسائل .
٤ - كتاب الفضائل .
٥ - كتاب الفرائض .
٦ - كتاب المناسك .
٧ - كتاب الناسخ والمنسوخ .
٨ - كتاب العلل .
٩ - كتاب الرد على الجهمية .
١٠ - كتاب الزهد .
١١ - كتاب الصلاة .

---

(١) كناية عن صغر سنه .

(٢) ابن حنبل للدومى صـ ٢٢٥

(٣) هذه الكتب هى المشهورة وقد أثر عنه غيرها .

وهكذا كان الإمام ابن حنبل جديرا بأن يبلغ الذروة فى العلم والحفظ وكان حريا بأن يقال [1] عنه « ليس فى أصحابنا أحفظ منه » .

ومن هنا صار فقيه المحدثين ومحدث الفقهاء وإمام السنة .

● لمحة من أخلاقه :

كان رضى الله عنه زاهدا لا عن عدم فقد أقبلت الدنيا عليه فرفضها فى إباء ووضعت أموال الخلافة بين يديه فتركها فى شمم وجاءته محنة الدنيا بزخرفها بعد محنة الدين بقسوتها فخرج من كليهما كالمعدن الغالى الثمين .

كانت العفة خلقه والنزاهة سجيته ، وكل ماله من الدنيا زاد الراكب وعيش القانعين . أشار عليه ابنه أن يأخذ من أموال الخلافة حيث دفعت إليه . فقال يا بنى : « ورزق ربك خير وأبقى » .

كان طليقا متفرغا للدعوة إلى الله لم يخضع عنقه لأغلال الوظائف .

كان الحق دأبه وديدنه لا تعوقه العوائق عن الجهر به والوقوف بجانبه .

كان أكثر الناس خشية لله . وأكثر العلماء علما أكثرهم لله خشية .

قيل له يوما بم تلين القلوب ؟ قال بأكل الحلال .

كان شعاره : يا نفس انصبى وإلا فستحزنين . إنه يؤثر نصب العيش و تعب النفس فى الحياة الدنيا ليفوز بنعيم طويل جليل فى الآخرة .

كان دائم المراقبة لله تعالى . أثر عنه من شعره .

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل   خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفى عليه بغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت   ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى   ويأذن فى توباتنا فنتوب [2] .

كان فى عصره خير الناس مع الناس وكان خير الناس مع أهله .

---

(١) القائل هو على بن المدينى أنظر تهذيب التهذيب صـ ٧٤ جـ ١

(٢) أصول أحمد د . عبد الله التركى صـ ٤٧

الفصل الثانى
عقيدة الإمام أحمد بن حنبل

لقد عنى الإمام أحمد بدراسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما فيهما من عقائد وفقه وسلوك وكان يعزل نفسه فيما عدا ذلك لكن العصر الذى وجد فيه كان مليئا بالجدل والخصومات والمنازعات وفى كثير من المسائل فلم يهنأ الإمام بعزلته فطلب منه الفتوى فى كثير من المسائل الفقهية والعقدية فلم يكن هناك بد من أن يجيب وهو الحجة الذى يطمئن الناس إليه .

لذلك أثر عنه كلام فى العقائد مستندا فيه إلى الكتاب والسنة .

وكان مما أثر عنه فى مسائل العقيدة : تلك القضايا المتفرقة فى الإيمان وحقيقته وزيادته ونقصانه . وغيرها من المسائل كما أوردها ابن الجوزى فى المناقب (١)
وكذلك ما ورد فى رسالة الإمام أحمد التى كتبها لمسدد بن مسرهد (٢) وكذلك ما روى فى بعض كتبه كالرد على الجهمية والزنادقة .

وكذلك ما روى أيضا فى الطبقات فى ترجمة أحمد بن جعفر بن يعقوب الفارسى الأصطخرى (٣) رسالة عن الإمام أحمد بن حنبل مطولة فيها جملة من الكلام عن العقائد .

ومجمل الإعتقاد كما ذكره ابن الجوزى عن الحسن بن إسماعيل الربعى قال :

---

(١) المناقب صـ ١٥٦

(٢) مسدد بن مسرهد بن مسربل البصرى روى عنه البخارى وغيره أنظر الطبقات صـ ٣٤١ جـ ١ وما بعدها .

(٣) هو أحمد بن يعقوب بن عبد الله أبو العباس الأصطخرى روى عنه الإمام أحمد وأنظر الذيل على طبقات الحنابلة صـ ٢٤ جـ ١

قال لى أحمد بن حنبل إمام أهل السنة : (أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التى توفى عليها رسول الله ﷺ : أولهما الرضى بقضاء الله والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه والأخذ بما أمر الله به والنهى عما نهى عنه ، وإخلاص العمل لله ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات فى الدين والمسح على الخفين ، والجهاد مع كل خليفة بروفاجر والصلاة على من مات من أهل القبلة ، والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والقرآن كلام الله منزل على قلب نبيه ﷺ غير مخلوق من حيث ما تلى ، والصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا ولا يكفر أحد من أهل التوحيد وإن عملوا بالكبائر ، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ، وأفضل الناس بعد رسول الله أبو بكر وعمروعثمان وعلى ابن عم رسول الله ، والترحم على جميع أزواج رسول الله وأولاده وأصهاره رضوان الله عليهم أجمعين ، فهذه السنة . الزموها تسلموا ، أخذها بركة ، وتركها ضلالة [1] .

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى ما نقله الإمام الالوسى فى كتابه جلاء العينين [2] عن اعتقاد الإمام ابن حنبل .

● وخلاصته :

(أنا أبو البركات ابن على البرزاز قال : أخبرنا أحمد بن على الطرنبئى قال: ثنا هبة الله بن الحسن الطبرى ، وأخبرنا محمد بن ناصر الحافظ ، ثنا الحسن بن أجمد الفقية قال ثنا على بن محمد ، ثنا سليمان المنقرى ، قال ثنا عبدوس بن مالك العطار . قال : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى تعالى عليه وسلم والاقتداء بهم . وترك البدع . كل بدعة فهى ضلالة ، وترك المراء والجدال ،

(١) جلاء العينين للألوسى صـ ١٩٤

(٢) جلاء العينين للألوسى صـ ١٩٠ وما بعدها ملخصا .

والخصومات فى الدين . والسنة عندنا : آثار رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم والسنة تفسر القرآن ، وهى دلائل القرآن ، وليس فى السنة قياس ولا تضرب لها الأمثال ولا تدرك بالآراء والأهواء ، إنما هو الإتباع وترك الهوى .

ومن السنة اللازمة التى من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها : الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه .

والإيمان بها لا يقال لم ، ولا كيف ، وإنما هو التصديق والإيمان .

ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفى ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم به بمثل حديث الصادق المصدوق ، ومثل ما كان مثله فى القدرة ومثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الأسماع وإستوحش منها المستمع ، فإنما عليه الإيمان بها ، وألا يرد منها حرفا واحدا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات ، وألا تخاصم أحدا ولا تناظره ، ولا تتعلم الجدال فإن الكلام فى القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه ، منهى عنه ، لا يكون صاحبه وإن أصاب بكلامه السنة من أهل السنة ، حتى يدع الجدال ثم يبين مدى إيمانه بالآثار والتسليم بها فيقول : (نسلم ونؤمن بالآثار . والقرآن كلام اللّه وليس بمخلوق ، ولا نضعف أن نقول ليس بمخلوق ، فإن كلام اللّه سبحانه ليس ببائن منه ، وليس منه شئ مخلوقا . وإياك ومناظرة من أحدث فيه ، ومن قال باللفظ وغيره ، ومن وقف فيه قال : لا أدرى مخلوق أو ليس بمخلوق ، وإنما هو كلام اللّه عزَّ و جَلَّ وليس بمخلوق ، والإيمان بالرؤية يوم القيامة كما روى عن النبى ﷺ من الأحاديث الصحاح . واختلف السلف الصالح: هل رأى نبينا محمد ﷺ ربه ؟ البعض ينفى لحديث عائشة الذى رواه البخارى ومسلم عن مسروق فقيل إنه صلى اللّه تعالى عليه وسلم قد رأى ربه [1] .

---

(١) هذه النقول من كتاب جلاء العينين للإمام الألوسى عن إعتقاد الإمام أبن حنبل ، والحق أنها مسألة خلافية والخلاصة والله أعلم أن الرسول ﷺ لم ير ربه بعينيه . ويمكن الجمع بين حديث عائشة وابن عباس بأنه رآه بقلبه ، ولم يره بعينه

رواه قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ورواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ورواه على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ويؤكد مدى تمسكه بالظاهر فيقول : والحديث كما جاء على ظاهره كما جاء عن النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به على ظاهره ولا نناظر فيه أحدا . والإيمان بالميزان يوم القيامة ، كما جاء « يوزن العبد يوم القيامة فلا يزن جناح بعوضه » وتوزن أعمال العباد كما جاء فى الأثر ، والتصديق به والإعراض عمن رد ذلك وترك مجادلته ، وإن اللّه تعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان ، والإيمان به والتصديق والإيمان بالحوض . وأن لرسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم حوضا يوم القيامة ترد عليه أمته عرضه مثل طوله مسيرة شهر ، آنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه ، والإيمان بعذاب القبر وإن هذه الأمة تفتن فى قبورها ، وتسأل عن الإيمان والإسلام ، ومن ربه ومن نبيه ،ويأتيه منكر ونكير كيف شاء اللّه وكيف أراد ، والإيمان به والتصديق به ، والإيمان بشفاعة النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحما ، فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء الأثر كيف شاء وكما شاء ، إنما هو الإيمان به والتصديق به . والإيمان أن المسيخ الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر ، والأحاديث التى جاءت فيه ، والإيمان بأن ذلك كائن ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام ينزل فيقتله بباب لد . والإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، كما جاء فى الخبر : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » . ومن ترك الصلاة كفر . وليس من الأعمال شئ تركه كفر إلا الصلاة ، ومن تركها فهوكافر وقد أحل اللّه تعالى قتله . والنفاق هو الكفر أن يكفر باللّه ويعبد غيره ويظهر الإسلام فى العلانية . مثل المنافقين الذين كانوا على عهد الرسول صلى اللّه تعالى عليه وسلم : «ثلاث من كن فيه فهو منافق » على التغليظ ويبين عدم الخوض فى تفسير الكيفية والكنه فيقول : نرويها كما جاءت ولا نفسرها . وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «لا ترجعوا بعدى كفارا ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ومثل : « إذا

التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » ، ومثل « سباب المسلم فسوق و قتاله كفر » ومثل : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » ، ومثل« كفر بالله من تبرأ من نسب وإن دق » ، ونحو هذه الأحاديث مما قد صح وحفظ فإنا نسلم له وإن لم نعلم تفسيرها ، ولانتكلم فيه ولا نجادل فيه ، وهو لا يشتط فى التفسير بالرأى ولكن بمثل ما جاءت به النصوص دون رد أو تأويل فيقول : ولا نفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت ، لا نردها إلا بأحق منها ».

وعقيدته فى أهل القبلة يبينها فى قوله :

(ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار ، ونرجو للصالح ونخاف على المسئ المذنب ، ونرجو له رحمة الله تعالى ، ومن لقى الله بذنب تجب له به النار تائبا غير مصر عليه ، فإن الله سبحانه يتوب عليه ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد فى الدنيا من الذنوب التى استوجب بها العقوبة فأمره (إلى الله تعالى ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ومن لقيه من كافر عذبه ولم يغفر له) .

ثم يبين عقيدته فى الجنة والنار فيقول :

(ومن الإيمان الإعتقاد أن الجنة والنار مخلوقتان ، كما جاء عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « دخلت الجنة فرأيت قصرا ودخلت فرأيت فيها الكوثر واطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا ، واطلعت فى النار فرأيت كذا « فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ﷺ ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار ورأيه فى أهل القبلة أن من مات موحدا يصلى عليه ويستغفر له ، ولا يحجب عنه الإستغفار ، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرا كان أو كبيرا ، أمره إلى الله تعالى) .

ورأيه فى قتال اللصوص والخوارج جائز إذا عرضوا للرجل فى نفسه وماله ويدفع عنهما بكل ما يقدر ، وليس له إذا فارقوه أو تركوه أن يطلبهم ولا يتبع آثارهم ، ليس لأحد إلا الإمام أو ولاة المسلمين ، إنما له أن يدفع عن نفسه فى

مقامه ذلك ، وينوى بجهده ألا يقتل أحدا ، فإن أتى على يديه فى دفعه عن نفسه وماله رجوت له الشهادة ، كما جاء فى الأحاديث وجميع الآثار فى هذا ، إنما أمر بقتاله ولم يؤمر بقتله ولا إتباعه ، ولا يجهز عليه إن صرع وإن كان جريحا ، وإن أخذه أسيرا فليس له أن يقتله ولا يقيم عليه الحد ولكن يرفع أمره إلى من ولاه الله تعالى فيحكم فيه ويبين رأيه فى الحاكم فيقول : والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر . ومن ولى الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين . والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البروالفاجر لايترك . وقسمة الفيء وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض ، ليس لأحد أن يطعن عليهم ولاينازعهم . ورفع الصدقات إليهم جائزة نافذة ، من دفعها إليهم إجزأت عنه برا كان أو فاجرا . وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولى جائزا أمامته - ركعتين من أعادهما فهو مبتدع تارك الآثار مخالف للسنة ، ليس له من فضل الجمعة شئ إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة ، برهم وفاجرهم ، فالسنة أن يصلى معهم ركعتين ويدين بأنها تامة . ولا يكون فى صدره شك ، ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين ، وقد كان الناس أجمعوا عليه وآقروا له بالخلافة بأى وجه كان بالرضا أو الغلبة - فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية . ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق) .

ومما سبق يتضح أن أهم ما ورد عن الإمام ابن حنبل من قضايا العقيدة هى قضية الإيمان وتوحيد الالوهية والربوبية والأسماء والصفات .

وفيما اطلعت عليه لم أجد للإمام ابن حنبل تطويلا ولا إختلافا يذكر فى الإيمان وتوحيد الالوهية والربوبية .

لهذا سأجمل البحث فى توحيد الالوهية والربوبية والإيمان .

وسيكون التفصيل فى قضية الصفات فهى أهم مسائل العقيدة التى أخذت من الباحثين جهدهم وشغلت فكرهم والناس فيها بين النافين والمعطلين أو بين المؤولين والمفوضين ، أو بين المشبهين والمجسمين ومنهم من كان وسطا بين النافين والمشبهين .

فالوصول إلى الحق فيها يؤدى إلى الإيمان والتوحيد والانحراف فيها يؤدى إلى الضلال والشرك . ولهذا سأرجى الحديث عن الصفات حتى انتهى من الكلام عن توحيد الالوهية والربوبية والإيمان بمشيئة اللّه تعالى .

* * *

عقيدته فى توحيد الربوبية والالوهية

إن تقسيم التوحيد على هذا النحو لم يكن موجودا فيما أثر عن الإمام أحمد فيما أعلم وإن كان المعنى موجودا حيث إن التوحيد فى حقيقته ما هو إلا الإعتراف بالله سبحانه وتعالى وتوحيده بأفعاله وهذا توحيد الربوبية وهو أساس الإيمان والإسلام ومن مستلزماته توحيد الله بأفعالنا الذى هو توحيد العبادة وهو توحيد الالوهية .

ولقد تحدث الإمام ابن حنبل عن كثير من قضايا العقيدة كالإيمان والأسماء والصفات وهذه الأمور من مستلزمات توحيد الربوبية والمعلوم أن أنواع التوحيد كلها متلازمة [١] أى لا ينفك بعضها عن بعض فالله سبحانه وتعالى واحد فى ملكه وأفعاله لا شريك له وواحد فى ذاته وصفاته لا نظير له .

وواحد فى إلهيته وعبادته لا ند له [٢] .

وكان فيما كتبه الإمام ابن حنبل فى الرد على الجهمية والزنادقة .

عند قوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ [٣] .

يقول : فلأن فى الدنيا أربابا باطلة فهذا ما شكت فيه الزنادقة [٤] .

أى يوجد فى الدنيا أولياء يتولونهم يؤلهونهم ويستشفعون بهم فى قضاء حاجاتهم ويخافونهم ويفزعون إليهم معتقدين أنهم يتولون شئونهم وتفريج كرباتهم وإغاثة لهفاتهم . وهذا ما ينافى توحيد العبادة .

فبين الإمام ابن حنبل أن الأرباب الباطلة فى الدنيا يتخذها المشركون أولياء من دون الله ويتوجهون إليها بالعبادة .

---

(١) أصول أحمد للتركى صـ ٩١
(٢) تيسير العزيز الحميد صـ ١١٧
(٣) الأنعام آية : ٦٢
(٤) شذرات البلاتين صـ ١١ جـ ١

وهو بهذا ينبه على توحيد الألوهية الذى هو توحيد العبادة والذى من أجله خلق الخلق وأرسلت الرسل . وهو معنى لا إله إلا اللّه . وما يستلزم ذلك من إخلاص المحبة له والخوف منه والرجاء فيه والتوكل عليه .

فالرغبة والرهبة والدعاء والنداء وسائر العبادة للّه وحده لا شريك له ومن هنا نلمس أن الإمام ابن حنبل كان يركز على توحيد العبادة وأنها هى التى أنكرها الملحدون وشك فيها الزنادقة فرد عليهم كيدهم فى نحورهم وأبطل شركهم ودحض باطلهم .

* * *

عقيدته فى الإيمان بالله تعالى

لقد قرر الإمام ابن حنبل عقيدته فى الإيمان فى عدة مواضع [١] .

وخلاصة ما ورد عنه أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأن البر كله من الإيمان والمعاصى تنقص من الإيمان ويقول فى صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأقر بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه ولم يشك فى إيمانه .

ويروى عنه ابن الجوزى [٢] إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وزيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام [٣] فإن تاب رجع إلى الإيمان ..

ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم . أو برد فريضة من فرائض الله جاحداً لها فإن تركها تهاونا بها وكسلا كان فى مشيئة الله إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه .

ويفهم من هذا أن الإيمان عنده نطق باللسان وعمل بالأركان وإعتقاد بالجنان . يدل على ذلك ما ورد عنه حين وصف المؤمن إلى أن قال : (وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه) [٤] . ويؤيده ما جاء فيما أملاه أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى من عقيدة الإمام ابن حنبل حيث يقول : وكان أحمد بن حنبل يذهب إلى أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالقلب يزيد بالطاعة

---

(١) منها ما ورد عنه فى كتاب السنة ومنها ما نقله ابن الجوزى فى المناقب وما رواه أبو يعلى فى الطبقات .

(٢) المناقب صـ ١٦٨

(٣) أى بالمعاصى .

(٤) المناقب صـ ١٦٥

وينقص بالمعصية ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وان الإيمان أسم يتناول مسميات كثيرة من أفعال وأقوال وذكر الحديث عن النبى ﷺ : قال : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » (١) . والحياء شعبة من الإيمان ويستدل على زيادة الإيمان بقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ (٢) .

ويستدل على أن المعصية لا تخرج من الإسلام ما لم تكن شركا بقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٣) .

ويستدل على أن الإسلام غير الإيمان بحديث الأعرابى وسؤاله عن الإيمان والإسلام وجواب الرسول ﷺ عنهما بجوابين مختلفين (٤) .

ويقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾(٥).

وهكذا كان الإمام ابن حنبل يستند فى كل مسألة من مسائل العقيدة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان ١ /٦٣ عن أبى زهرة .

(٢) المدثر : ٣١ (٣) النساء : ٤٨

(٤) الطبقت صـ ٢.٣ جـ ٢ (٥) الحجرات آية : ١٤

عقيدته فى الأسماء والصفات

ينبغى الإشارة إلى التعريف بالأسماء والصفات وأشهر المذاهب فيها قبل دراستها عند الإمام ابن حنبل .

فالأسماء والصفات هي أسماء الله الحسنى وصفاته العلا وهى الوسائل التى تعرف الله بها إلى خلقه(١) وهى التى تفتح الآفاق للتعرف على جلال الله وكما له .

قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلاواحدا من أحصاها دخل الجنة) (٢) وزاد الترمذى فى روايته : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس . السلام . المؤمن المهيمن العزيز الجبار . المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل ، السميع البصير . الحكم العدل اللطيف الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المغيث الحسيب الجليل الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين . الولى . الحميد المبدئ المعيد المحى المميت . الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الأخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو لرؤوف مالك الملك ذو الجلا ل والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى الضار النافع النور الهادى البديع الوارث الباقى الرشيد الصبور جل جلاله .

---

(١) العقائد الإسلامية صـ ٢٤

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب إن لله مائة اسم إلا واحدا ٣٧٧/١٣ عن أبى هريرة فى رواية صحيحه بلفظ (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحدا من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر) .

وإنه وإن كان قد ثبت فى الحديث السابق إن للّه تسعة وتسعين أسما فليس فى الحديث نفى ما عداها من الأسماء وإنما وقع التخصيص بذكرها لأنها كما يقول البيهقى [1] أشهر الأسماء (أبينها وفيها ورد الخبر أن من أحصاها دخل الجنة. ولا يمنع أن يكون للّه أسماء غيرها وأنزلها فى كتبه أو علمها لرسله أو لأحد من خلقه أو أستأثر بها فى علم الغيب عنده كما صح عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل أسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته فى كتابك أو أستأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى إلا أذهب اللّه همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا قال فقيل يا رسول اللّه ألا نتعلمها فقال بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها [2] .

فإذا كانت أسماء اللّه تعالى منها ما علم ومنها مالم يعلم فكذلك صفاته تعالى لا تعد ولا تحصى فيجب إثبات ما يليق من كمال ، ونفى ما يستحيل عليه من كل نقص . إذا ثبت ذلك فى الأسماء والصفات فيجب أن نثبت هذه الأسماء والصفات التى أثبتها اللّه ورسوله ولا نعطلها أو ننفيها . كما ينبغى إلا نحصر الصفات أو الأسماء فى عدد معين .

ويمكن أن نشير إلى ما شاع عن بعض الفرق تجاه الصفات على النحو الآتى :

١ - الجهمية [3] : الذين ينكرون الأسماء والصفات بدعوى أنها من المحدثات وخصائص المخلوقات وقالوا إن ظاهرها يفيد التشبيه بالمخلوق فظاهر معناها التمثيل وهو مستحيل على اللّه تعالى . وتابعهم المعتزلة فى نفى صفات المعانى .

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقى صـ ٦

(٢) أخرجه أحمد (٣٩١/١) عن عبد اللّه بن مسعود .

(٣) هم إتباع جهم بن صفوان وأطلقوا وإشتهروا فيما بعد وعنى بهم المعتزلة لأنهم ساروا على نهجهم. وأنظر المجموعة لابن تيمية وتاريخ الجهمية والزنادقة للقاسنى والرد على الجهمية تحقيق د . عميره .

ويمكن رد دعواهم جميعا - بأن الظاهر المفهوم لوكان المراد به خصائص صفات المخلوقين حتى يشبه الخالق بخلقه لما خالف أحد فى رده ونفيه إلا أن هذا ليس مرادا بالإتفاق للقطع بأنه تعالى ليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله يقول ابن حجر [١] وليس ما زعموا هو ظاهرها وإنما ظاهرها ما يليق بالخالق جل وعلا وليس فى العقل ولا فى السمع ما ينفى هذا والصفة تتبع موصوفها [٢] .

٢ - المعتزلة : الذين ينفون صفات المعانى عن اللّٰه تعالى كالقدرة والإرادة والعلم والكلام والسمع والبصر ويحتجون بأنها لو ثبتت لكانت قديمة بقدم الذات وحينئذ يتعدد القدماء .

ويمكن رد حجتهم بأن الممتنع هو تعدد القدماء إذا كانت ذواتا مستقلة لا تعدد صفات لذات واحدة وإنكار ما صح نقلا وعقلا .

٣ - الأشاعرة : الذين يحصرون الصفات فى عشرين صفة : واحدة نفسية وخمس سلبية . وسبع معان . وسبع معنوية .

فالنفسية : هى الوجود .

والسلبية : هى البقاء والقدم ،والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية .

---

(١) العقائد السلفية أحمد بن حجر صـ ٦٩ جـ ١

(٢) يقول ابن القيم فى بدائع الفوائد إن الصفة متى قامت بموصوفها لزمها أمور أربعة : أمران لفظيان . وأمران معنويان .

فاللفظيان : ثبوتى وسلبى

فالثبوتى : أن يشتق للموصوف منه اسم .

والسلبى : إن يمتنع الإشتقاق لغيره .

والمعنويان : ثبوتى وسلبى .

فالثبوتى : أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه .

والسلبى : ألا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرا عنه وهذه قاعدة عظيمة فى معرفة الأسماء والصفات .

والمعانى : هى العلم والكلام والسمع والبصر والإرادة والحياة والقدرة .

والمعنوية : هى العليم والمتكلم والسميع والبصير والمريد والحى والقدير .

وليس للأشاعرة دليل على حصرهم الصفات فى عشرين صفة فحسب والكتاب والسنة يردان هذا الحصر .

٤ - السلف [١] :

وهم الذين يثبتون الأسماء والصفات التى أثبتها اللّه لنفسه فى كتابه أو أثبتها له رسول اللّه ﷺ فى سنته . مع إفراد اللّه تعالى فى معانى ما ثبت له من الأسماء والصفات بخواص تختلف عن الخواص التى تميز بها المخلوق عن الخالق فيما له من الأسماء والصفات . فكل من المخلوق والخالق وإن إشترك فى اللفظ الكلى فلا إشتراك بينهما فى الخواص والكيفيات لتلك الأسماء والصفات .

فهم أثبتوا جميع الصفات التى ثبتت بالكتاب والسنة دون حصر لها فى عدد معين ودون أن تشبه صفة من صفات اللّه صفة من صفات المخلوقين . فجمعوا بين الأثبات والتنزيه ونأوا عن التشبيه والتعطيل والتكييف والتأويل .

* * *

(١) أنظر الباب الأول من البحث ص ٢٥ وما بعدها .

عقيدة الإمام ابن حنبل فى الأسماء والصفات

كانت عقيدة الإمام ابن حنبل فى أسماء الله تعالى وصفاته : إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ . وقد ثبت ذلك عنه فى أكثر من موضع [١] .

وقد استفاض عنه قوله (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث) [٢] .

روى عنه ابن الجوزى فى المناقب [٣] قال أخبرنا عبد الملك بن أبى القاسم الكرخى قال أنا [٤] عبد الله بن محمد الأنصارى قال أنا محمد بن أحمد بن الحسين قال أنا محمد بن إبراهيم بن خالد قال ثنا [٥] عبد الله بن أحمد قال : قال أبى : هذه الأحاديث نرويها كما جاءت .

وروى ابن الجوزى بسنده [٦] عن ابن حنبل : (من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله كما جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ .. فيصدقها ولا يضرب لها الأمثال . ثم قال : هذا ما اجتمع عليه العلماء فى الآفاق) .

ثم قال بسند آخر فى موضع آخر [٧] ... (وصفوا الله بما وصف الله به نفسه. وانفوا عن الله ما نفاه عن نفسه) .

---

(١) أنظر كتاب الإمام مسرهد وأنظر الطبقات والتراجم والمناقب وغيرها .

(٢) التنبيهات السنية صـ ١٩

(٣) المناقب صـ ١٥٥ - ١٥٦

(٤) أنبأنا . (٥) حدثنا .

(٦) أنظر السند فى المناقب صـ ١٥٦

(٧) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى صـ ١٧ .

وفى الإيمان بكل ما ثبت عن اللّه وإن نبت عنه الأسماع واستوحش منها المستمع يقول : (عليه الإيمان بها - أى بما ثبت عن اللّه - وألا يرد منها حرفا واحدا) [1] . سئل الإمام ابن حنبل قبل موته عن أخبار الصفات ؟ فقال : (تمر كما جاءت وأتعجبت من الإنكار لها) [2] .

ومما سبق من النقول والآثار الواردة عن الإمام ابن حنبل يمكن القول بأن عقيدته فى الأسماء والصفات تنبنى على أمرين :

الأول : ورودها فى الكتاب والسنة . فلا يثبت للّه تعالى شئ منها إلا ما أثبته لنفسه فى كتابه أو ما أثبته له رسوله ﷺ ويرجع ذلك إلى أن أسماء اللّه تعالى وصفاته توقيفية [3] .

الثانى : إفراده - تعالى - فى معانى ما ثبت له من الأسماء والصفات بخواص تختلف عن الخواص التى تميز بها المخلوق عن الخالق فيما له من الأسماء والصفات أى أن أسماء اللّه تعالى وصفاته لا تشبه شيئا من أسماء المخلوقين وصفاتهم فكل من المخلوق والخالق وإن اشترك فى اللفظ الكلى فلا إشتراك بينهما فى خواص وكيفيات الأسماء والصفات التى تقوم بكل منهما .

ومع تتبع ما ورد عن الإمام أحمد بن حنبل فى ذلك نجده لا يخرج عن هذين الأمرين فالكتاب والسنة هما مصدر الإثبات أو النفى ولذا فلم يستند فى إثبات شئ من أسماء اللّه وصفاته إلى مجرد العقل ولم يخرج فى هذا عن النص .

فكل ما أثبته اللّه لنفسه من اسم أو صفة وما أثبته له رسوله ﷺ من اسم أو صفة فإنه يثبت ذلك ويعتقده بلا تحريف ولا تشبيه وبلا زيادة ولا نقصان . ورائده فى ذلك ودليله : قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير ﴾ [4] .وقد

---

(١) المرجع السابق صـ ١٧٢ (٢) أصول أحمد التركى صـ ٨٢

(٣) أى لا يثبت منها إلا ما ورد فى الشرع فحسب .

(٤) الشورى آية : ١١

تبين فيما سبق ما رواه ابن الجوزى بسنده قال [1] : حدثنا عبد الله بن أحمد قال أبى : (هذه الأحاديث [2] نرويها كما جاءت) وما رواه أيضا عن محمد الأندرنى [3] ، قال : قال أحمد بن حنبل : من صفة المؤمن إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله كما جاءت الأحاديث) . ومعنى نرويها كما جاءت أى نثبتها كما وردت بمعناها اللائق بجلال الله تعالى دون الخوض فى كيفها وكنهها. حيث إن المعنى معلوم من منطوق اللفظ أما الكيف فهو مما غاب عنا والأمور الغيبية يرجأ علمها إلى الله تعالى كما قال الإمام ابن حنبل فى النص السابق (إرجاء ما غاب من الأمور إلى الله) .

وقوله بعد ذلك (كما جاءت الأحاديث) يدل على إعماله للنصوص وعدم إهمالها أو إهمال شئ منها . يدل على ذلك ما ورد فى النص السابق (عليه الإيمان بها - أى بما ثبت عن الله - وألا يرد منها - أى مما ثبت - حرفا واحدا) .

وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

ومما نقل [4] عن الإمام ابن حنبل فى الأسماء والصفات أنه لا يجوز أن نشتق لله تعالى اسما مما ورد بصيغة الفعل مما أطلقه الله تعالى على نفسه كقوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ فلا تقول « بناء » [5] .

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل صـ ١٥٥

(٢) المراد بها الأحاديث الواردة فى صفات الله تعالى .

(٣) هو محمد بن حيد الأندرنى كما فى المنهج الأحمد صـ ٣٣٧ جـ ١ وقيل أسمه بن حبيب كما جاء فى الطبقات صـ ٢٩٤ جـ ١ ونقل عن الإمام رسالة فى السنة .

(٤) الناقل هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى أحد علماء الحنابلة المشهورين ولد سنة . . ٤ هـ أنظر طبقات الحنابلة صـ . ٢٥ جـ ٣

(٥) ما ورد بصيغة الفعل مما أطلقه الله على نفسه فى القرآن لا يشتق له منها أسماء يسمى بها فلا يشتق من قوله (السماء بنيناها) بناء ولا من قوله (والأرض فرشناها) فراش . =

وقد نقل عن الإمام ابن حنبل أيضا أن أسماء الله المختصة المشتقة قديمة وإن لم يوجد ما تشتق منه كما فى آخر سورة الحشر [١] . ونسب إلى الإمام ابن حنبل أن القديم شئ لا كالأشياء وحى لا كالأحياء ووردت صفات فى الشرع يجب حملها على ما حملت عليه التسمية بكونه شيئا فلما فارق أسمه الأسماء فارقت صفاته الصفات [٢] ثم نقل عنه قوله : (ومن قال : إن الله عَزَّ وجَلَّ لم يكن موصوفا حتى وصفه الواصفون فهو بذلك خارج عن الدين) [٣] .

فخلاصة عقيدته فى ذلك أنه يؤمن بما ورد من النصوص فى صفات الله تعالى ويؤمن بمعناها كما جاءت دون زيادة أو نقصان ويرجئ كيفها وحقيقتها إلى الله تعالى لأن الكيف والحقيقة من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله . وليس للعقل مجال فى بحثها والخوض فيها لأن العقول قاصرة عن إدراك كنه تلك الصفات وحقيقتها . والكتاب والسنة هما الدليل فى هذا الموضوع غير متجاوز لهما ولا مؤول .

= وكذلك الأفعال التى ليست ممدوحة مطلقا بل تمدح فى موضع وتذم فى موضع . فلا يشتق له منها أسماء ولا يجوز إطلاقها على الله مطلقا والله وصف نفسه بها على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حقه مثل (ويمكرون ويمكر الله) ومثل (يخادعون الله وهو خادعهم) فلا يقال ما كر ومخادع وأما صانع فأجازها البعض مع معمولها . أنظر بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية صـ ١٦١ جـ ١

(١) أنظر تعليق رقم (٣) المتقدم

(٢) طبقات الحنابلة صـ ٢٦٥ - ٢٩٠ . جـ ٢

(٣) المعروف أن مذهب الإمام أحمد فى الصفات أنها توقيفية فلا يعقل أن يطلق على الله تعالى أنه قديم لأن هذا الوصف ليس من أسمائه الحسنى وأما الوارد فإنه « الأول » وهو أولى مما لم يرد الشرع به إلا إذا كان المراد الأخبار عن الله تعالى بأنه قديم أو الأخبار عن صفاته بأنها قديمة فهذا جائز لأن ما يدخل فى باب الأخبار أوسع مما يدخل فى باب الأسماء والصفات كالشئ والموجود والقائم بنفسه والقديم فإنه يخبر عنه ولا يدخل فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا فباب الأسماء والصفات توقيفى على الوحى وباب الأخبار ليس توقيفيا ، ومن هنا فيمكن تخطئ النافل فيما نسبه للإمام .

(٤) طبقات الحنابلة صـ ٢٦٥ - ٢٩٠ . جـ ٢

ثم قال وبيان ذلك إن يلزمه ألا يكون واحدا حتى وحده الموحدون وذلك فاسد .
ويؤكد صاحب الطبقات [١] أن الإمام ابن حنبل كان يقول : (إن اللّه تعالى قديم بصفاته التى هى مضافةإليه فى نفسه) [٢] . وقد سئل هل الموصوف القديم وصفته قديمان ؟ فقال : هذا سؤال خطأ ، لا يجوز أن ينفرد الحق عن صفاته [٣] ولعل معنى القدم الذى يعنيه الإمام ابن حنبل هو أن اسماء اللّه وصفاته غير مخلوقة يدل عليه ما رواه صالح ابنه حيث يقول سمعت أبى يقول : (من زعم أن أسماء اللّه مخلوقة فقد كفر) [٤] فاللّه تعالى هو الذى جاء فى القرآن والإعتقاد باللّه هو الإعتقاد بالصفات التى وصف بها نفسه فى كتابه .
ومن ثم يجب أن نسلم بأن صفاته السميع البصير والمتكلم والقادر والمريد[٥] وما ورد غيرها فهى كلها حق كما أن الصفات الأخرى الخبرية كالكلام عن يده وعرشه ورؤيته كلها أيضا حق . ويقول أيضا يجب أن نسلم بأن اللّه ينزل إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الآخر ليستمع إلى دعوات عباده كما يجب أن نسلم فى الوقت نفسه بظاهر لفظ القرآن : ﴿ قل هو اللّه أحد اللّه الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [٦] .

ثم يقول (وفي صفات اللّه ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالسمع) [٧] .

مثل قوله تعالى : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ [٨] .

---

(١) هو أبو الحسين محمد بن أبى يعلى الفراء صاحب طبقات الحنابلة .

(٢) الطبقات صـ ٢٩٩ جـ ٢

(٣ السنة لابن حنبل صـ ٣٧

(٤) المسند للإمام بن حنبل تحقيق أحمد شاكر صـ ٨. جـ ١

(٥) أحمد بن حنبل للدقر صـ ١٢٦ ، وأنظر التدمرية صـ ٩٥ ، والفتاوى ٣٧. جـ ١٦

(٦) سورة الإخلاص .

(٧) ولا مانع عند الإمام ابن حنبل أن نثبت الصفات بالعقل كما ثبتت بالنقل ويفهم هذا من آخر عبارته حيث يقول (فبان بإخباره عن نفسه ما إعتقدته العقول فيه) .

(٨) الشورى آية : ١١

فبان بإخباره عن نفسه ما أعتقدته العقول فيه وإن قولنا سميع بصير صفة من لا يشتبه عليه شئ . وهكذا ظهر من عقيدة الإمام أنه كان يثبت ما أثبته اللّٰه من الأسماء والصفات على حقيقتها لنفسه أو أثبته له رسول اللّٰه ﷺ اثباتا حقيقيا . منكرا على من يقول بالتعطيل أو التأويل ومنكرا تشبيه المشبهة راميا إياهم بأنهم مشبهة بلا وعى منهم .

واتضح أيضا أن عقيدته فى الأسماء والصفات أن يؤمن المرء بلا كيف ويترك للّٰه فهم ما غاب عنا . مما لا تدركه عقول البشر .

ويعتبر التأويل خروجا على السنة إن لم يكن مستمدا منها وذلك لأنه يرى إتباع المتشابه إبتغاء للفتنة وإبتداعا فى القول [١] ولذلك يقول عن صفة المؤمن من أهل السنة إنه هو الذى يرجئ ما غاب عنه من الأمور إلى اللّٰه ويؤمن بها كما جاءت والذى غاب هنا هو الكيف أما المعنى فقد جاءت به النصوص فيؤمن بها حينئذ كما جاءت .

ولئن كانت هذه عقيدته فى مجمل الصفات فإنه أثر عنه تخصيص لبعضها بالذكر والتفصيل منها :

● قوله فى صفة السمع والبصر :

أثبت الإمام ابن حنبل صفة السمع والبصر على ما جاء فى القرآن الكريم فأثبت للّٰه سمعا وبصرا فهو سميع بصير من غير تشبيه ولاتمثيل [٢] لأنه ليس كمثله شئ . فبصر اللّٰه وسمعه لا يشبه سمع المخلوقين وبصرهم .

وينفى أن يكون ذلك بمعنى العلم ويقول : إن الرؤية لا تكون إلا ببصر ويستدل بقوله تعالى لموسى (إننى معكما أسمع وأرى) [٣] وقوله تعالى

---

(١) ابن حنبل لأبى زهرة . مختصرا .

(٢) أحمد ابن حنبل للوقر صـ ١٢٧

(٣) طه : ٤٦

﴿ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ (١) يدل على أن معنى السميع غير معنى العليم وقوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ (٢) .

ومعنى ذلك أنه لو جاز أن يسمع بغير سمع لجاز أن يعلم بغير علم ومن ثم فهو عالم بعلم سميع بسمع بصير ببصر ويقول تمر كما جاءت ونؤمن بها ولا نرد منها شيئا إذا كانت بأسانيد صحاح ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية (٣) .

* * *

(١) البقرة : ٢٢٧

(٢) المجادلة : (١)

(٣) طبقات الحنابلة صـ ٢٦٥ جـ ٢

● عقيدته فى صفة الوجه :

يبين صاحب الطبقات عقيدة الإمام أبن حنبل فى إثبات الوجه فيقول [١] :

مذهبه فى الوجه إن للّه تعالى وجها لا كالصورة المصورة والأعيان المخططة بل وجها ذكره سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾ [٢] .

ويذكر عن الإمام إنه يقول من غير معناه عن ذلك فقد ألحد فهو وجه فى الحقيقة دون المجاز [٣] ومن ادعى أن وجهه نفسه فقد ألحد وليس معنى الوجه عند الإمام الجسد ولا الصورة ولا التخطيط ، ومن قال ذلك فهو عنده مبتدع[٤].

● عقيدته فى صفة اليدين :

مذهب الإمام أحمد إثبات يدين للّه تعالى على الحقيقة لا على المجاز وهى صفة ثابتة للّه تعالى تليق بجلاله وعظمته لا تشبه صفة المخلوقين [٤] .

ولانثبت إلا ما نطق به القرآن أو صحت عن رسول اللّه ﷺ فيه [٥] الآثار قال تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [٦] ﴿ ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى ﴾ [٧] .

ثم يقول الإمام [٨] رادا على المؤولين (ويفسد أن تكون يده القوة والنعمة والتفضل لأن جمع يد - أيد . وجمع تلك - أى التفضل والنعمة - أياد ولو كانت اليد عنده القوة لسقطت فضيلة آدم وثبتت حجة إبليس [٩] .

---

(١) طبقات الحنابلة صـ ٢٩٤ جـ ٢
(٢) القصص : ٨٨
(٣) الطبقات صـ ٢٩٤ جـ ٢
(٤) أصول أحمد للتركى صـ ٨٤
(٥) طبقات الحنابلة صـ ٢٩٤ جـ
(٦) المائدة : ٦٤
(٧) ص : ٧٥
(٨) نفس الموضوع من طبقات الحنابلة .
(٩) كأن الإمام ابن حنبل يبين أن قربة آدم هى خلق اللّه له بيده ولوكانت اليد مرادا بها القوة لما كان هناك مزية لآدم على غيره لأن الكل مخلوق بقوته تعالى .

● عقيدته فى صفة الإستواء :

ثبت عن الإمام ابن حنبل أنه قال : (إستوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب البشر) [1] وقال الميمونى - أحد أصحاب الإمام أحمد - سألت أبا عبد الله [2] عمن قال : الله ليس على العرش فقال : كلامهم كله يدور على الكفر[3].

وقال الإمام ابن حنبل فى كتابه الرد على الجهمية عند رده على الجهمية المنكرين أن يكون الله تعالى على العرش يقول لهم :

لم أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش وقد قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فقالوا : هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش وفى السموات والأرض وفى كل مكان وتلوا ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ [4] .

قال أحمد : فقلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شئ . أجسامكم وأجوافكم والأماكن القذرة ليست فيها من عظمة الرب شئ .

وقد أخبرنا الله سبحانه أنه فى السماء فقال : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ [5] .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ فهذا خبر الله أخبرنا أنه فى السماء ووجدنا كل شئ أسفل منه مذموما يقول الله جل ثناؤه : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ [6] . ﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ [7] .

ثم يتحدث الإمام مؤكدا أن الله على العرش ومنكرا على الجهمية أن يكون

---

(١) العقائد النسفية لابن حجر آل طامى صـ ١٢١ جـ ١

(٢) هو أحمد بن حنبل .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الأنعام آية : ٣

(٥) الملك آيجة : ١٦ - ١٧

(٦) النساء : ١٤٥

(٧) فصلت آية : ٢٩

الله فى كل مكان ورادا عليهم وموضحا لهم معنى المعية المذكورة فى الآية الكريمة : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ (١) .

فيقول لهم (٢) : أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه والشياطين مكانهم فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس فى مكان واحد وان معنى قول الله عَزَّ و جَلَّ: ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض وهو على العرش رقد أحاط علمه بما دون العرش ولا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان . فذلك قوله : ﴿ لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما ﴾ (٣) .

ثم يقول موضحا وجهة نظره : ﴿ لو أن رجلا كان فى يديه قدح من قوارير صاف وفيه شراب صاف كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون أبن آدم فى القدح فالله تعالى له المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شئ من خلقه . وأيضا (٤) لو أن رجلا بنى دارا بجميع مرافقها ثم أغلق بابها وخرج منها كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت (٥) فى داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار فى جوف الدار فالله تعالى وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه وعلم كيف هو من غير أن يكون فى شئ مما خلق .

ومرة أخرى يقول الجهمية إن الله معنا وفينا . فيقول الإمام أحمد لهم إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ (٦) . ثم قال : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هورابعهم ﴾ يعنى الله بعلمه ﴿ ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ يعنى بعلمه فيهم ثم يختم الآية الكريمة بقوله تعالى .: ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه .

الأنعام : ٣

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل تحقيق د . عبد الرحمن عميرة صـ ١٣٧

(٣) الطلاق آية : ١٢

(٤) نفس المرجع (الرد على لجهمية صـ ١٣٧)

(٥) كل ما بيات فيه من غرف وغيرها .

(٦) المجادلة : ٧

فكأن الإمام ابن حنبل يؤكد أن اللّه تعالى على العرش وأن دعوى أنه فى كل مكان بذاته باطلة لأن الدلائل والقرائن تدل على أنه فى كل مكان بعلمه ومحيط بكل شئ بعلمه .

وليس فى هذا صرف للفظ ولا تأويل له وإنما هو تفسير القرآن بالقرآن .

● عقيدته فى صفة الكلام :

لقد كان للإمام أبن حنبل دور مشهور فى المحنة فى مسألة خلق القرآن ومهما كثرت عنه النقول فإن الثابت عنه أنه صرح بما لا مجال فيه للتردد والشك بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق .

(أثبت الإمام ابن حنبل أن للّه تعالى كلاما هو به متكلم وذلك صفة له فى ذاته خالف فيها الخرس والبكم والسكوت وامتدح بها نفسه فقال عَزَّ و جَلَّ فى الذين اتخذوا العجل : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا إتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (١) . فعابهم لما عبدوا إلها لا يتكلم (٢) أى أن عدم صفة الكلام عيب يعاب بها على من حرم منها ، وصفة الكلام كمال يمدح عليها صاحبها ومن هنا يؤكد الإمام ابن حنبل إثباتها للّه تعالى إثباتا حقيقيا لا مجاز فيه .

ومن هنا فهو يؤكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وكلم اللّه موسى تكليما ﴾ (٣) .

ويوضح ذلك فيقول إن « تكليما » مصدر كلم يكلم وذلك تفسير الحكاية أي يفسد على القائلين بالحكاية الذين يعتقدون أن مخلوقا ما حكى كلامه تعالى أى أن اللّه خلق الكلام فى الشئ فتكلم وحكى ما خلقه اللّه فيه .

والإمام يرد على القائلين بذلك ويفسد عليه مقالهم بأن الآية أكدت ان المتكلم هو اللّه تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ لأن التوكيد يرفع التجوز والإحتمال فلا تبقى إلا الحقيقة (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٤٧

(٢) الطبقات صـ ٢٩٦ جـ ٢

(٣) النساء : ١٦٤

(٤) الطبقات الموضع السابق ملخصا .

وهى أن اللّه تعالى متكلم حقيقة وكلامه ليس حكاية ولا عبارة ولا مخلوقا والقول بخلاف ذلك من البدع المحدثة .

ولما كان القرآن كلام اللّه فهو أيضا غير مخلوق وليس حكاية ولا عبارة بل هو كلام اللّه تعالى الذى قال فيه : ﴿ وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه ﴾ فالمسموع كلام اللّه .

وقال سبحانه : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ فأخبر تعالى أن الخلق غير الأمر أى أن القرآن هو من أمر اللّه لا من خلقه فهو غير مخلوق . لأن اللّه يقول : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فأخبر أن القرآن من علمه وأن الإنسان من خلقه وعلم اللّه غير مخلوق والقرآن علم اللّه فهو غير مخلوق [١] .

ومن هنا يمكن إن يقال إن عقيدة الإمام ابن حنبل فى القرآن أنه غير مخلوق وقد نطق بذلك صراحة وضمنا وفهم مما أثر عنه بما لا يحتمل الشك والتردد فالمفهوم من كل ما ورد عنه ومما تدل عليه تلك المحنة التى كانت بسبب القول بخلق القرآن . إذ لو كان قائلا بخلق القرآن لما كانت هناك محنة ولما كان هناك اشكال ، بل إنه عارض القائلين بخلق القرآن تحت الترهيب والترغيب بما لا يحتمل الشك والتردد .

وأيضا تفرقته الواضحة بين الخلق والأمر حيث يبين أن القرآن أمر اللّه وفى موضع آخر بين أن القرآن من علم اللّه واستدل بقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ وعلم اللّه غير مخلوق فالقرآن الذى هو من علم اللّه غير مخلوق .

وكذلك صرح الإمام ابن حنبل صراحة واضحة لا لبس فيها وثابتة بأسانيد صحيحة لا طعن فيها كما جاء فى تاريخ الذهبى [٢] .

وكما جاء فى الحلية [٣] وكما جاء فى المناقب [٤] فى رسالة الإمام ابن حنبل

---

(١) الطبقات صـ ٢٩٦ وما بعدها جـ ٢

(٢) هو شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد التركمانى الحافظ المعروف بالذهبى ولد سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم صـ ٢١٦ وما بعدها جـ ٩

(٤) المناقب لابن الجوزى صـ ٣٧٧

إلى المتوكل وهذه بعض النصوص التى جاءت فيها عن عبد الله بن أحمد [1] يقول : (كتب عبيد الله بن يحى إلى أبى يقول له ان أمير المؤمنين أمرنى أن أكتب إليك أسألك عن أمر القرآن لا مسألة إمتحان ولكن معرفة وتبصرة . فأملى على أبى رحمة الله إلى عبيد الله بن يحى :

« بسم الله الرحمن الرحيم » أحسن الله عاقبتك أبا الحسن فى الأمور كلها ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته وقد كتبت إليك رضى اللهُ عنك بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن ... إلى أن قال : قال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم * وما بعضهم يتابع قبلة بعض * ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن إتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق ﴾ .

فالقرآن من علم الله .. ثم يقول : وفى هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه هو القرآن لقوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ﴾ . ولقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق وهو الذى أذهب إليه .

ثم يقول :(لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شئ من هذا إلا ما كان من كتاب الله) أو فى حديث عن النبى ﷺ أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود) .

وقد قال الذهبى بعد نقل الرسالة : قلت رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة إثبات أشهد بالله أنه أملاها على ولده وأما غيرها من الرسائل المنسوبة إليه ففيها نظر [2].

يقول الشيخ أبو زهرة [3] : هذه رسالة صحيحة السند ثابتة النسبة وقد

(١) هو ابن الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) المناقب لابن الجوزى صـ ٣٧٧

(٣) أحمد بن حنبل لأبى زهرة صـ ١٥٧

أمليت بعد ذهاب المحنة وأحمد فى شيخوخته أى وهو فى كمال إستوائه العلمى فهى تدل على رأيه الذى إستقر عليه .

ويفهم من كلام الشيخ « أبو زهرة » أنه رويت روايات أخرى عن الإمام وهذه الرواية هى التى إستقر رأيه عليها يعنى قوله بأن القرآن غير مخلوق .ويتفق الشيخ أبو زهرة مع الإمام الذهبى فى ذلك لأن الذهبى أيضا يقول : (وأما غيرها من الرسائل المنسوبة إليه ففيها نظر فمعنى ذلك أن هناك رسائل ونقولا أخرى عن الإمام ابن حنبل تختلف عن تلك الرسالة التى يصرح الإمام فيها بأن القرآن غير مخلوق ولكن هناك فرق بين مقالة الإمام الذهبى والشيخ أبى زهرة حيث أن الذهبى جعل إحتمال الإختلاف فى الرسائل المنسوبة إلى الإمام أبن حنبل نفسها لا إلى الإمام نفسه أى قد يكون الناقلون أخطأوا أو وضعوا على الإمام ما لم يقل .

أما الشيخ أبو زهرة فقد يفهم من كلامه أن الإمام نفسه قد اختلفت أقواله وأن هذا هو رأيه الأخير الذى إستقر عليه حين بلغت به شيخوخته .

ومع إحترامنا للشيخ أبى زهرة وقد يكون له بعض العذر حين يلقى التبعة على الناقلين . لكنه وهو العالم المحقق فينبغى أن يرجح ما ثبت ومن المعلوم أن الثابت عن الإمام ابن حنبل أنه يقول القرآن كلام الله غير مخلوق وهذه عقيدته قبل المحنة وبعدها وفى الشيخوخة أو قبلها . فالمعروف أنه كان يقف عند النص والأثر لا يتعدى ذلك . وكثيرا ما كان ينصح غيره بقوله : (والإنتهاء إلى ما فى كتاب الله لا تتعدى ذلك) (١) وكثيرا ما كان يقول لدعاة المحنة آتونى بآية من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ (٢) .

فإن نقل عنه روايات أخرى فهى كما قال الذهبى محلّ نظر .

فالرواية التى تقول إن الإمام ابن حنبل كان متوقفا يرى الخوض فى هذا الأمر بدعة ردها ابن قتيبة عنه (٣) .

---

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر (المقدمة) .

(٢) أنظر محنة الإمام ابن حنبل لأبى عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل وجلاء العينين للألوسى.

(٣) إختلاف اللفظ صـ ٥٩

وليس هناك شك فى أن هذه الرواية لا تحمل معها دليل إنتسابها إلى الإمام ابن حنبل بل هى مردودة بما ثبت من تصريحه فى الروايات الأخرى وبما يثبت من عيبه على الساكتين واعتبر موقفهم شنيعا حيث يقول فيهم [1] : « ولم أر فى هذه الفرق أقل عذرا ممن أمر بالسكوت والتجاهل بعد هذه الفتنة ثم يقول وليس فى غرائز الناس إحتمال الإمساك عن أمر فى الدين قد أنتشر هذا لإنتشاروظهر هذا الظهور [2] .

ولا يليق بمثل الإمام ابن حنبل أن يسكت عن الحق وهو يعلم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ولم يكن مذهبه أن يداهن ويتقى ويكتم الحق فى قلبه . وهو القائل « إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق » ؟!!

فخلاصة القول فى مذهب الإمام ابن حنبل فى الكلام أن كلام اللّٰه غير مخلوق ويضيف الإمام إلى عقيدته فى الكلام بجانب ما تقدم أن كلام اللّٰه بصوت . قال عبد اللّٰه بن أحمد فى كتاب الرد على الجهمية [3] . سألت أبى عن قوم يقولون لما كلم اللّٰه موسى لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبى : بلى تكلم جل ثناؤه بصوت . هذه الأحاديث نرويها كما جاءت .

ثم ساق حديثا عن المحاربى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد اللّٰه قال : إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء فيخرون سجدا [4] .

لكن الإمام ابن حنبل يلتزم بما يلتزم به من التنزيه مع الإثبات فيبين أن كلام اللّٰه ليس مثل كلام المخلوقين والصوت ليس مثل الصوت .

فاللّٰه تعالى قادر على الكلام كيف شاء دون أن يشبهه فى ذلك خلقه .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الرد على الجهمية والزنادقة صـ ٧٧
(٤) المسند تحقيق أحمد شاكر صـ ٨٠ جـ ١

ولذا نراه يرد على المنكرين لكلام الله من الجهمية الذين لا يتصورون الكلام بلا جوف ولا لسان ولا شفتين (١) .

ويزعمون أن الله كون شيئا فعبر عن الله وخلق صوتا فأسمع .

يرد عليهم فيقول : هل يجوز لالمكون (٢) أو (يجوز) (٣) لغير الله (كائنا ما كان) أن يقول : ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾ (٤) أو يقول : ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (٥) فمن زعم ذلك فقد زعم أن غير الله إدعى الربوبية كما زعم الجهم أن الله كوَّن شيئا كان يقول ذلك المكون ﴿ يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ (٦) وقد قال جل شأنه : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ (٨) .

﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ (٩) .

ثم يقول (١٠) : فهذا منصوص القرآن . فأما ما قالوا : إن الله لا يتكلم فكيف يصنعون بحديث الأعمش (١١) .

عن خيثمة عن عدى بن حاتم الطائى قال قال رسول الله ﷺ : « ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ما بينه وبينه ترجمان » .

---

(١) الرد على الجهمية لابن حنبل صـ ٧٧ وما بعدها .

(٢) فى الأصل لمكون .

(٣) ما بين القوسين من غير القرآن عن الأصل للتوضيح .

(٤) طه : ١٤ (٥) طه : ١٥

(٦) القصص : ٣٠ (٧) النساء : ١٦٤

(٨) الاعراف : ١٣٤ (٩) الاعراف ; ١٤٤

(١٠) الرد على الجهمية صـ ١٣١

(١١) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدى من أهل الحديث بالكوفة توفى سنة ١٤٨ هـ .

ثم يقول وأما قولهم إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان فهو مردود [1] .

اليس اللّه قال للسموات والأرض : ﴿ ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ . أتراها قالت بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات وقال تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ .

أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين ؟ والجوارح إذا شهدت على الكفار فقالوا : (لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّه الذى أنطق كل شئ) .

أتراها نطقت بجوف وفم ولسان ؟ أم أن اللّه أنطقها كيف شاء . وكذلك اللّه تكلم كيف شاء من غير أن يقول بجوف ولا فم ولا شفتين ولا لسان [2] .

ثم يستدل الإمام ابن حنبل فى نفس الموضع بحديث الزهرى قال : (لما سمع موسى كلام ربه قال يارب هذا الذى سمعته هو كلامك قال نعم يا موسى هو كلامى إنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من ذلك لمت ﴾ .

ثم يرد على المنكرين مرة أخرى فيقول :

(من القائل يوم القيامة : ﴿ يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى الهين من دون اللّه ﴾ [3] أليس اللّه هو القائل ؟ ثم يقول أعظمتم على اللّه الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم .

فشبهتموه بالأصنام لأن الأصنام لا تتكلم .

ثم يختم الإمام ابن حنبل رده على المنكرين والقائلين بأن كلام اللّه مخلوق ويدحض شبهتهم فى تعدد القدماء بأن اللّه تعالى بجميع صفاته إله واحد وليست الصفات ذوات

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة نفس الموضع .

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة وأنظر محنة ابن حنبل جمع أبى عبد اللّه حنبل بن إسحاق تحقيق د . محمد نغش .

(٣) المائدة : ١١٦

فإن جاز أن المخلوق يسمى واحدا على ما فيه من الصفات كما قال الله تعالى في حق الوليد بن المغيرة (ذرني ومن خلقت وحيدا) فسماه وحيدا على الرغم مما له من الصفات فلله المثل الأعلى هو بجميع صفاته إله واحد [١] .

تلك هي عقيدة الإمام أحمد في صفة الكلام ، ولما كان القرآن هو كلام الله تعالى وقد أعرب الإمام ابن حنبل عن عقيدته في ذلك حتى كانت محنته بسببها . يقول فضيلة الدكتور موسى شاهين [٢] . في تعليقه على محنة إمام أهل السنة : إذا كان الفرار مرخصا فيه أمام العدو الذي لا يقدر عليه فإن الإستبسال وبيع النفس هو المثل الأعلى حين تقل المثل أو تنعدم [٣] .

ولأهمية هذه المحنة في عقيدة الإمام ابن حنبل ، كان من الجدير ذكر خلاصتها كما ذكرها الثقات من أمثال ابن كثير والطبري وابن الجوزي والألوسي والذهبي وغيرهم [٤] .

* * *

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة لابن حنبل مختصرا .

(٢) عميد كلية أصول الدين ورئيس قسم السنة – في تصديره لكتاب محنة الإمام ابن حنبل لأبي عبد الله حنبل ابن إسحاق . تحقيق الدكتور محمد نغش .

(٣) محنة الإمام ابن حنبل لأبي عبد الله بن إسحاق تحقيق الدكتور محمد نغش : تصدير الدكتور / موسى شاهين لا شين .

(٤) وأنظر محنة الإمام ابن حنبل لأبي عبد الله حنبل بن إسحاق ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ص ١٦١ وما بعدها جـ ٩ ، وطبقات الشافعية للسبكي ص ١٩٩ وما بعدها جـ ١ ، وتاريخ بغداد للبغدادي ص ٤١٢ وما بعدها جـ ٤ والنجوم الزاهرة لابن تغرى ص ٢١٨ وما بعدها جـ ٢ ، وتاريخ الطبري ص ٢٨٤ وما بعدها جـ ١٠ ، وتهذيب الأسماء للنووي ص ١١٠ وما بعدها جـ ١ ،وطبقات الحفاظ للذهبي ص ١٧ وما بعدها جـ ٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ص ٤٨ وما بعدها جـ ١ وغيرها .

خلاصة المحنة

« لقد امتحن الإمام ابن حنبل فى مسألة خلق القرآن وضرب وحبس ، فصبر علي ذلك حتى أنار الله تعالى به السنة ،وخذل به أهل البدعة .

وحكى أن الشافعي – رحمه الله تعالى – لما حضر إلى مصر رأى فى المنام سيد المرسلين ﷺ وهو يقول له : بشر أحمد بن حنبل بالجنة على بلوى تصيبه ، فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلى ذلك ، بل يقول : هو منزل غير مخلوق . فلما أصبح الشافعي رضى الله عنه كتب صورة ما رآه فى منامه ، وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى الإمام أحمد رحمة الله تعالى ، فلما وصل بغداد قصد منزل أحمد واستأذن عليه فاذن له ، فلما دخل عليه قال له : هذا كتاب أخيك الشافعى ، فقال له : هل تعلم ما فيه ؟ قال : لا ، ففتحه وقرأه وبكى وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ثم أخبره بما فيه فقال : الجائزة ؟ وكان عليه قميصان أحدهما على جسده والآخر فوقه فنزع الذى على جسده ودفعه إليه فأخذه ورجع إلى الشافعى [1] .

وقال ابن الجوزى رحمه الله فى الباب السادس والستين ما ملخصه :

إنه لم يزل الناس على قانون السلف وقولهم : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى نبت المعتزلة فقالت بخلق القرآن ، وكانت تستر ذلك . وكان القانون محفوظا فى زمن هارون الرشيد كما قال محمد بن نوح : سمعت هارون أمير المؤمنين يقول : بلغنى أن بشر المريسى زعم أن القرآن مخلوق ؟ على إن أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط . قال أحمد : فكان بشر متواريا فى أيامه

---

(١) أنظر حلية الأولياء لأبى نعيم ص ١٦١ وطبقات الشافعية للسبكى ص ١٩٩ جـ ١ هذه القصة مذكورة فى كثير من المصادر والله أعلم بصحتها أنظر المراجع فى الصفحة السابعة وما بعدها هامش (٣) .

نحوا من عشرين سنة حتى مات هارون ، فظهر ودعا إلى الضلالة . ولما ولى المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن ، وكان يتردد فى حمل الناس على ذلك ويراقب الأشياخ . ثم قوى عزمه فحمل الناس عليه حتى سافر المأمون إلى بلاد الروم فكتب وهو بالرقة إلى إسحق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد بإمتحانهم . قال صالح بن الإمام أحمد : ثم إمتحن القوم جميعا غير أربعة : أبى ومحمد بن نوح وعبد الله بن عمر القواريرى والحسن بن حماد سجادة ، ثم أجاب عبد الله بن عمروالحسن بن حماد ، وبقى أبى ومحمد بن نوح فى الحبس فمكثا أياما فى الحبس ، ثم وزد الكتاب من طرطوس بحملهما فحملا مقيدين زملين فصرنا معهما إلى الأنبار . فسأل أبو بكر الأحول أبى فقال : يا أبا عبد الله ، إن عرضت على السيف تجيب ؟ قال : لا . ولما رحلنا من الرحبة عرض لنا رجل فى جوف الليل فقال : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : هذا . فقال للجمال : على رسلك : ثم قال : يا هذا ، ما عليك ان تقتل ها هنا وتدخل الجنة ها هنا ثم قال : استودعك الله تعالى ومضى . فسئل عنه فقيل : هو رجل من ربيعة يقال له جابر بن عامر يذكر بخير . وقال أحمد : ما سمعت كلمة منذ وقعت فى الأمر الذى وقعت فيه أقوى من كلمة أعرابى كلمنى بها فى رحبة طوق .

قال : يا أحمد إن يقتلك الحقُ متَّ شهيدا ، وإن عشت عشت حميدا قال : فقوى قلبى قال ابن أبى حاتم : فكان كما قال ، لقد رفع الله عَزَّ و جَلَّ شأن أحمد بن حنيل بعد ما امتحن وعظم عند الناس ، وارتفع أمره جدا .

قال صالح قال أبى : لما صرنا إلى أدنه (١) ورحلنا منها وذلك فى جوف الليل وفتح لنا بابها . فإذا رجل قد دخل فقال : البشرى ؟ قد مات الرجل : قال أبى: وكنت أدعو الله عَزَّ و جَلّ ألا أراه ، فبويع المعتصم بالروم ورجع فرد أحمد إلى بغداد فى سنة ثمانى عشرة ومائتين . فمات محمد بن نوح فى

---

(١) أسم بلدة قريبة من طرطوس .

الطريق ودفن كما قيل بعانة ، وصلى عليه الإمام أحمد ، ورد مقيدا فمكث باليا سرية أياما ، ثم رد إلى الحبس فى دار اكتريت له ، ثم نقل إلى حبس العامة فى درب الموصلى فامتحنه المعتصم بخلق القرآن . وكان أحمد بن أبى داود على قضاء القضاة ، قال أحمد : لما كان فى شهر رمضان تسع عشرة ومئتين حولت إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، فوجه إلى فى كل يوم برجلين أحدهما يقال له أحمد ابن رباح ، والآخرر أبو شعيث ، فلا يزالان - يناظراننى حتى إذا أرادا الإنصراف دعى بقيد فزيد فى قيودى . فصار فى رجلى أربعة أقياد . فلما كان اليوم الثالث دخل على أحد الرجلين فناظرنى فقلت له : ما تقول فى علم الله ؟ قال علم الله مخلوق ، فقلت له : كفرت ! فلما كان فى الليلة الرابعة وجه المعتصم إلى إسحاق فأمره بحملى إليه فأدخلت إلى إحق فقال : يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، انه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس أليس قد قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ أفيكون المجعول إلا مخلوقا ؟ فقلت له : قد قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أفخلقهم ؟ فسكت . ثم قال إذهبوا به . قال أحمد : فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أخرجت وجئ بدابة فحملت عليها وعلى الأقياد ما معى أحد يمسكنى ، فكدت غير مرة أخر على وجهى لثقل القيود ، فجئ بى إلى دار المعتصم فأدخلت حجرة ، وأدخلت إلى بيت وأقفل الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فأردت أن أتمسح للصلاة فمددت يدى فإذا أنا بإناء فيه ماء وطشت موضوع فتوضأت للصلاة وصليت ، فلما كان الغد أخرجت تكتى من سراويلى وشددت بها الأقياد أحملها وعطفت سراويلى ، فجاء رسول المعتصم فقال : أجب . فأخذ بيدى وأدخلنى عليه والتكة بيدى أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالس وأبن أبى داود حاضر ، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه ومعهم أبو عبد الرحمن الشافعى قال إبراهيم بن محمد بن الحسن : فأجلس بين يدى وكانوا هولوا عليه ، وقد كانوا ضربوا عنق رجلين ، فنظر أحمد إلى أبى عبد الرحمن الشافعى فقال :

أى شئ تحفظ عن الشافعى فى المسح ؟ فقال : ابن أبى داود : أنظروا رجلا هو ذا يقوم لضرب العنق يناظر فى الفقه ؟! قال صالح قال أبى : لما دخلت إليه قال لى - يعنى المعتصم - : أدنه أدنه ، فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ، ثم قال : إجلس فجلست ، وقد أثقلتنى الأقياد ، فمكثت قليلا ثم قلت : تأذن فى الكلام؟ فقال : تكلم ، فقلت : الام دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنيهة . ثم قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله . فقلت : أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قلت : إن جدك ابن عباس لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان فقال : « أتدرون ما قال الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإن تعطوا الخمس من المغنم قال أبى فقال : لولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك . ثم قال : يا عبد الرحمن بن إسحاق : ألم أمرك أن ترفع المحنة ؟ فقال أبى : فقلت : الله أكبر ، إن فى هذا لفرجا للمسلمين . ثم قال لهم : ناظروه وكلموه . ثم قال : يا عبد الرحمن كلمه . فقال لى عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟ فقلت له : ما تقول فى علم الله تعالى فسكت . فقال لى بعضهم : أليس قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ خالق كل شئ ﴾ والقرآن أليس هو شيئا ؟ قال أبى : فقلت قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ تدمر كل شئ بأمر ربها ﴾ فدمرت إلا ما أراد الله عَزَّ وجَلَّ - وقال بعضهم : قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أفيكون المحدث إلا مخلوقا قال أبى : فقلت له قال الله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾ والذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولام؟ قال أبى : وذكر بعضهم حديث عمران بن حصين : أن الله عَزَّ وجَلَّ خلق الذكر ؟ فقلت : هذا خطأ ، حدثنا غير واحد أن الله عَزَّ و جَلَّ كتب الذكر . وإحتجوا على بحديث ابن مسعود : « ما خلق الله عَزَّ و جَلَّ من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى ، قال أبى : فقلت إنما يوقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ، ولم يقع الخلق على القرآن . قال : فقال بعضهم حديث خباب : « يا هنتاه تقرب إلى الله تعالى بما إستطعت ، فإنك لم تتقرب إليه بشئ أحب

إليه من كلامه » . قال : هذا كذا هو ، فجعل ابن داود ينظر إليه كالمغضب . قال : وكان يتكلم هذا فأرد عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه . فإذا إنقطع الرجل منهم إعترض ابن أبى داود فيقول : يا أمير المؤمنين ، هوواللّه ضال مضل مبتدع (قال أبى : فيقول : كلموه وناظروه فيكلمنى هذا فأرد عليه .ويكلمنى هذا فأرد عليه .

فإذا إنقطعوا يقول لى - يعنى المعتصم - : ويحك يا أحمد ؟ ما تقول فأقول: يا أمير المؤمنين . (أعطونى شيئا من كتاب اللّه عَزَّ و جَلَّ أو سنة رسوله ﷺ حتى أقول به) . وحكى محمد بن إبراهيم أن ابن أبى داود أقبل على أحمد يكلمه . فلم يلتفت إليه أحمد حتى قال المعتصم لأحمد : ألا تكلم أبا عبد اللّه ؟ فقال أحمد : لست أعرفه من أهل العلم فأكلمه .

وقال صالح : جعل بن أبى داود يقول : يا أمير المؤمنين ، واللّه لئن أجابك لهو أحب لى من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار . فيعدد من ذلك ما شاء اللّه تعالى . قال : فقال المعتصم : واللّه لئن أجابنى لا طلقن عنه بيدى ، ولا ركبن إليه بجندى ، ولأطأن عتبته (ثم قال : يا أحمد ، واللّه إنى عليك لشفيق ، وإنى لأشفقن عليك كشفقتى على هارون ابنى ، ما تقول ؟! فأقول : أعطونى شيئا من كتاب اللّه عَزَّ و جَلَّ أو سنة رسوله ﷺ .

فلما طال المجلس ضجر وقال : قوموا وحبسنى وعبد الرحمن بن إسحاق يكلمنى وقال : ويحك أجبنى ؟ وقال لى : ما أعرفك ، ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين أعرفه من ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والحج والجهاد معكم ، قال فيقول : واللّه إنه لعالم ، وإنه لفقيه ، وما يسوءنى أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الملل . ثم قال لى : ما كنت تعرف صالحا الرشيدى ؟ قال سمعت بأسمه . قال : كان مؤدبى ، وكان فى ذلك الموضع جالسا وأشار إلى ناحية من الدار، فسألته عن القرآن فخالفنى، فأمرت به فوطئ وسحب : يا أحمد ، أجبنى إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى اطلق عنك بيدى ، قلت : أعطونى شيئا من كتاب اللّه عَزَّ و جَلَّ أو سنة رسوله ، فطال المجلس فقام ودخل، ورددت إلى الموضع الذى كنت فيه ، فلما كان بعد المغرب وجه إلى

برجلين من أصحاب ابن أبى داود يبيتان عندى ، ويناظراننى ويقيمان معى ، حتى إذا كان وقت الإفطار جئ بالطعام ، ويجتهدان بى أن أفطر فلا أفعل . قال أبى : ووجه إلى - يعنى المعتصم - أبن أبى داود فى بعض الليل فقال : ان أمير المؤمنين يقول : ما تقول ؟ فأرد عليه مثل ما كنت أرد . فقال ابن أبى داود: واللّه لقد كتب اسمك فى السبعة : يحى بن معين وغيره فمحوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك . ثم يقول : إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وإن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس ، ويقول : إن أجابنى جئت إليه حتى أطلق عنه بيدى ، ثم انصرف .

فلما أصبح - وذلك اليوم الثانى - جاء رسوله وأخذ بيدى حتى ذهب بى إليه، فقال لهم : ناظروه وكلموه . فجعلوا يناظروننى ويتكلم هذا من ههنا فأرد عليه ، ويتكلم هذا من ههنا فأرد عليه ، فإذا جاؤا بشئ من الكلام مما ليس فى كتاب اللّه عَزَّ جَلَّ ولا سنة رسوله ﷺ ، ولا فيه خبر قلت : ما أدرى ما هذا ، قال: يقولون يا أمير المؤمنين : إذا توجهت له الحجة علينا ثبت ، وإذا كلمناه بشئ يقول لا أدرى ما هذا . فقال : ناظروه ، فقال رجل : يا أحمد ، أراك تذكر الحديث وتنتحله ؟ قلت : ما تقول فى ﴿ يوصيكم اللّه فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فقال : خص اللّه عَزَّ وجَلَّ بها المؤمنين . فقلت : ما تقول إن كان قاتلا أو عبدا أو يهوديا ؟ قال : فسكت . وإنما احتججت عليهم بهذا ، لأنهم كانوا يحتجون بظاهرالقرآن ، وحيث قال لى : أراك تنتحل الحديث ، فلم يزالوا كذلك إلى أن قرب الزوال ، فلما ضجر قال لهم : قوموا ، وخلا بى وبعبد الرحمن ابن إسحاق فلم يزل يكلمنى . ثم قام فدخل ورددت إلى الموضع ، فلما كان الليل نام من كان معى من أصحابى وأنا متفكر فى أمرى ، فإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس حتى دنا منى فقال : أنت أحمد بن حنبل : فسكت . فقالها ثانية فسكت . فقالها ثالثة : أنت أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل ؟ قلت : نعم ، قال : اصبر ولك الجنة . ولما مسنى حر السوط ذكرت قول ذلك الرجل . قال أحمد : فلما كانت الليلة الثالثة قلت : خليق أن يحدث غدا من أمرى شئ فقلت لبعض

من كان معى الموكل بى : أطلب لى خيطا ، فجاءنى بخيط فشددت به الأقياد ورددت التكة إلى سراويلى مخافة أن يحدث من أمرى شئ فأتعرى ، فلما كان من الغد فى اليوم الثالث وجه إلى فأدخلت فإذا الدار غاصة فجعلت أدخل من موضع إلى موضع وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط وغير ذلك ، ولم يكن فى اليومين الماضيين كثير أحد من هؤلاء فلما إنتهيت إليه قال : أقعد ، ثم قال : ناظروه وكلموه ، فجعلوا يناظروننى ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعل صوتى يعلو أصواتهم ، فجعل بعض من على رأسى قائم يومئ إلى بيده . فلما طال المجلس نحانى ، ثم خلابهم ثم نحاهم وردنى إليه وقال : ويحك يا أحمد ! أجبنى حتى أطلق عنك بيدى ، فرددت عليه نحوا مما كنت أرد ، فقال لى : عليك - وذكر اللعن . ثم قال خذوه واسحبوه واخلعوه ، فسحبت ثم خلعت . وكان صار إلىّ شعر من شعر النبى ﷺ فصررته فى كم قميص ، فوجه إلى إسحاق بن إبراهيم : ما هذا مصروراً فى كم قميصك ؟ فقلت : شعر من شعر النبى ﷺ . قال : وسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه على فقال لهم المعتصم : لا تخرقوه ، فنزع القميص عنى فظننت أنه إنما درئ عن القميص الخرق بسبب الشعر الذى كان فيه . وجلس المعتصم على كرسى ثم قال : العقابين والسياط ، فجئ بالعقابين والسياط ، فمدت يداى فقال بعض من حضر خلفى : خذ ثانى الخشبتين بيدك وشد عليهما . فلم أفهم ما قال ، فتخلعت يداى .

قال محمد بن إبراهيم : ذكروا أن المعتصم لان فى أمر أحمد لما علق فى العقابين ورأى ثبوته وتصميمه وصلابته فى أمره حتى تحراه ابن أبى داود وقال له : إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله ، فهاجه ذلك على ضربه . قال أحمد : ثم قال للجلادين تقدموا ، فجعل يتقدم إلى الرجل منهم فيضربوننى سوطين فيقول له المعتصم : شد قطع الله يدك . ثم ينتحى ، ثم يتقدم الآخر فيضربنى سوطين وهو فى ذلك يقول : شدوا قطع الله أيديكم فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام إلى فقال : يا أحمد ، علام تقتل نفسك ، إنى والله عليك شفيق ! وجعل عجيف ينخسنى بقائمة سيفه وقال : تريد أن تغلب

هؤلاء كلهم . وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفة على رأسك قائم . وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، ودمه فى عنقى أقتله . وجعلوا يقولون : يا أمير المؤمنين أنت صائم ، وأنت فى الشمس قائم . فقال لى : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ فأقول : أعطونى شيئا من كتاب اللّه عَزَّ و جَلَّ وسنة رسوله ﷺ أقول به ثم رجع فجلس ثم قال للجلاد : تقدم ، أوجع ، قطع اللّه يدك . ثم قام الثانية فجعل يقول : ويحك يا أحمد أجبنى . فجعلوا يقبلون على ويقولون : ويلك يا أحمد ، إمامك على رأسك قائم ، وجعل عبد الرحمن يقول : من صنع من أصحابك فى هذا الأمر ما تصنع ؟

وجعل المعتصم يقول : ويحك ، أجبنى إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدى . فقلت : يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب اللّه أو سنة رسوله حتى أقول به . فرجع وجلس فقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ، ويتنحى ، وهو فى خلال ذلك يقول : شد قطع اللّه يدك . قال أحمد : فذهب عقلى ، فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أطلقت عنى . فقال لى رجل ممن حضر : إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك ، قال أحمد : فما شعرت بذلك . وأتونى بسويق فقالوا إلى : أشرب وتقيأ . فقلت لست أفطر . ثم جئ بى إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلى ، فلما انفتل من الصلاة قال لى : صليت والدم يسيل فى ثوبك ؟ فقلت ؟ قد صلى عمر وجرحه يثغب دما .

قال أبو الفضل : ثم خلى عنه فصار إلى منزله ، فمكث فى السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهرا .

وقال إبراهيم بن مصعب الشرطى : ما رأيت أحدا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبا من أحمد يومئذ ، ما نحن فى عينه إلا كأمثال الذباب . وأخبر أبو العباس الرقى : أنهم دخلوا على أحمد لما كان فى الرقة ، وهو محبوس فجعلوا يذاكرونه ما يروى فى التقية من الأحاديث ، فقال : كيف

تصنعون بحديث خباب « إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه » . قال فيئسنا منه . وقال له المرودى لما أرادوا أن يقدموه للضرب : يا أستاذ ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ فقال: يا مرودى ، أخرج أنظر أى شئ ترى ؟ قال : فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله عَزَّ و جَلَّ ، والصحف فى أيديهم ، والأقلام والمحابر فى أذرعتهم . فقال لهم المرودى : أى شئ تعملون ؟ فقالوا : ننظر ما يقول أحمد فنكتبه . فقال المرودى : مكانكم فدخل إلى أحمد وقال له : رأيت قوما بأيديهم الصحف والأقلام ، ينتظرون ما تقول فيكتبونه . فقال : يا مرودى أضل هؤلاء كلهم أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم . قلت هذا رجل هانت عليه نفسه فى الله عَزَّ و جَلَّ فبذلها . وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام إنه قال : « يبتلى الرجل على حسب دينه » ، فسبحان من أيده وبصره وقواه ونصره .

وقال ميمون بن الأصبغ : كنت ببغداد فسمعت ضجة فقلت : ما هذا فقالوا : أحمد بن حنبل يمتحن . فأتيت منزلى فأخذت مالا له حظ فذهبت به إلى من يدخلنى إلى المجلس ، فأدخلونى فإذا بالسيوف قد جردت ، وبالرماح قد ركزت، وبالتراس قد نصبت ، والسياط قد طرحت ، فألبسونى قباء أسود ومنطقة وسيفا ، ووقفونى حيث أسمع الكلام ، فأتى أمير المؤمنين وجلس على كرسى ،وأتى بأحمد بن حنبل فقال له لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ، ثم التفت إلى جلاد فقال : خذه إليك فلما ضرب سوطا قال : باسم الله ، فلما ضرب الثانى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع قال : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، فضرب تسعة وعشرين سوطا. وكان تكة أحمد حاشية ثوب فانقطعت فنزلت السروايل إلى عانته ، فقلت : الساعة ينتهك ، فرمى أحمد طرفه نحو السماء وحرك شفتيه ، فما كان بأسرع ما بقى السراويل لم ينزل .

قال ميمون : ورحلت إليه بعد سبعة أيام فقلت : يا أبا عبد الله ، رأيتك يوم ضربوك قد أنحل سروالك فرفعت طرفك نحو السماء ، ورأيتك تحرك شفتيك فأى شئ قلت ؟ قالت قلت : اللهم إنى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش إن كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى سترا !!

تلك هى عقيدة الإمام ابن حنبل فى صفة من صفات الله هى صفة الكلام وقوله فيها القرآن كلام الله غير مخلوق ولما دعى إلى أن يقول هو مخلوق أبى تمسكا بمبدئه فى إحترام ما جاء عن الله وما ثبت عن رسوله الله ﷺ وكثيرا ما ردد لسانه تحت السياط آتونى بشئ من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به ولم يزد عليها تحت التهديدات والوعيد .

تلك كانت عقيدته فى صفة الكلام بل هى عقيدته فى سائر الصفات . الالتزام بالنصوص واحترامها واعمالها دون اهمالها .

* * *

الخلاصة

وهكذا تتضح معالم عقيدة الإمام ابن حنبل فى الأسماء والصفات وهى بإختصار :

١ - الإيمان بما ثبت من النصوص فيها ويؤمن بمعناها كما جاءت دون زيادة حرف أو نقصانه ويرجئ كيفها وحقيقتها إلى الله تعالى لأن الكيف والحقيقة من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله تعالى وليس للعقل مجال فى بحثها والخوض فيها لأن العقول قاصرة عن إدراك كنه تلك الصفات وحقيقتها والكتاب والسنة هما دليله فى هذا الموضوع غير متجاوز لهما ولا مؤول .

٢ - الإيمان بتنزيه الله تعالى من أن تشبه صفاته صفات المخلوقين .

٣ - الضابط للإثبات والتنزيه قوله تعالى :

﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ .

* * *

الفصل الثالث
منهج الإمام ابن حنبل

بالتتبع لما وردعن عقيدة الإمام ابن حنبل يمكن إستخلاص المنهج والطريقة التى سلكها فى مجمل إعتقاده .

وقد كان مما عرف عن الإمام أنه يتبع الآثار وأعنى بها النصوص الثابتة الواردة من كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وأيضا من خلال شخصيته يمكن ان نستخلص منهجه :

فقد روى أبو نعيم فى كتابه حلية الأولياء عن أبى داود السجستانى قال رأيت ما ئتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل لم يكن يخوض فى شئ مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا فإذا ذكر العلم تكلم . هذه هى شخصيته نرقب منها العزوف عن سفساف الأمور وحبه لمعاليها وإخلاصه للعلم جعله يطلبه جادا لا يلوى فى غيره على شئ وإذا طلبه أخذه من مصادره الصادقة وهو لا يرى أصدق ولا أثبت من كلام اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ هذين المنبعين الصافيين لا يقدم عليهما شيئا بل يقدمهما على كل شئ .

ومن هنا يمكن إستخلاص أول القواعد والأسس التى ينبنى عليها منهج الإمام ابن حنبل :

١ - الإعتماد على النصوص :

فالنصوص هى الأصل عنده والعقل لا يصح أن يتصرف إلا فى دائرتها لأنه محدود فى الإمكانية مثله مثل السمع والبصر فكما أن لكل منهما مجالا فلا ترى العين إلا فى حدود معينة ولا تسمع الأذن إلا فى حدود معينة كذلك العقل .

ولذا نرى الإمام ابن حنبل لم يخرج عن هذا التقعيد فلم يستند فى إثبات العقائد إلى عقل محض ، ولم يخرج عن نص من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ فكل ما أثبته الله ورسوله من أمور العقيدة أثبته وكل ما نفاه الله ورسوله نفاه وهو إذ يلتزم بالنصوص لا يعدوها ولا يؤولها ولا يفسرها بغير ظاهرها وإن إحتاج فهمها إلى الإستعانة بأمر من خارجها لا يتخذ من العقل المجرد معينا بل يستعين فى ذلك بالسنة فهى تفسر القرآن . وهو إذ يثبت ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ يثبته من غير تحريف ولا تشبيه ولا زيادة ولا نقصان [١] .

وميزانه الدقيق الذى يقيس به ويبنى عليه قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ .

فالنصوص عنده هى الأساس الذى يستند عليه فى أمور الغيب روى عنه ابن الجوزى بسنده [٢] . قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : قال لى أبى هذه الأحاديث - أى الواردة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته - نرويها كما جاءت . وقوله نرويها كما جاءت غاية فى الأمانة العلمية والعقدية فهو مؤمن بها معتقد لها فهو يرويها ويأمر غيره بأن يرويها كما جاءت لا يغير فيها ولا يبدل ولا ينفى منها ولا يعطل .

كذلك مما ورد عنه مؤكدا إحترامه للنص كعقيدة وتقديمه على العقل كمنهج وأنه مع إيمانه بالنص لا يقحم العقل لإستكناه حقيقته وكنهه والكنه والحقيقة من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله .

يقول محمد بن حميد الإندرنى قال أحمد بن حنبل :

(من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة ارجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله) [٣] .

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة لابن حنبل .

(٢) المناقب ص ١٥٥

(٣) المرجع السابق .

ومن هنا كان الإمام ابن حنبل من أصحاب النص لا من أهل الكلام . فالنص عنده قطعى ثبوته محمود عاقبته .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه قال : كتب أبى إلى عبد الله بن يحى ابن خاقان لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شئ من هذا إلا ماكان فى كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ أو عن أصحابه فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود (١) .

وهنا يبدو أساس منهجه فى الاعتماد على النصوص وحدها واضحا وجليا ويظهر من قوله فى المقطع السابق .. (ولا أرى الكلام فى شئ من هذا إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث أى فى كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وهذا ما كان يلهج به لسانه وينهج به قوامه فى الظروف القاسية حين يقول لممتحنيه فى المحنة آتونى بنص من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ .

كان يقول - مؤكدا لمنهجه فى إتباع الآثار الواردة - السنة عندنا هى آثار رسول الله ﷺ والتمسك بما كان عليه وأصحابه رضى الله عنهم والإقتداء بهم وترك البدع وترك المراء والجدال .

ومن هنا كان جديرا بأن يكون صاحب هذا المنهج أثريا لإتباعه الأثر وتمسكه بالسنة . حتى قيل عنه لشدة إتباعه للقرآن والسنة « كان » كأنه ظهر فى القرن الأول (٢) .

٢ - رفضه للتأويل :

قد يكون هذا المبدأ مبنيا على المبدأ السابق فالإحترام للنصوص وعدم مجاوزتها يمنع من الخوض فى التأويل خوفا من الخروج عن النص وفحواه فالنص إما كتاب احكمت آياته أو سنة لا تنطق عن الهوى .

---

(١) ترجمة الإمام أحمد للحافظ الذهبى منقوله من تاريخه فى مقدمة المسند ص ١٢٤ جـ ١

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران الدمشقى ص ٤ ط المنيرية بمصر .

ومن هنا منع الإمام ابن حنبل التأويل الذى يخرج النص عن ظاهره إلى معنى ليس مأمون العاقبة .

يقول الإمام أحمد مؤكدا أن النصوص هى طريق الأمان وأن التأويلات مجرد إحتمالات بعيدة عن الجزم والإطمئنان .

وعبارته فى ذلك « أن ندع كلام الله تعالى فى ذاته وصفاته والثابت من حديث رسول الله ﷺ فى ذلك ، أن ندعهما يمران إلى قلوبنا من غير تأويل ولا تعقيد لأنا لا ندرى إن أولنا - أكان تأويلنا موافقا لمراد الله تعالى فيما أنزل أم لا » ؟ .

ثم يقول : فالمؤول لا يستطيع أن يدعى الجزم بما أول واليقين هو الظاهر وهو الحقيقة دون المجاز (١) .

والمنهج عند الإمام حينئذ هو الإيمان بالنص ولا يطلب بأكثر من ذلك مما وراء النص من مراد الله فيه فإن الله تعالى لا يحيط أحد بمراده .فليرجئ عندئذ المراد والكيف إلى الله تعالى .

لكن بعد أن يثبت ما أثبت الله ورسوله ويعتقد أنه مؤمن بما يوافق مراد الله أما قبل أن يثبت ويؤمن فهو فى مذهب الإمام ابن حنبل تعطيل لكلام له دلالته اللفظية والمعنوية (٢) .

وإنما سلك الإمام أحمد ذلك المنهج ولم يجرؤ على ما جرؤ عليه غيره خوفا من الله تعالى فاستسلم لكل ما ورد واعتقده من غير تعطيل أو تأويل .

وما كانت شدته فى التمسك بالأثر وحمله ضد المبتدعين المؤولين إلا نتيجة لكثرة ما كان فى عصره من مجالات قد تستدعى العبث بكتاب الله وتغيير معالمه بالتأويل . ومهما تجتهد العقول فلن تصل إلى كنه ما ليس من شأنها .

---

(١) أحمد بن حنبل للدقر ص ١٢٢ (٢) المرجع السابق .

ومما يقال فى هذا المقام تعليلا لمنع التأويل أن اللّه تعالى صرح بكلام يجب أن نفهمه على وجهه إذ لو أراد المعنى المؤول لما أعجزه ذلك ومن الجرأة على اللّه أن نؤول كلمة أو تعبيرا .

ونحن لا نقطع بأنها هى المراد من كلامه تعالى أو كلام رسول اللّه ﷺ (١) .

ولقد نزل القرآن على رسوله وحفظه الصحابة وفهموه ولم يؤولوه .

بل أدركوا ظاهره لأنه بلسان عربى مبين ولأنه ميسر للذكر ..

فلو أن فى كلام اللّه تعالى ما ينبغى أن يعرف عن معناه الحقيقى لدل عليه رسول اللّه ﷺ ولرواه الصحابة رضوان اللّه عليهم ولتلقاه التابعون وتابعوهم .. ولكنهم جميعا لم يؤولوا . ويؤكد هذا ما أورده الإمام التميمى (٢) حين يقول وما أظن أحداً من أهل الأثر خالف فى هذا الأمر إلا من أراد اللّه به غير الرشد.

ومن هنا كان منهج الإمام ابن حنبل وهو إمام أهل الأثر كما هو إمام أهل السنة ، وكما أخبر دائما أن « السلامة فى الإتباع والهلكة فى الإبتداع » (٣) .

ولكن قبل أن نحكم للإمام ابن حنبل بهذا ينبغى مناقشة هذا المبدأ وتحقيقه عنده لنعرف هل إستقام هذا المبدأ كمنهج له ؟؟ أو بمعنى آخر هل قال الإمام ابن حنبل بالتأويل ؟ أم كان رافضا له على طول الخط ؟

هذا ما سيتضح بعد المناقشة والتحقيق إن شاء اللّه تعالى :

* * *

---

(١) إجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٠٠ .

(٢) إجتماع الجيوش ص ١٠٠ .

(٣) طبقات الحنابلة ص ٢٦٥ جـ ٢

المناقشة والتحليل

لمناقشة موقف الإمام ابن حنبل من التأويل فلا بد من تحقيق الروايات المنقولة عنه فى ذلك .

ومع البحث والدراسة إتضح أن الروايات المنقولة عن الإمام متعددة ومختلفة حيث إختلف أصحابه فى النقل عنه [1] . فمنهم من يقول أنه قد تأول « مجئ الله يوم القيامة » بأن الجائى أمره .

ذكر ذلك ابن الزاغونى من أصحاب أحمد ، ولكن هذه الرواية لم تخل من المعارضة ، فإن من أصحابه أيضا من قال إن الإمام ابن حنبل لم يتأول وما روى عنه فى ذلك فهو غلط عليه [2] .

ويرجع هذا الخلاف إلى ما نقله عنه حنبل فى رواية له أنه تأول الحديث (إقرءوا البقرة وآل عمران فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غيابتان أو غيامتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة) [3] على أن المجئ المراد به هنا الثواب .

وهذا الحديث إحتج به المعارضون لأحمد فى مناظرتهم له على أن القرآن مخلوق ، وقالوا إذا كان القرآن يجئ يوم القيامة فلابد أن يكون مخلوقا .

فالإمام ابن حنبل يحتج فى مناظرته مع هؤلاء المعارضين له بنظير حجتهم عليه لأنهم يتأولون كل ما جاء فى القرآن من آيات الصفات على غير ظاهرها ، فيقول لهم إذا كنتم تقولون فى الآية ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ إن الذى يأتى هو أمره . وإن الذى يجئ يوم القيامة هو أمره ،

---

(١) الفتاوى ص ٣٩٧ جـ (٢) الفتاوى ص ٣٩٧ جـ ٥

(٣) رواه الترمذى .

فقولوا هنا فى هذا الحديث : إن المراد بمجئ البقرة وآل عمران هو ثوابهما، وقراءة القارئ وعلمه ، وليس الجائى هو نفس البقرة وآل عمران ولا حجة لكم فى الحديث على أن القرآن مخلوق (١) .

فكأن الإمام ابن حنبل يلزمهم هنا بنظير حجتهم عليه ، ولم يكن متأولا . وحينئذ لا يقال إنه أول الآية وصرفها عن ظاهرها ، أو أول الحديث وصرفه عن ظاهره .

بل يمكن أن يقال إنه كان يقصد من ذلك رد حجتهم فى القول بخلق القرآن .

واختلف أصحابه فيما رواه عنه حنبل :

فإين شاقلا - وهو من أصحاب الإمام ابن حنبل ومن المقربين لديه ومن أهم الناقلين عنه - قد رد هذه الرواية واحتج بأن حنبل له مفاريد وغلطات معروفة إنفرد بها ومنها هذه الرواية .

أما ابن الجوزى ومن تابعه كابن عقيل فقد أخذ برواية حنبل وجعلا ذلك مذهبا للإمام ابن حنبل واطردوا ذلك فى الصفات الخبرية كلها .

ومن هنا قيل ان الإمام ابن حنبل مؤول .

واحتج أهل التأويل بهذه الرواية زاعمين أن التأويل ضرورة لا بد منها (٢) وإحتجوا أيضا بأن الإمام ابن حنبل على الرغم من تمسكه بالنصوص وتحرجه من التأويل إلا أنه قد أخذ به وذهب إليه (٣) .

ومن هنا فهذه الرواية لو صحت فقد إنهدم أقوى الأسس من منهج الإمام ابن حنبل وصار بذلك متناقضا مع منهجه الذى التزمه ودعا إليه حين قال « إن التأويل ليس مأمون العاقبة وأنه مجرد إحتمال وظن وأما النصوص فثابتة ويقينية ، وأمور العقيدة لا تؤخذ بالظن وإنما باليقين » .

---

(١) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ص ٨٨

(٢) ذكر ذلك الإمام الغزالى فى كتاب الجام العوام

(٣) المرجع السابق .

ولا يجوز الخروج عن اليقين لمجرد الظن والإحتمال ، ولقد صرح برفض التأويل وعاب على المؤولين حين قال : « فالمؤول لا يستطيع أن يدعى الجزم بما أول » (١) .

ولكن مع التحقيق والتحرى تبين أن الإمام ابن حنبل لم يكن مؤولا لأن رواية حنبل مطعون فيها ، وقد قال عنه ابن شاقلا وهو من الحنابلة المشهورين ومن ثقات الناقلين قال : إن حنبل له مفاريد وغلطات معروفة قد إنفرد بها ومنها هذه الرواية سالفة الذكر (٢) .

وإذا تتبعنا منهج علماء الحديث وهو أصدق المناهج وأيقنها لقلنا إن هذا طعن فى السند وجرح فى الراوى والجرح مقدم على التعديل ، ومن هنا فرواية حنبل غير مسلمة ، ويعارضها كثير من النصوص الثابتة عن الإمام ابن حنبل برفضه للتأويل كما سبق .

وعلى فرض صحة رواية حنبل فيمكن أن يقال إن الإمام ابن حنبل كان حينئذ يعارض مناظريه بنظير حجتهم فلا يكون ذلك مذهبا له .

ومما يؤكد أن التأويل ليس مذهبا للإمام ابن حنبل ما رواه عبد الله بن أحمد ابن حنبل نفسه عن أبيه قال عبد الله :

قلت لأبى : ينزل الله إلى سماء الدنيا ؟

قال : نعم .

قلت : نزوله بعلمه أم ماذا ؟

فقال لى : أسكت عن هذا ، وغضب غضبا شديدا وقال أمض الحديث على ماروى (٣) .

فهنا ما يدل على رفضه للتأويل وغضبه من ابنه حين ذهب إلى تأويل النزول بالعلم .

---

(١) طبقات الحنابلة لأبى يعلى . (٢) أى رواية التأويل .

(٣) من الصواعق المرسلة ص ١٠٤ جـ ٢

فدل ذلك على أن التأويل ليس من مذهبه .

وأيضا رأينا أنه كما قال فى النزول قال فى الإستواء ، فقال إستوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب بشر ، وإنه سبحانه إستوى على عرشه بدون تأويل ولا تحريف ، وإنه تعالى فى السموات حقيقة لا مجازا ، وفى الأرض حقيقة لا مجازا بدون تأويل ولا صرف عن الظاهر (١) .

ويعيب على الجهمية إنكارها أن يكون الله على العرش ، فيقول لهم :

« لم (٢) أنكرتم أن يكون الله على العرش وقد قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٣) .

وأيضا قد يقال عن الإمام ابن حنبل أنه أول فى قوله تعالى : ﴿ وهو معكم اينما كنتم ﴾ حيث أول المعية بالعلم وهذا ضرب من التأويل .

ولكن بتحقيق هذه المسألة تبين أن الإمام ابن حنبل قد ألف كتابه المعروف الرد على الجهمية والزنادقة وكما هو واضح من عنوان الكتاب أنه ردود على ما أنكرته الجهمية والزنادقة من قضايا العقيدة وما أثاروه من شبه حول بعض الآيات جعلوها متشابهات ففسرها الإمام ابن حنبل وفند لهم شبههم ، ورد عليهم إنكارهم . آية آية وحديثا حديثا .

وكان مما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش .

فرد عليهم بقوله : لم أنكرتم أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٤) وقال : ﴿ خلق السموات والأض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ (٥) .

---

(١) كتاب الرد على الجهمية للإمام ابن حنبل ضمن شذرات البلاتين محمد حامد الفقى ص٢٩ - ٣٤

(٢) فى الأصل « لما » .

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة تحقيق د . عبد الرحمن عميرة ص١٣٥ ط دار اللواء بالرياض ، وشذرات البلاتين تحقيق محمد حامد الفقى ص ٢٩ وما بعدها ط أنصار السنة .

(٤) طه : ٥

(٥) الحديد : ٤

فقالوا :

هو تحت السماء السابعة كما هو على العرش، فهو على العرش، وفى السموات وفى الأرض وفى كل مكان ، ولا يخلو منه مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان .

ثم تلوا قوله تعالى : ﴿ وهو اللّٰه فى السموات وفى الأرض ﴾ (١) .

فرد عليهم الإمام ابن حنبل بقوله :

قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة اللّٰه شئ .

فقالوا أى مكان ؟

فقال : أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شئ ، وقد أخبرنا أنه فى السماء .

فقال : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ بل رفعه اللّٰه إليه ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ (٦) .

ثم يقول الإمام ابن حنبل للجهمية :

فهذا خبر اللّٰه أخبرنا أنه فى السماء ، ووجدنا كل شئ أسفل منه مذموما كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ (٧) .

---

(١) الأنعام : ٣
(٢) الملك : ١٦ - ١٧
(٣) فاطر : ١٠
(٤) آل عمران : ٥٥
(٥) النساء : ١٥٨
(٦) النحل : ٥٠
(٧) النساء : ١٥٨

﴿ وقال الذين كفروا وبنا أرنا الذين أضلانا من الجن والأنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ [1] .

ثم يقول لهم : إن معنى قول اللّه تعالى : ﴿ وهو اللّه فى السموات وفى الأرض ﴾ أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض ، وهوعلى العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش ولا يخلو من علم اللّه مكان ولا يكون علم اللّه فى مكان دون مكان . فذلك قوله تعالى : ﴿ لتعلموا أن اللّه على كل شئ قدير وأن اللّه قد أحاط بكل شئ علما ﴾ [2] .

ثم يوضح الإمام ابن حنبل مسألة المعية ويقربها إلى الأذهان ويضرب لها هذا المثل :

لو أن رجلا كان فى يديه قدح من قوارير صاف وفيه شراب صاف كان بصرابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم فى القدح ، فاللّه وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شئ من خلقه . ثم بين الإمام ابن حنبل معنى المعية ورد على ما تأولته الجهمية من قول اللّه تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ .

حيث قالوا إن اللّه معنا وفينا ...

فقال لهم : إن اللّه جل ثناؤه يقول : ﴿ ألم تر أن اللّه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ [3] ثم قال : ﴿ ما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ يعنى اللّه بعلمه . ﴿ ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ يعنى اللّه بعلمه ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم ﴾ يعنى بعلمه فيهم ﴿ أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة إن اللّه بكل شئ عليم ﴾ يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه .

ويقال للجهمية : إن اللّه إذا كان معنا بعظمة نفسه فنقول لهم : هل يغفر اللّه لكم فيما بينه وبين خلقه ؟ فإن قالوا نعم فقد زعموا أن اللّه بائن من خلقه دونهم .

---

(١) فصلت : ٢٩ (٢) الطلاق : ١٢ (٣) المجادلة : ٧

وإن قالوا لا فقد كفروا .

ومما يدل على أن الجهمية كذبوا على الله حين زعموا ان الله فى كل مكان ولا يكون فى مكان دون مكان ، لأنهم حينئذ يقال لهم : أليس الله كان ولا شئ معه فيقولون نعم .

فيقال لهم : حين خلق الشئ خلقه فى نفسه أو خارجا من نفسه فإنهم يصيرون إلى ثلاثة أقوال لا بد لهم من واحد منها ان زعموا أن الله خلق الخلق فى نفسه كفروا حين زعموا أن الجن والأنس والشياطين فى نفسه .

وإن قالوا خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا كفرا أيضا .

وفى كل ما سبق يبطل أن الله معنا وفينا بعظمة نفسه ويبين أن المعية هنا معناها العلم لأن القرينة دلت على ذلك حيث بدأ الآية بالعلم وختمها بالعلم .

وحيث انه يستحيل أن يكون الله حين خلق الخلق خلقهم فى نفسه فإن قيل خلقهم فى نفسه فهو كفر وإن قيل خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كفر أيضا لما يترتب على ذلك من المحال .

ثم بين الإمام ابن حنبل ما ذكر الله فى القرآن « وهو معكم » وبين أنه على وجوه :

قال الله لموسى : ﴿ إننى معكما ﴾ [١] أى فى الدفع عنكما وقال تعالى : ﴿ ثانى إثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [٢] أى فى الدفع عنا وقال تعالى : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ [٣] أى فى النصر لهم على عدوهم وقال تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [٤] أى فى النصر لكم على عدوكم .

وقال تعالى : ﴿ ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾ [٥] أى بعلمه فيهم وهكذا فسر الإمام ابن حنبل المعية بما يناسبها فى كل آية وفى كل حالة بحسب ما تدل

---

(١) طه : ٤٦ (٢) التوبة : ٤٠ (٣) البقرة : ٢٤٩

(٤) محمد : ٣٥ (٥) النساء : ١٠٨

عليه بحسب القرينة والمناسبة . وليس فى اللغة ما يحيل ذلك .

وعلى هذا فلا تكون المعية المختلطة التى يعنيها الجهمية وإنما المعية العلمية أو التأييدية ألخ .

ويعتبر هذا من باب التفسير الذى هو البيان والتوضيح للفظ وليس هو من باب التأويل الذى هو خروج اللفظ وصرفه عن ظاهره .

وإن كان من الأولى أن يقال عن المعية « معية لائقة بجلاله تعالى » كما قيل فى الإستواء أو النزول .

وقد ذهب الإمام الشوكانى إلى ذلك فأراح نفسه ولم يعط فرصة للآخذين عليه بل سلك طريق السلامة والإستقامة ولذا نراه فى كتابه « التحف فى مذهب السلف » (١) لم يلجأ إلى التأويل لا من قريب ولا من بعيد ويشير إلى ذلك بقوله : (وكما نقول فى الإستواء نقول فى المعية) (٢) فكما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش إستوى ﴾ قال أيضا : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وقال : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم * ولا خمسة إلا وهو سادسهم ﴾ .

فنقول فى مثل هذه الآيات : هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه وتعالى معنا ولا نتكلف تأويل ذلك كما يتكلف غيرنا : أن المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته ، فإن هذه شعبة من شعب التأويل يخالف مذهب السلف ويباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم (٣) .

وهكذا كان جديراً بالإمام ابن حنبل أن يلتزم بمنهجه فى عدم التأويل فى جميع المسائل العقدية التى تطرق إليها ولكن قبل أن نتهم الإمام ابن حنبل بالتأويل لابد أن نلاحظ أموراً ثلاثة ، قد تخرجه كلها أو واحدة منها من هذا الإتهام :

---

(١) طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٢) التحف فى مذهب السلف للشوكانى ص ١٦

(٣) المرجع السابق .

أولها : أن التأويل المرفوض : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به .

وأن هذا القسم من التأويل باطل لأن السياق والتركيب لا يحتمله فإن كان السياق والتركيب يحتمله ودل الدليل على ذلك فيمكن أن يكون جائزا لا ممتنعا ، ويكون من باب التأويل الجائز الذى هو بمعنى التفسير والبيان ولعل هذا هو ما قصده الإمام ابن حنبل .

أو لعل هذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها ، وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه كالألفاظ التى لها عرف شرعى وحقيقة لغوية كالضوء والطهارة والصلاة إنما ظاهرها العرف الشرعى دون الحقيقة اللغوية [1] .

مما يؤيد تفسير المعية بالعلم ما ذهب إليه ابن قدامة مستدلا بأن هذا التفسير ليس تأويلا وإنما هو ما ذهب إليه الصحابة والتابعون فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيرا غيرهم قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وهو معكم ﴾ أى علمه [2] .

وإلى هذا ذهب الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنارحين يقول :

والتحقيق أن المعية تفسر فى كل آية بما يقتضيه موضوعها فمعية العلم ظاهرة فى آية النجوى [3] لذكر العلم فى أولها وآخرها وأما الآية التى فى سورة الحديد ، فهى معية الرؤية وهى أخص من العلم لقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ [4] . والشاهد فى آخرها [5] .

ثم يقول : هناك معية للصابرين ومعية للمتقين وللمحسنين تفسر كل منها بما

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة ص ٨٧ ضمن الرسائل السلفية - ط . الإمام بالقلعة مصر .
(٢) المرجع السابق ص ٨٨ (٣) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٤) الحديد آية : ٤
(٥) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ص ٤٢٦ جـ . ١

يناسبها وكذلك معيته سبحانه لرسوله ﷺ ولصاحبه الصديق رضى الله عنه فى الغار ليلة الهجرة (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) أى لا تحزن لأن الله معنا بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ، ومن كان الله معه بعزته التى لا تغلب وقدرته التى لا تقهر فهو حقيق بألا يستسلم لحزن ولا خوف وهذا النوع من المعية أعلى من معيته سبحانه للمتقين والمحسنين (١) .

ثانيها : أن الإمام ابن حنبل اختلف الناقلون عنه :

فمنهم من نقل عنه التأويل ومنهم من نفاه .

وبهذا تكون رواية التأويل مجرد احتمال لا يثبت إلا بالدليل والثابت من الأدلة والنقول والنصوص يدل على أنه لم يكن مؤولا كما سبق بيانه (٢) من أن الرواية المشهورة من مذهبه ترك التأويل والخلال وقدماء الأصحاب الناقلين عن الإمام ابن حنبل على إمتناع التأويل ، وقالوا ان رواية حنبل اما شاذة أو أنه رجع عنها أو أنه ذكرها على طريقة الإلزام والمعارضة . لا أنها هى المذهب وهذا الإختلاف كثيرا ما يقع بين الناقلين عن المذهب فقد حدث نظير ذلك فى مذهب الإمام مالك فإن المشهور عنه وعن أئمة السلف عدم التأويل ولكن روى عنه أنه أول وهذه الرواية لها إسنادان الأول : من طريق حبيب وقال علماء الجرح والتعديل أنه وضاع كذاب .

والثانى : أن فيه مجهولا لا يعرف حاله ، ولذا فقد إنتفت روايته لأن المشاهير من أصحابه لم ينقلوا عنه شيئا من ذلك . وهكذا بعد التحقيق لم يثبت عن الإمام أحمد كما لم يثبت عن الإمام مالك وكذلك بقية الأئمة أنهم كانوا مؤولين .

ثالثهما : أنه كان بصدد رد حجج الجهمية والزنادقة ، وكان يعارض مناظريه بنظير حجتهم فيمكن ألا يكون ذلك مذهبا له . بل يكون من باب المعارضة والإلزام

---

(١) المرجع السابق .　　　(٢) منهج الإمام ابن حنبل من هذا البحث .

لخصومه بما يعتقدونه فى نظير ما إحتجوا به عليه لا أنه يعتقد ذلك ، والمعارضة لا تستلزم إعتقاد المعارض صحة ما عارض به [١] .

على أنه قد يؤخذ على الإمام ابن حنبل تصريحه بالمجاز فى كتابه الرد على الجهمية على قوله تعالى : ﴿ إنا ، نحن ﴾ الواردة فى القرآن فقال إن هذا من مجاز اللغة .

واحتج بهذا من رماه بالتأويل لأن التأويل فى جوهره حمل اللفظ على معناه المجازى لا الحقيقى [٢] .

ولكن قد يدفع هذا عن الإمام ابن حنبل بأنه إنما عنى من قوله « من مجاز اللغة » أى مما يجوز فى اللغة أن يقول الرجل : كذا ولم يقصد بقوله - هذا - المجاز الإصطلاحى الذى هو قسيم الحقيقة ،

حيث إن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم محدث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة كما سبق بيانه [٣] وقد ثبت أنه لا أساس لهذا التقسيم بين أئمة المتقدمين [٤] .

وبهذا يتضح ان الإمام ابن حنبل لم يكن مؤولا .

وبالتالى لم يقل بالمجاز الذى هو قسيم الحقيقة .

وقد ثبت ذلك من تحقيق الروايات المنقولة عنه كما تقدم .

ومن هنا وبعد إيراد تلك الأدلة يستقيم للإمام ابن حنبل أن منهجه فى رفض التأويل ثابت وأنه لم يتناقض مع مبدئه ولم يحد عنه .

---

(١) الصواعق المرسلة ص ٢٦١ جـ ٢ . والفتاوى ص ٣٩٨ ، . . . ٤ وما بعدها جـ ٥

(٢) أنظر موضوع الحقيقة والمجاز من هذا الحديث .

(٣) أنظر موضوع الحقيقة والمجاز من هذا البحث ص ٨.

(٤) أنظر جمع الجوامع لابن السبكى ، ومنع المجاز للشنقيطى فى المقدمة .

٣ - رفض طريقة علماء الكلام :

على الرغم من أن العصر الذى وجد فيه الإمام ابن حنبل كان مليئا بالمنازعات والمجادلات [١] .

وقد ظهر فيه المعتزلة الذين توجوا العقل وقدسوه واحتضنهم الخلفاء العباسيون فى ذلك الوقت وقد كان لأهل الكلام حينئذ شأنهم وظهورهم .

إلا أن الإمام ابن حنبل لم يرتض إلا الجانب الذى ارتضاه القرآن ورفض ذلك الجانب الآخر من الجدل العقيم والمراء المر ورفض أن يدلى بدلوه فى ذلك الماء العكر .

كتب إليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام فكتب إليه أحمد الكتاب التالى [٢] .

« أحسن الله عاقبتك الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ويكرهون الجلوس مع أهل الزيغ . وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله لا تعد ذلك . ولم يترك الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب وجلوس مع مبتدع ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه دينه » وهنا يظهر إلى أى مدى كان الإمام ابن حنبل حريصا على ألا يتجاوز القرآن وطريقته الفطرية الميسرة إلى طريقة أهل الكلام المعقدة والتى كان يبغضها وينصح بالبعد عنها فالمنهج القويم إنما هو فى الكتاب والسنة فطريقتهما أهدى وأرشد فلا نتعداهما لأنه ليس فيما سواهما إلا العمى والضلال .

ثم يؤكد على التمسك بالكتاب والسنة فيقول : إن الله ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها ثم يقول وآمركم إلا تؤثروا على القرآن شيئا [٣] .

---

(١) طبقات الحنابلة ٢٦٥ جـ ٢

(٢) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر « المقدمة »

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٠

ولذا نرى عبد الله بن أحمد متحدثا عن أبيه ومؤكدا لذلك فيقول [١] :

كتب أبى إلى عبد الله بن خاقان :

« لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شئ من هذا إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ أو عن أصحابه فأما غير ذلك من الكلام فهو غير محمود » .

ثم يقول فى موضع آخر [٢] « لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة » ويؤكد هذا ما ثبت عنه أيضا فى الطبقات [٣] أنه كان يكره الكلام ويمنع منه ويغضب لسماعه ويأمر بإتباع الأثر . ويقرأ قوله تعالى : ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ [٤] . ويروى عنه أيضا « لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم فى ربهم » [٥] .

ومما يروى عنه أيضاً [٦] أنه ربما هجر من اشتغل بالكلام ولو كان من العلية فى العلم والدين . ولكن هل بلغت تلك الكراهية حدا يجعل الإمام لا يتكلم مطلقا فى مسائل علم الكلام ؟

الواقع أنه ما كان يلجأ لذلك إلا مضطرا فإذا دعت الضرورة فهو صاحب الحجة الرادعة والبرهان المبين [٧] .

وخير دليل على ذلك هو كتابه القيم « الرد على الجهمية والزنادقة » ولكن المشهود له أنه ما كان ينساق وراء طرقهم ومتاهاتهم بل كانت ردوده عليهم إما بالكتاب والسنة وإما بالعقل المزكى بهما .

---

(١) المناقب ص ١٥٦

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزى ص ١٥٦

(٣) طبقات الحنابلة ص ٢٧٠ جـ ٢

(٤) الرعد : ١٣

(٥) طبقات الحنابلة ص ٢٧٤ جـ ٢

(٦) طبقات الشافعية للسبكى ص ٢٧٨ جـ ٢

(٧) طبقات الحنابلة ص ٢٨١ جـ ٢

والنظر العقلى الصريح له مكانته فهو وسيلة من وسائل النظر والإستدلال الواجبة على المكلفين .

وقد أثر عنه [١] أنه كان يقول « أوجب الله على المكلفين النظر والإستدلال الموصلين إلى العلم » . ويتلو قوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾ ، وقوله : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ثم يقول : « إختلاف المسلمين يدل على وجوب النظر » [٢] .

ويفهم من ذلك أنه لا مجافاة بين النقل والعقل .

ما دام النقل صحيحا ، وما دام العقل صريحا ، كما هو معروف عند أهل العلم .

وبعد فهذه هى طريقة الإمام ابن حنبل ومنهجه فى العقيدة تمسك بالكتاب والسنة وتتبع خطا الصحابة والتابعين إلى أبعد مدى [٣] . ورفض لمنهج المؤولين

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ص ٢٧٨ جـ ٢

(٢) طبقات الحنابلة ص ٢٨١ جـ ٢

(٣) من المعلوم أن منهج الإمام ابن حنبل هو عدم تجاوز النصوص وليست دعوته للنظر العقلى متناقضة مع منهجه لأن النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل الصريح .

وقد أبدى فضيلة الدكتور عبد المعطى بيرمى المشرف على الرسالة رأيه بأنه لا بد من الفصل بين مرحلتين فى فكر الإمام ابن حنبل .

المرحلة الأولى : عدم تجاوز النصوص ، والمرحلة الثانية : النظر العقلى بعد تقديم النص ونموذج ذلك المنهج : الرد على الجهمية وكانت هذه المرحلة فى آخر حياته بعد أن إقتنع أن الرد على المبتدعة لا يكفى فيه إلتزام الأثر فقط وعدم تجاوزه إلى شئ من الكلام . ا هـ . ولكنى أرجح ان الإمام ابن حنبل ظل وفيا لمنهجه فى تقديم النصوص طوال حياته وهو ما تميل إليه النفس مستأنسا بالأدلة السابقة وبنفس كتاب الرد على الجهمية حيث أنه كان يرد عليهم بالأثر ولننظر إلى ص ١٣٥ من نفس الكتاب يقول لهم حين ينكرون إستواء الله على عرشه : لم أنكرتم ذلك والله تعالى يقول : ﴿ الرحمن على العرش إستوى ﴾ ولا يفهم من ذلك إن تقديم النصوص إهمال للعقل وليس معنى إيجاب النظر تقديمه على النص . بل للعقل مكانته التى لا يتجاوزها ، وليس هناك تعارض حينئذ بين النقل الصحيح والعقل الصريح .

والمعطلين وكراهية لطريقة المتكلمين .

ويتجاوز الكراهية والرفض حب غامر إلى أبعد مدى للعمل بكتاب اللّه الكريم وسنة النبى عليه الصلاة والتسليم .

ومن هنا كان صاحب هذا المنهج سنيا وكان إتجاهه سلفيا .

فماذا عن الركن الآخر من البحث .

ماذا عن الإمام بن تيمية ؟؟

هذا ما سيجيب عنه البحث فى الباب الثالث بفضل اللّه .

* * *

الباب الثالث

الاتجاه السلفى عند الإمام ابن تيميه

ويتناول الفصول الآتية :

الفصل الأول : التعريف بالإمام ابن تيميه .
الفصل الثانى : عقيدته .
الفصل الثالث : منهجه .

الفصل الاول
التعريف بالامام ابن تيميه

● تقديم :

إن من العجيب أن تتعارض الاراء فى الشخصية الواحدة وتختلف الاحكام فيها ليس إلى درجة التاييد والرفض أو التخطيىء والتصويب . وانما إلى درجة الاعلاء والاهواء .

الاعلاء الذى يصل بالشخص إلى مصاف الاولياء والاصفياء فيصير شيخا للاسلام واماما للمسلمين ، والاهواء الذى ينحدر به إلى مصاف المجسمة والمشبهة . فيصير شيخ الزنادقة وامام الملحدين !! .

وانه وان كان الناس بين قادح ومادح فان المشاهد ان الرجل الذى يختلف الناس فى شانه إلى هذا الحد ليس رجلا عاديا . وبالتالى فالكتابه عنه أيضا ليست عادية .

تلك هى شخصية الامام ابن تيمية ، التى كتبت ضده المؤلفات تتهمه حتى قيل عنه ليس سلفيا .

وألفت فيه الكتب لتدافع حتى قيل سلفى وان رغمت أنوف ، وأمام من كالوا له الاتهامات . وما يقابلها من الاطراءات أستعين اللّه تعالى أن يرشدنى إلى الحكم الصواب .

وقبل أن نحكم له أو عليه .

ينبغى أن نتعرف على العصر الذى عاش فيه .

فالرجل ثمرة عصره كما يقولون .

والعصر بالنسبة لدراسة الشخصيات مفتاح لها . ونافذة عليها ان لم يكن باعثا لها ومؤثرا فيها !! .

● عصر الامام ابن تيمية :

كانت نهاية القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة وهى ما يطلق عليها فى التاريخ بالعصور الوسطى .

أقول : كانت هذه الحقبة من التاريخ مسرحا لاحداث جسام فى حياة المسلمين تميزت بالذل والانقسام والاستبداد والطغيان استبد فيها الحاكم من الداخل بالمحكومين وأغار فيها العدو من الخارج على الحاكمين وعم الفساد ، واشرأبت الاعناق إلى الخلاص .

ورنت العيون إلى المصلحين . فكان ابن تيمية حينئذ على الابواب وإذا كانت أبواب هذا العصر يمكن حصرها فى نواح ثلاثة :

السياسية والاجتماعية والعلمية .

فستكون الاشارة عن كل واحدة من هذه النواحى بما تستدعيه الضرورة :

● الناحية السياسية :

ظلت الدولة الاسلامية متماسكة طوال عهد الخلفاء الراشدين وظلت موحدة طوال عصر الامويين وكانت أول الهزات العنيفة ما كان من صراع بين الامويين والعباسيين فلما استقر الحكم للعباسيين مرت الدولة بأدوار مختلفة كان لخلفائها فى بعضها الكلمة والحكم وفى بعضها لم يكن لهم الا الصورة والاسم . وكانت السيادة الفعلية للبويهيين (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ثم للاتراك اللجوقيين (٤٤٧ - ٥٩. هـ) .

وظلوا هكذا حتى انتهى أمرهم على يد التتار عام ٦٥٦ هـ .

وقد كانت هذه هى النتيجة الحتمية للتدهور والتفكك الذى أصاب المسلمين وأقعدهم حتى دهمتهم حروب التتار والصليبيين .

نزل الصليبيون ببلاد الشام واستولوا على معظم مدنه الساحلية .

حتى اسقطوا عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين . ثم دخلوا بيت المقدس وعتوا عتوا كبيرا .

واستمر حربهم للمسلمين نحو قرنين من الزمان إلى أن أذن الله بزوال خطرهم على يد الأشرف بن المنصور قلاوون .

بعد ان كادوا كما يقول ابن الاثير أن يملكوا ديار مصر والشام وغيرها (من البلدان) لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم [1] .

وأما التتار فلم يكن خطرهم أقل من خطر الصليبيين بل كان أدهى وأمر .

وفى الوقت الذى مازال فيه المسلمون يقاسون من ويلات الصليبيين إذا بالتتار يداهمون المسلمين . وكأن الاعداء جميعا على موعد .

ولازالت بلاد المسلمين تسقط تحت يد التتار بلدا بعد أخرى حتى سقطت بغداد عاصمة الخلافة سنة ٦٥٦ هـ .

فاجتمع على الناس - كما يقول ابن كثير - الغلاء والوباء والفناء [2] .

وقيض الله لهذه الامة تحت الظروف القاسية من يخفف من هذه القسوة ويدفع هذا البلاء .

فكان الامام ابن تيمية مشاركا ورائدا فى رفع راية الجهاد .

واختير لمجابهة قائد التتار مندوبا عن المسلمين حينئذ .

حتى قال المؤرخون أنه اشتهر أمره منذ ذلك الوقت [3] .

---

(١) الكامل فى التاريخ ص ١٢٨ ج ١٢ . ملخصا .

(٢) البداية والنهاية حوادث سنة ٦٥٦هـ ج ١٣ .

(٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ١٥٣ ج ١

وفى سنة ٧٠٠ هـ طلب اليه نائب دمشق وامراؤها ان يركب على البريد إلى مصر ليستحث السلطان « الناصر » على الخروج فى سبيل اللّه لقتال التتار فكانت دعوته ناجحة وكان سعيه مشكورا . فوافق السلطان على تجريد العسكر إلى الشام [١] . وانهزم التتار بفضل اللّه على أيدى المصريين [٢] . ولم ينس التاريخ للامام ابن تيمية موقعة (شقحبار) التى انتصر فيها المسلمون على التتار [٣] ولم ينس المحاربون تلك الوقفات الشجاعة والكلمات الطيبة تنطلق وتخترق الصفوف لتذكر باللّه فتقوى العزيمة وتستلهم النصر .

ومن هنا كانت مشاركة الامام ابن تيمية صادقة وايجابية تدير دفة الاحداث فى عصر تلاطمت فيه المحن وعمت البلوى على المسلمين !! .

وكانت فرصته التى وجه فيها الناس إلى دين اللّه ونهج بهم إلى سنة رسول اللّه ﷺ .

● الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية هى الانعكاس الضرورى للحياة السياسية فما يظن من وراء الحروب والنكبات الا القلق والاضطراب .

وعاش الإمام ابن تيمية فى مجتمع لا تجمعه وحدة ولا تحل فيه سكينة ولا يعصمه دين .

فالاجناس متعددة والعقائد متباينة . والصراعات والمنازعات على أشدها قائمة . وهنا يضع الامام ابن تيمية لبنة من لبنات اصلاحه فألف كتاب « الحسبة فى الاسلام » وأوجب النظر من ولاة الامور إلى مصالح المسلمين .

---

(١) البداية والنهاية ص ١٨ ج ١٤

(٢) السلوك للمقريزى ص ٤٢٧ ج ١

(٣) انظر المرجع السابق .

وزاد الحياة سوءا ظهور التعصب المذهبى والتعدد العقدى وكل حزب بما لديهم فرحون ، ومن الفريق المناهض لهم غاضبون .

وقد كانت نتيجة هذا التعصب أن من مال اليه الحكام أبقوه ومن خالفهم نفوه

وكان الحنابلة ممن نفى عن البلاد وصاروا عنها مبعدين [١] . وما ذلك إلا لتشددهم فى الدين وتمسكهم بالسنة ومحاربتهم للمخرفين والمبتدعين .

● الحالة العلمية :

ولم تكن الحياة العلمية بأحسن حظا من سابقاتها اللهم الا ما كان من مظاهر للنشاط الدينى متمثلا فى مصر من حين صارت دارا للخلافة كما يقول السيوطى [٢] .

فعظم أمرها وكثرت شعائر الاسلام فيها وصارت سكن العلماء وملتقى الفقهاء ومحط رحال الفضلاء [٣] .

وإلى جانب ذلك أيضا كانت النهضة العلمية على يد ابن سينا والغزالى فى الشرق . وابن رشد فى الغرب وكان من نتاجها فخر الدين الرازى [٤] والسهروردى [٥] وابن الاثير [٦] وابن عربى [٧] . والطوسى [٨] وغيرهم .

---

(١) البداية والنهاية ص ٢٠ ج ١٣ (٢) حسن المحاضرة ص ٨٦ ج ٢ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ص ٨٦ ج ٢

(٤) هو أحد كبار الاشاعرة وصاحب التفسير المعروف وله فى علم الكلام باع طويل توفى سنة ٦٠٦ هـ .

(٥) هو شهاب الدين السهروردى شيخ صوفية بغداد صاحب كتاب عوارف العارف قتل سنة ٦٣٦ هـ

(٦) هو عز الدين بن الاثير صاحب كتاب أسد الغابة توفى سنة ٦٣٠ هـ

(٧) هو محى الدين بن عربى الطائى صاحب الفتوحات المكية توفى سنة ٦٣٨ هـ

(٨) هو الخوجة نصير الدين الطوسى شارح الاشارات توفى سنة ٦٧٢ هـ .

وإذا أشرنا فى ذلك العصر إلى الناحية العقدية فلا نجد عند اكثر المؤرخين حديثا إلا عن المعتزلة والاشاعرة مغفلين دورا هاما للحنابلة فى هذا الخضم .

فابن خلدون فى مقدمته [١] يشير إلى ما عرض من الخلاف فى قضايا العقيدة مما أدى إلى انتهاج الادلة العقلية بجانب النقلية ثم يقول ان هذا الخلاف كان بسبب ورود الايات المتشابهة والتى توهم التشبية والتجسيم وان السلف غلبوا أدلة التنزية وقضوا بأن هذه الايات من كلام الله فآمنوا بها .

ولكن شذ لعصرهم من أوغلوا فى التشبيه تعلقا بظواهر هذه الايات ثم حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم التنزية فقضوا بنفى صفات المعانى من العلم والقدرة والارادة ونحوها .

إلى ان جاء الامام أبو الحسن الاشعرى [٢] فتوسط الطريق ونفى التشبية وأثبت الصفات وقصر التنزية على ما قصره عليه السلف . إلى أن جاء الامام الباقلانى [٣] فوضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الادلة . مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء ونحو ذلك وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية .

ثم جاء امام الحرمين [٤] فاستخدم الاقيسة المنطقية فى تأييد العقلية . ثم توغل المتأخرون فى مخالطة كتب الفلسفة فمزجوا بها علم الكلام .

ويتدارك الشيخ مصطفى عبد الرازق [٥] هذا العرض القاصر من ابن خلدون لاغفاله دورا هاما فى تنقية العقيدة ومقاومة الغالين على يد الامام ابن تيمية . فى احياء مذهب السلف ومقاومة المبتدعين .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١١

(٢) هو الامام ابو الحسن على بن اسماعيل الاشعرى (٢٦٠ - ٣٣٠ هـ)

(٣) هو القاضى ابو بكر بن الطيب ت ٤٠٣ هـ .

(٤) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى - امام الحرمين - (٤١٩ - ٤٧٨ هـ)

(٥) التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٩٤

كما تدارك ذلك أيضا الشيخ محمد رشيد رضا على استاذه الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد اغفاله الحديث عن الامام ابن تيسية فيقول [1] .

فات المؤلف [2] ان يذكر المجدد العظيم شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية الذى نصر مذهب السلف ببرهان النقل والعقل .

ويؤيد المقريزى ذلك الدور الهام للامام ابن تيمية .

فيقول [3] بعد السبعمائة من الهجرة اشتهر أبو العباس بن تيمية وبالغ فى الرد على الرافضه والانكار على الصوفية والنقد لمذهب الاشاعرة [4] الذى اعتقد الناس خطأ أنه مذهب أهل السنة والجماعة .

ويقول ابن عبد الهادى [5] ظهر بين المسلمين من استطاع ان يلبس الحق بالباطل ويزخرف الشكوك والشبهات باسم الدين .

فردوا آيات الله وحرفوا كتابه وعطلوا صفاته ونفوا أسماءه . ومازالوا فى تأثرهم بالفلسفة حتى أبعدتهم بقوانينها عن منهج الله وسنة رسول الله ﷺ والعجيب ان الناس افتتنوا بها فروجوها ومكنوا لها حتى كان القرن السادس الهجرى وقد قام سوق العقائد الفاسدة وتفشت البدع والخرافات الشركية بعبادة الموتى والقبور وآثار الصالحين فاتجهوا اليهم وتركوا ربهم فقيض الله لهذا الدين مجاهدا من أعظم المجاهدين هو شيخ الاسلام ابن تيمية [6] .

---

(١) هامش رسالة التوحيد ص ٢٢ بتصرف (٢) يعنى الامام محمد عبده .

(٣) الخطط للمقريزى ص ١٥٤ ج ٢ ملخصا

(٤) الذين انتسبوا إلى مذهب الامام الاشعرى ولكنهم لم يترسموا خطاه كاملة فبدلوا من مذهبه وبدلوا فكان مذهب اتباعه ليس كمذهبه .

رسالة الماجستير عن أهل السنة للكاتب .

(٥) هو الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الهادى سنة ٧٠٤ - ٧٤٤ هـ

(٦) العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية لابن عبد الهادى تحقيق حامد الفقى ص ٩

فتصدى بالانتصار لمذهب السلف مدللا على أنه مذهب أهل السنة والجماعة.
والآن وبعد أن مهدنا بهذه الحقبة الزمنية للتعرف على الامام ابن تيمية . فلنتعرف عليه ..

* * *

حياة الامام ابن تيمية
٦٦١ - ٧٢٨ هـ

● نسبه وأسرته :

هو أحمد تقى الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن أبى محمد عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله [١] .

وأسرته تعرف بأنها أسرة ابن تيمية [٢] وعرفت هذه الاسرة بالعلم والدين وكانت حنبلية العقيدة والمذهب .

كان جده أبو البركات من كبار علماء الحنابلة وكان يسمى بالمجتهد المطلق [٣] يقول عنه الحافظ الذهبى : انتهت اليه الامامة فى الفقه .

أما والده الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية فقد كان عالما محدثا وفقيها حنبليا كان مدرسا بالجامع الاموى وكان شيخا لدار الحديث السكرية بالقصاعين [٤] .

---

(١) انظر تاريخ الحافظ الذهبى وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلانى وتاريخ ابن كثير وتاريخ فوات الوفيات للكتبى وشذرات الذهب لابن العماد وتاريخ ابن الدردى وغير ذلك من كتب التاريخ .

(٢) قال بعض المؤرخين ان جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء بالقرب من تبوك فرأى طفلة اسمها تيميه ثم رجع فوجد امرأته ولدت بنتا فسماها تيميه فعرفت الاسرة بذلك أو أن جده محمد كانت أمه واعظة واسمها تيميه فنسبت الاسرة اليها .

(٣) منتقى الاخبار للشوكانى .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ص ٣.٣ ص ج ١٣

● مولده ونشأته :

ولد تقى الدين أحمد بن تيمية بحران [١] يوم الاثنين ١٠ من ربيع الاول سنة ٦٦١ هـ فى هذه الاسرة العلمية الدينية وبقى بها الى ان بلغ سبع سنين ثم انتقل به والده إلى دمشق كان مجدا فى طلب العلم مجتهدا فيه . ختم القرآن الكريم وهو صغير ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية . حتى برع فى ذلك [٢] وكان مضرب الامثال بين قرنائه .

حتى قال عنه شيخه : - بعد اختباره فى حفظ عدة اسانيد منتخبة ومختلفة إن عاش هذا الصبى ليكونن له شأن عظيم فان هذا لم ير مثله [٣] .

والامام ابن تيميةَ وان كانت استعداداته فطرية فان نشأته أيضا بين أسرة عالمة كل زادها وعتادها كتب العلم . تنتقل الاسرة من حران إلى دمشق فى ظروف قاسية ويأبون إلا أن تكون مكتبتهم معهم وعلى الرغم مما سببته لهم من مشاكل الا أنه حين يستغنى عن كل شيء فلا غنى عنها وهذه اشارة لطيفة إلى البيت الذى تربى فيه الإمام ابن تيميه والاسرة التى نشأ فيها ! .

● علمه :

كان للفطرة والاسرة أكبر العوامل فى نبوغ الامام ابن تيميةَ وتفوقه العلمى ويكفى أنه تأهل للتدريس والفتوى وهو فى صدر شبابه .

وقام بوظيفة أبيه العلمية وهو ابن العشرين .

بلغ شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتى شيخ [٤] منهم ابن عبد الدائم

---

(١) بلدة قرب الرها من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات وهى بلاد الاناضول وتعرف اليوم باسم : (أورفة) .

(٢) الاعلام العلية للبزار ص ٢١ .

(٣) الحافظ احمد بن تيمية للندوى ص ٣٨ .

وانظر العقود الدرية ، والاعلام العلية ، وكتب التراجم .

(٤) العقود الدرية لابن عبد الهادى ص ٣ .

وابن أبى اليسر والكمال بن عبد وابن الصيرفى وابن ابى الخير والقاسم الاربلى وابن علان [١] والقاضى شمس الدين بن عطا الحنفى ومجد الدين بن عساكر والهروى وفخر الدين بن البخارى وابن شيبان [٢] .

وسمع مسند الامام أحمد ومعجم الطبرانى وسمع الكتب الستة .

وكما عرف بكثرة شيوخه عرف أيضا بكثرة تلاميذه .

ومنهم : ابن قيم الجوزية ، وابن عبد الهادى ، وابن كثير ، وابن رجب .

يقول عنه الإمام الذهبى فى « معجم شيوخه » [٣] شيخنا شيخ الاسلام فريد العصر فاق الناس فى معرفة الفقه . كان يفتى بما دليله عنده .

ثم يقول عنه : سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه وكتب وخرج ونظر فى الرجال والطبقات ومعرفة فنون الحديث وبالعالى والنازل [٤] والصحيح والسقيم حتى قيل كل حديث لم يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

وبرع فى التفسير وغاص فى دقيق معانيه .

وأتقن العربية أصولا وفروعا . ونظر فى العقليات [٥] وعرف آراء المتكلمين ورد عليهم ونبه على خطئهم . وحذر منهم . ونصر السنة وأوذى فى الله حتى أعلى الله مناره وكبت أعداءه وجمع قلوب أهل التقوى على محبته .

ثم يقول [٦] انه أكبر من أن ينبه على سيرته مثلى .

فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعينى مثله ولا رأى هو مثل نفسه .

---

(١) الوافى بالوفيات للصفدى ص ٢٦ ضمن نصوص مخطوطة تحقيق د . المنجد .

(٢) ابن رجب الاصح أنه ليس من تلاميذه المباشرين لانه ولد بعد وفاته بثمانى سنوات فهو من تلاميذ تلاميذه .

(٣) شذرات الذهب ص ٨١ وما بعدها ج

(٤) المرجع السابق .

(٥) لعله يريد الفلسفة وعلومها .

(٦) شذرات الذهب ص ٨١ ج ٦

يقول عنه ابن سيد الناس [١] ان تكلم فى التفسير فهو حامل رايته وان أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته .

وان ذاكر الحديث فهو صاحب علمه وروايته .

وان حاضر فى الملل والنحل لم تر أوسع من نحلته ولا أرفع من درايته ولقد كان لكثرة الملل والنحل فى عصره دافع قوى لدراستها والرد عليها حيث تبين له سوء نواياهم وخبث طواياهم ومكرهم للاسلام ومحاولاتهم للهدم والتشكيك وبلبلة الافكار المنحرفة والنحل الباطلة التى قد تظاهرت بالاسلام واستبطنت عداوته .

ولم تكن هذه بأقل خطورة من أصحاب العقائد الفاسدة من أصحاب التخريفات والتحريفات والبدع . الذين يعتقدون أنهم على حق ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

كل ذلك جعل الامام ابن تيمية يتخذ العلم سلاحا يدافع به عن الدين ويصحح من ورائه العقيدة . فتقدم للميدان بقلمه ولسانه . وفكره وبيانه .

وقد كان لكثرة المناظرة كما يقول الشيخ أبو زهرة [١] .

أن أرهفت قواه وزادته ايمانا بقضاياه . فان المناظرة (مع العلم) تنير السبيل وتهدى للحق .

وهكذا كان الامام ابن تيمية فى الميدان العلمى والفكرى خصوصا ميدان العقيدة التى بذل لها حياته وكرس فيها جهده وألف فيها كتبه ورسائله .وسأشير إلى بعض هذه الكتب والرسائل التى لها أثرها عند طلاب العلم والمعرفة .

من هذه الكتب والرسائل :

---

(١) فوات الوفيات ص ٤٩ ج ١

(٢) ابن تيميه ص ١٢١

كتاب الايمان . كتاب الاستقامة . وكتاب اقتضاء الصراط المستقيم وكتاب الفرقان ومنهاج السنة ونقض المنطق . وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول وغيرها .

ومن رسائله : الرسالة الحموية والرسالة التدمرية . والعقيدة الواسطية . والقضاء والقدر . ومعتقدات أهل الضلال . والفرقة الناجية وغيرها من المؤلفات الكثيرة حتى قيل عن تصانيفه انها بلغت خمسمائة مجلد (١) قال عنه ابن دقيق العيد (٢) رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء منها ويترك ما يشاء

وجمع الامام المزى (٣) مكانته العلمية فى قوله : ما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه (٤) .

وهكذا كانت مكانة الامام العلمية بشهادة رجال الجرح والتعديل وشهادة الثقات من المؤرخين . شهدوا أنه كان فذا فى عصره اماما فى علمه وفكره .

● جهاده :

حسب الامام ابن تيمية أن الفخر الذى ناله المصريون الى اليوم بانتصارهم على التتار يومئذ كان مرجعه إلى الدور البطولى الذى قام به وشهده له التاريخ فلقد كان جيشا وحده وكان روحا خفاقة وعزيمة وثابة وقوة ضاربة .

إن العالَم حين يرى العالِم صخرة قوية تتحطم عليها قوى التتار الوحشية نهائيا . لهو الامر المهيب .

---

(١) ذكر الذهبى أنها بلغت ثلاثمائة انظر تذكرة الحفاظ ص ٣٧٩ ج ٤ ولعل ما أحصى منها أولا كان ثلاثمائة ثم ظهر غيرها مما لم يحصوه أولا .وقد احصيت مؤلفات الامام ابن تيميه تحت عنوان.(أسماء مؤلفات ابن تيميه) لشمس الدين ابن قيم الجوزية تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ط . بيروت .

(٢) شذرات الذهب ص ٨٣ ج ٦

(٣) هو ابو الحجاج الحافظ الجليل .

شذرات الذهب ص ٨٤ ج ٦ .

ان معركة (مرج دمشق) ومعركة (شقحبار) مبعث على الفخار والتيه ولكن الامام ابن تيميه كان أبعد ما يكون عن الزهو والغرور .

لقد كان الامام ابن تيميه في جهاده يمثل بلغة العصر القيادة الروحية للجيش والقوة المعنوية للمحاربين (١) .

كثيرا ما ارتفعت أرواح الجنود حين كانوا يسمعونه مُحمسًا وكثيرا ما شد أزرهم حين يرونه لهم مبشرا ومؤملا .

وهو في كل أحيانه مشاركا ومحاربا وناصحا ومرشدا وإلى الجهاد داعيا (٢) جاهد بنفسه وقلمه ولسانه . ونطق بكلمة الحق . وما أهمه ان السلطان جائر لإن ثمن الجهر بالحق ظِلُّ العرش يوم يلقى اللّه .

فكانت كلمة الحق ظله تسير أينما سار لم يمنعه الجور من اعلانها وكانت كلمة الحق أمانة لم يمنعه السجن من أدائها .

وكانت كلمة الحق رسالة . أبى الا ان يبلغها عن اللّه ورسوله ويؤديها حق ادائها . ولم يقلل من شان جهاده بالكلمة جهاده بالسيف بل كان ميدان القتال تطبيقا للعلم وتقوية له بالعمل ولقد رأى في علماء الصحابة فرسانا مجاهدين فأراد أن يقتفى أثرهم ويحذو حذوهم ويتتبع خطاهم .

وهكذا كان الامام ابن تيميه من محراب العلم إلى ميدان القتال .

● **محنته** (٣) :

بلغ الامام ابن تيميه حد الذروة وقد أثارت منزلته حقد من لم يبلغ مبلغه .

---

(١) السلوك للمقريزى ص ٤٢٧ ج ١ ملخصا .

(٢) العقود الدرية لابن عبد الهادى ص ١٢٠ ملخصا .

(٣) المقصود بالمحنة هنا سجنه وتقييد حريته .

يقول الشيخ أبو زهرة [١] قد وجد الحسد الحطب الذى ينفث فيه النار ويحرق بها المحسود . فان قول الحق لم يجعل له صديقا .

قاد الجيوش لمحاربة الشيعة ورد على الاشاعرة وأنكر على المعتزلة وحارب الصوفية .

ولقد كان الامام ابن تيميه ومن تابعه من الحنابلة فى جانب وعقائد الفقهاء حينئذ فى جانب آخر فقد كانوا يعتقدون بعقيدة الاشاعرة والماتردية . فالاشعرية على وجه الخصوص كانت منتشره فى عهد الدولة الايوبية وقد حملوا الناس على اتباعها كما يقول المقريزى فى خططه .

وكان ابن تيميه حنبلى النشأة والمذهب والعقيدة وكان يرى الاشاعرة وهم يهاجمون الحنابلة ويتهمونهم بالتجسيم والتشبيه .

وكان قد درس عقيدة الاشاعرة وطريقتهم وعرف مدى بعدهم أو قربهم من الكتاب والسنة . فنصب نفسه للدفاع عن الحنابلة لتمسكهم بالكتاب والسنة ونفى أنهم مشبهة أو مجسمة .

ودلل على أنهم أهل الاثر وهم السلف أهل السنة والجماعة .

وكان فى رده حادا قاسيا وكانت حدته سببا فى مجافاته والبعد عنه ومن هنا غضب عليه الفقهاء والمخالفون ، وعمدوا الى الكيد له . فكانت المحن الاربع التى ابتلى بها .

١ - المحنة الاولى : وكانت فى مصر ذهب اليها طائعا مختارا على الرغم من تحذير نائب السلطان له من ذهابه لانه يعلم ما يدبر له هناك ولكنه يقول له فى ثقة (ان فى الذهاب مصلحة كبيرة ومصالح كثيرة) [٢] .

---

(١) ابن تيميه حياته وعصره اراؤه وفكره ص . ٥ ملخصا .

(٢) تاريخ ابن كثير ص ٣٨ ج ٤

ولعله كان يقصد من المصالح تنوير الجماهير وتصحيح العقائد ونشر الخير بين الناس . وكل هذه دعوة الى الله .

وادعى عليه انه يقول ان الله فوق العرش حقيقة وأنه يتكلم بصوت وحرف ولم تترك له فرصة الدفاع فكانت النتيجة معروفة والحكم مسبقا فحبس فى الجب وكان ذلك سنة ٧٠٥ هـ .

٢ - المحنة الثانية :

وقد كانت بينه وبين الصوفية حين قالوا بوحدة الوجود فسووا بين الموجود والوجود وسووا بين الخالق والمخلوق واسقطوا التكاليف - الشرعية فانبرى الامام ابن تيمية لدحض هذا الباطل وحمل على الصوفية فحملوا عليه وضاقت الدولة بكثرة المجادلات والمنازعات بينه وبين الصوفية فخير بين أمور ثلاثة اما أن يذهب طليقا الى دمشق أو الاسكندرية ولكن محبوسا فكره ، أو يسجن فى مصر محبوسا جسمه ولكن طليقا فكره .

فاختار حبس جسمه على حبس فكره .

ولكن أحبابه اختاروا له ان يذهب الى دمشق وبينما هو فى الطريق الى دمشق فى شوال عام سنة ٧٠٧ هـ اذ جاءه رسول من الدولة يعلمه أنها لا ترضى الا بحبسه . فرجع الى الحبس وقد تغيرت قلوب العلماء له بدل ان كانت عليه [١] وأصبحوا فى صفه معترفين له بالعلم والفضل ولما كثر أتباعه ومحبوه فى القاهرة أوعز أعداؤه من الصوفية بعزله فى الاسكندرية ولكنه كان كالشمس مضيئا أينما حل فلم يكن أحباب الامام ابن تيمية فى الاسكندرية بأقل منهم فى القاهرة .

ولكنه خرج بعد سنوات سبع قضاها فى مصر الى دمشق وهناك كانت محنة محنة أخرى [٢] .

---

(١) تاريخ ابن كثير ص ٤٦ ج ١٤

(٢) المرجع السابق ملخصا .

٣ - المحنة الثالثة :

وكانت بسبب الافتاء الذى تكرر منعه منه ولكنه لم يمتنع فانعقد المجلس بحضرة نائب السلطنة وحضرة القضاة والفقهاء وعاتبوا الشيخ على الافتاء ولكنه أصر فقرروا حبسه فى قلعة دمشق فى يوم ٢٢ من رجب سنة ٧٢٠ هـ . ثم كان الافراج فى اليوم العاشر من محرم سنة ٧٢١ هـ [١] .

٤ - المحنة الرابعة :

وفى هذه المرة بحث الحاقدون عن تهمة يلصقونها به فكانت تهمته حينئذ منع زيارة القبور التى هى فى الحقيقة منع شد الرحال الى قبور الاولياء والانبياء بما فيهم قبر النبى ﷺ فعنده ان الرحال تشد الى ثلاثة مساجد وليس فى المقابر حديث صحيح يبيح شد الرحال اليها . بل ثبت النهى الصريح من رسول الله ﷺ حيث يقول (لا تتخذوا قبرى عيدا) .

فلما كان يوم السابع من شعبان سنة ٧٢٦ اعتقل الامام ابن تيميه فى قلعة دمشق .

والعجيب ان يذهب الى سجنه راضيا مستبشرا .

وحقا لقد كان الرضا جنته . حين قال : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الاخرة [٢] .

قال عن سجنه فى القلعة :

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعمة ثم قال المحبوس من حبس قلبه عن ربه .

وقال : ما يصنع أعدائى بى جنتى وبستانى فى صدرى أين رحت فهى معى لا تفارقنى . حبسى خلوة ، واخراجى سياحه ، وقتلى شهادة [٣] ، وهنا تكون المحنة منحة .

---

(١) انظر شذوات الذهب ، والعقود الدرية ، والوافى بالوفيات وغيرها .

(٢) العقود الدرية ص ١١ وما بعدها ملخصا .

(٣) العقود الدرية لابن عبد الهادى ص ١٢

ولكنها لم تطل على أى حال .. لا محنة ولا منحة .

فصعدت روحه الى الرفيق الاعلى فى العشرين من شوال سنة ٧٢٨ هـ وصمتت نفسه الى الابد ولكن تراثه مازال حيا يتحدث ويتذوقه الناهلون وما زالت مكنوناته تكتشف ويتدارسها الباحثون .

* * *

الفصل الثانى
عقيدة الامام ابن تيمية

لقد اتضح من دراسة عصر ابن تيمية وما كان فيه من الاتجاهات المتناحرة والمتصارعة للنيل من الاسلام وما كان لتعدد الفرق واختلافها وما تولد عنها من جدال عقيم وخصومه فى الدين .

كل تلك العوامل كان لها أثرها فى أن يرى الامام ابن تيمية ان الجهاد الفكرى لا يقل أهمية عن الجهاد العسكرى .

ولهذا أخذت العقيدة ودراستها منه شطرا هاما من حياته ان لم تكن حياته كلها .

ومن هنا كانت الكتابة عن عقيدة الامام ابن تيمية تحتاج الى الاسفار الطوال

ولكنى سأبذل جهدى بعون الله تعالى فى اجمالها ثم تفصيل ما يحتاج منها الى تفصيل .

ولقد تطرق الامام ابن تيمية الى سائر قضايا العقيدة ، وكان تعدد الملل والنحل فى عصره - كما سبق (١) - من أهم العوامل فى بحث العديد من هذه القضايا المتعددة والمسائل المختلفة .

ومن هذه القضايا والمسائل سنختار النماذج التالية :

١ - الايمان :

بين الامام ابن تيميه أنه قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح (٢) .

---

(١) انظر الحالة الاجتماعية فى عصر الامام ابن تيميه من هذا البحث .

(٢) الايمان لابن تيميه ص ١٤٦ .

ورد على القائلين بأن الايمان هو التصديق فحسب بأن هذا تخصيص بلا مخصص فالتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح كما قال عليه الصلاة والسلام (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) .

٢ - زيادة الايمان ونقصانه :

ورد على القائلين بأن الايمان لا يزيد ولا ينقص : بأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . كما جاءت بذلك الايات والاحاديث .

قال تعالى : ﴿ ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ﴾ (١) . وقال ﷺ : « الإيمان يزيد وينقص » .

٣ - القضاء والقدر :

بين الامام ابن تيميه ان الايمان بالقدر خيره وشره من اللّٰه تعالى .

وبين شمول قدرة اللّٰه وارادته لقدرة العبد وارادته . يعنى ان للعبد فعلا وارادة واللّٰه خلقه وخلق فعله وارادته كما قال تعالى ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون الا ان يشاء اللّٰه رب العالمين ﴾ (٢) .

وبين أن شمول القدرة والارادة الالهية ثابتة بالنص وان القدرة والارادة البشرية ثابتة بالشعور والحس .

ولا سبيل لانكار ما ثبت بالنص ولا مجابهة الحس وأن الانسان بحسه وشعوره يتحمل مسئولية عمله . وقد كلفه اللّٰه من العمل ما يسعه فيجب عليه أن يعمل . ولا يجوز ان يحتج فى الذنوب بقدر اللّٰه تعالى .

بل عليه الا يفعلها ، واذا فعلها فعليه ان يتوب منها كما فعل آدم عليه السلام وهذه هى الادمية . ولا يحتج بالقدر الا الابليسية .

وبهذا يرد الامام ابن تيميه على القدرية القائلين باستقلال ارادة الانسان وفعله وأنه يخلق أفعال نفسه ولا شأن للّٰه فيها .

---

(١) الفتح : ٤

(٢) التكوير : ٢٨ ، ٢٩

ويرد به أيضا على الجبرية القائلين بأن العبد مجبور ليس له فعل ولا ارادة على الحقيقة وانما هو كالريشة فى مهب الريح .

وبذلك استطاع أن ينهى ذلك الجدل العقيم وأن يقطع على المحتجين بالقدر فى ارتكابهم للمعاصى . فأثبت للعبد ارادة وفعلا على الحقيقة . ولكنه بين أن العبد لم يخلق فعله وارادته وانما خلق الله فعله وارادته كما خلقه . ومن هنا فالعبد مريد لان الله اراد له ان يكون كذلك .

وهو قادر على فعل الامر وتركه لان الله أقدره على ذلك . ولذلك فعليه ان يعمل ولا يحق له ان يحتج فلله الحجة البالغة (١) .

٤ - التوحيد :

وبين فيه أن الاعتراف بوحدانية الخالق وحده لا يكفى لان المشركين اعترفوا بأن الله خالق كل شيء ومع ذلك أشركوا فى العبادة فأكد أنه لابد من توحيد العبادة والتوجه بها إلى الله وحده لا شريك له ومن لوازم التوحيد ابطال ما يناقضه من العقائد الفاسدة ومنها :

ابطال القول بوحدة الوجود أو الوحدة بين الخالق والمخلوق .

وابطال التوسل والوسيلة بغير ما شرعه الله أو بينه رسول الله ﷺ .

وابطال الدعاء والتوجه الى الاموات .

وابطال ان تشد الرحال إلى غير ما سنه رسول الله ﷺ .

وابطال الاعتقاد فى أن هناك من ينفع أو يضر سوى الله تعالى .

وابطال القول باسقاط التكاليف الشرعية .

كل تلك العقائد الفاسدة المناقضة للتوحيد رد فيها على الملحدين والمبتدعين وأبطل زعمهم وبين أصول العقيدة السليمة فى التوسل والوسيلة وان ذلك لا يكون إلا بما شرع .

---

(١) رسالة الإمام ابن تيمية فى القضاء والقدر ملخصا .

وأن التوسل يكون بالاحياء فيما يقدرون عليه ويكون بالاعمال الصالحة التى افترضها الله . وسنها رسول الله ﷺ (١) .

وكان يبين أن اتباع الصحابة فيما جاء عن الله ورسوله هو العقيدة الصحيحة والطريق المستقيم وبين أن الصحابة رضى الله عنهم استغاثوا بالرسول ﷺ حال حياته فلما مات استغاثوا بالعباس لانه حى بينهم . وبين ان الاعمال الصالحة تشفع لاصحابها كقصة الثلاثة الذين باتوا فى الغار وانطبقت عليهم الصخرة فتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم ففرج عنهم وهو معنى قوله تعالى ﴿ وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ .

وبين ان الدعاء لا يكون لغير الله لانه مخ العبادة (٢) .

﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾

وان دعاء غير الله شرك يتنافى مع التوحيد .

﴿ ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾

وبين أن النافع والضار انما هو الله .

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ﴾

وبين أن الرحال لا ينبغى ان تشد لزيارة المقابر لان الرسول ﷺ لم يشرع شد الرحال الا إلى ثلاثة مساجد لا مقابر .

وان اسقاط التكاليف طعن فى دين الله . وابطال لأوامر الله وقد أمرنا الله بالعبادة ولم يسقطها عن أحد من خلقه حتى رسول الله ﷺ فلقد امر الله عباده فقال ﴿ يايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

وأمر رسوله فقال ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

---

(١) الايمان لابن تيميه ملخصا .

(٢) رسالة الإمام ابن تيمية فى التوسل والوسيلة ملخصا .

وبهذا حاول الامام ابن تيمية ان ينقل الناس من التوحيد النظرى المجرد الى التوحيد العملى التطبيقى . أى توحيد العبادة ، لأن توحيد الربوبية وحده لا يكفى .

وبعد .. فتلك نماذج من القضايا العقدية التى تناولها الامام ابن تيميه . وبالتتبع لمسلكه وتناوله لهذه القضايا نجد أنه كان يجمل المسائل كلها أحيانا فى رد على سؤال واحد ..

وأحيانا يفصل فى المسألة الواحدة ويفرع الى درجة الاستطراد .

وقد أجمل عقيدته فى منظومة تسمى باللامية (١) .

اجابة لمن سأله عن مذهبه واعتقاده .

وقد تتبعت ما كتبه الامام ابن تيميه من مسائل العقيدة المتفرقة فى كتبه ورسائله فلم أجدها تخرج عما كتبه فى منظومته المشار اليها .

لهذا كان من الجدير ان نتبين عقيدته من خلالها . فهى من أجمع ما كتبه فى العقيدة ونسبتها ثابتة اليه بعد تحقيقها .

مجمل عقيدة الامام ابن تيميه من خلال منظومته اللامية :

لقد بدأ الامام ابن تيمية منظومته ببيان مذهبه وعقيدته مبينا أنها ثابتة لا تتغير ولا تتحول . بقوله :

---

(١) مخطوطة بالمكتبة السعودية بالرياض . وقد نشرت أخيرا مع شرح لها باسم « اللآلىء البهية فى شرح لامية شيخ الاسلام ابن تيميه » تأليف الفقير إلى الله العلى راجى رحمة ربه أحمد ابن عبد الله المرداوى الحنبلى .

الناشر مؤسسة النور بالرياض بالمملكة العربية السعودية .

يا سائلى عن مذهبى وعقيدتى	رزق الهدى من للهداية يسأل
اسمـــع كـــلام محقق فى قوله	لا ينثنـــى عنـــه ولا يتبدل

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي رزق الهدى من للهداية يسأل
اسمع كلام محقق في قوله لا ينثني عنه ولا يتبدل

ثم بين عقيدته في مودته لاهل بيت النبي ﷺ وحبه لاصحابه رضي الله عنهم وأن هذه المودة والحب من الطاعات التي يتوسل بها شرعا الى الله تعالى.

لان الله أمر بها. فيقول:

حب الصحابة كلهم لي مذهب ومودة القربى بها أتوسل

ثم بين عقيدته في القرآن وأنه كلام الله منه بدأو اليه يعود وأنه غير مخلوق بقوله:

وأقول في القرآن ما جاءت به آياته فهو القديم [1] المنزل

ثم تحدث عن عقيدته في الصفات وبين أنه يثبتها كما أثبتها الله لنفسه وكما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم دون تعطيل أو تأويل ودون تشبيه أو تمثيل وأن عقيدة السلف الاوائل هو امرارها كما جاءت دون تكييف أي دون بحث وراء كيفها وكنهها وأنه لا ينبغي أن نترك القرآن وهو دليلنا لنستدل بما سواه مما توحيه الينا التأويلات والتخييلات ونترك ما قال الله إلى ما قاله سواه.

وفي هذا يقول:

وأقول قال الله جل جلاله والمصطفى الهادي ولا أتأول
وجميع آيات الصفات أمرها حقا كما نقل الطراز الأول
وأرد عهدتها إلى نقالها وأصونها عن كل ما يتخيل
قبحا لمن نبذ القرآن وراءه وإذا استدل يقول: قال الاخطل

---

(١) لم أعثر فيما اطلعت عليه ان الامام ابن تيميه يعبر « بالقديم » وانما يعبر بأنه غير مخلوق إلا إذا كان من باب الاخبار كالشاهد هنا.

ثم بين عقيدته فى رؤية اللّه تعالى فى الاخرة .

وأن هذه الرؤية حقيقية وأن النصوص جاءت صريحة بذلك وبين أن اللّه تعالى ينزل الى سماء الدنيا بغير كيف كما استوى على العرش بغير كيف فكذلك النزول فهو نزول يليق بجلاله تعالى لا يعلم كيفه وكنهه الا اللّه عز وجل . وفى هذا يقول :

والمؤمنــــون يـــــرون ربهـــم وإلى السماء بغير كيف ينزل

ثم بين عقيدته فى الميزان والحوض والصراط وسائر ما أخبر به اللّه ورسوله من أمور الغيب يجب التصديق بكل ذلك والايمان بأنها حق لا شك فيه وأن الاعمال توزن وأن المتمسكين بالسنة يردون الحوض ويشربون منه وان الناس يمرون على الصراط فمنهم ناج ومنهم هالك . وفى هذا يقول :

وأقــر بالميــزان والحوض الذى أرجـــو أنـــى منه ريا أنهل

وكذا الصراط يمد فوق جهنم فمسلـــم ناج وآخر مهمـــل

ثم يتحدث عن عقيدته فى الجنة والنار وأنهما مخلوقتان للبقاء وأنهما حقيقتان وأعد اللّه الجنة للمتقين وأعد النار للمجرمين .

وعنده أن الجنة والنار مخلوقتان للبقاء لا للفناء (١) .

وفى هذا يقول :

والنار يصلاها الشقى بحكمه وكذا التقى إلى الجنان سيدخل

ويتحدث عن نعيم القبر وعذابه وعن سؤال الملكين للميت عن ربه وعن دينه وعن نبيه وأن القبر اما روضه من رياض الجنة واما حفرة من حفر النار وأن ذلك حق والايمان به واجب .

---

(١) لقد نسب للامام ابن تيميه رأى آخر مخالف . يقول ان النار ستفنى وسأوضح ذلك اثناء عرض الموضوعات المختلف فيها والتى ستكون محل البحث والمناقشة ان شاء اللّه تعالى .

وفى ذلك يقول :

ولكل حى عاقل فى قبره عمل يقارنه هناك ويسأل

ويختم منظومته ببيان أن هذه عقيدته كما هى عقيدة السلف الصالح كالشافعى ومالك وأبى حنيفه وابن حنبل رضى الله عنهم وأنهم متبعون ومتابعون لرسول الله ﷺ فطريقهم هو طريق الاتباع لا الابتداع فمن تبع ما تبعوه فهو على الهدى . ومن ابتدع فهو فى ضلال مبين وفى هذا يقول :

هـــذا اعتقاد الشافعى ومالك وأبـــو حنيفـــة ثم أحمد ينقل

فان اتبعت سبيلهـــم فموفـــق وان ابتدعت فما عليك معول

والى هنا تنتهى لامية الامام ابن تيميه التى اجمل فيها عقيدته وبعد هذا الاجمال يأتى التفصيل فى أهم القضايا العقدية التى كانت مثارا للعراك والجدل تلك هى قضية الاسماء والصفات .

الاصل الذى اعتمد عليه الامام ابن تيميه فى هذه القضية :

لقد أثبت الامام ابن تيميه أن الاصل فى قضية الاسماء والصفات هو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله نفيا واثباتا (١) .

فيجب اثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله .

وكذلك يجب نفى ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ .

ففى النفى والاثبات لابد من الالتزام بالنص الثابت الصحيح فلا ينفى عن الله تعالى شيء أو يثبت له شيء بمجرد الرأى والهوى وانما يدور النفى والاثبات على ما وردت به النصوص .

وبين أن هذا هو مذهب السلف وأن هذه طريقتهم . فيقول :

---

(١) الرسالة التدمرية لابن تيميه ص ٧

ان طريقة سلف الامة وأئمتها اثبات ما أثبته الله من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل .

ثم يقول :

فطريقتهم تتضمن اثبات الاسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات .

اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل (١) .

كما قال تعالى ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾

ففى قوله ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ رد للتشبيه والتمثيل .

وقوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد للالحاد والتعطيل .

ويقول فى موضع آخر : « فلابد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه (٢) .

ويؤكد هذا فى أكثر من موضع فى رسائله وتأليفاته وفتاويه (٣) .

وعلى هذا الاصل يبنى اسسه وقواعده فى الاسماء والصفات .

ويمكن اجمالها فيما يأتى :

١ - اثبات الصفات ونفيها يكون بحسب ما جاء فى الكتاب والسنة .

فما جاء فى كتاب الله فهو الحق والصدق ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وما جاء فى السنة النبوية الثابتة فهو الصحيح الذى لا شك فيه حيث جاء به المعصوم صلى الله عليه وسلم ﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ﴾ .

---

(١) التدمرية ص ٨ (٢) المرجع السابق ص ٢٠

(٣) انظر الرسالة المحمدية . والرسالة التدمريه . والرسالة العرشية والواسطية ومجموعة الرسائل والمسائل وغيرها . ومنهاج السنة واقتضاء الصراط المستقيم والعقل والنقل ومجموع الفتاوى الكبرى .

وقياس الاولى هو طريق اثبات الكمال لله تعالى فما ثبت أنه كمال فى حق المخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق فهو تعالى أولى به .

وكل نقص تنزه عنه المخلوق . فالخالق تعالى أولى بالتنزيه عنه [1] والكمال والنقص هما قطبا الرحى فى موضوع الصفات عند الامام ابن تيميه نفيا واثباتا فكل ما تضمن كمالا لا نقص فيه فالله أولى به وكل ما كان نقصا من صفات المخلوقين أو كان كمالا متضمنا لنقص بأى وجه من الوجوه فالله تعالى أولى أن ينزه عنه .

والكمال والنقص لا يعرف الا بالشرع لا بمجرد المقايسة على المخلوقين وعند الامام ابن تيميه لا يكفى فى الاثبات مجرد نفى التشبيه ، يعنى ان الاقتصار على ما قد يظن أنه كمال مع نفى المماثلة ليس كافيا فى التنزيه . بل لابد من الاعتماد فى ذلك على ضابط مانع .

ولذلك يقول فى رسالته [2] .

(فما سكت عنه الشرع نفيا واثباتا ولم يكن فى العقل ما يثبته ولا ينفيه سكتنا عنه . ونثبت ما علمنا ثبوته من ذلك وننفى ما علمنا نفيه) .

والقرآن الكريم قد راعى فى الاثبات والنفى معنى الكمال والنقص ولم يراع معانى التركيب والحركة والحيز والجهة التى تحدث عنها المتكلمون . فهو سبحانه موصوف بكل صفات الكمال الواردة فى القرآن وليس فى وصفه بشىء منها ما يوجب الجسمية ولا الحيز ولا الجهة ولا التركيب بل هذه المعانى والالفاظ مأخوذة من قياس الغائب على الشاهد ومن هنا فهى معان خاطئة .

وقد بين القرآن الكريم أن اثبات هذه الصفات كمال ونفيهما نقص ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ فالمعلوم أن من يخلق اكمل ممن لا يخلق ومما يدل على ان

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ص ٤٦ ج ٥

(٢) الرسالة التدمرية ص ٨٥.

سلبها نقص واثباتها كمال ان ابراهيم عليه السلام عاب على ابيه أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ فدل على ان السميع البصير الغنى أكمل ممن لا يكون بتلك الصفات (١) .

٢ - تنزيه الله تعالى يجب ان يكون بالنقل لا بالعقل :

وقد بنى الامام ابن تيميه ذلك على أن الذات الالهية لا سبيل الى معرفتها بالكنه والحقيقة وجميع المتكلمين متفقون على ذلك وكذلك أساطين الفلاسفة معترفون بأنه لا سبيل للعقل الى اليقين في الالهيات (٢) .

فان كان ذلك بالنسبة لذات الله فكذلك يكون بالنسبة لصفاته ويعيب الامام ابن تيميه على المتكلمين ان يكون طريقهم فى تنزيه الله هو العقل وقد تبين باعترافهم أنه لا سبيل له الى اليقين فى الالهيات .

واذا كان الامر كذلك فالسبيل الوحيد لتنزيه الله تعالى هو النقل لانه لا يعلم الكمال والنقص بالنسبه لله الا عن طريق ما ورد عن الله أو عن طريق رسول الله ﷺ .

ولا يعلم أحد بتنزيه الله تعالى أكثر من الله .

فهو تعالى أعلم بنفسه وبما يجب له أو ينفى عنه .

ويأخذ الامام ابن تيميه على الفلاسفة والمتكلمين أنهم ما لجأوا الى التأويل إلا فرارا من التعدد والتركيب والافتقار والمشابهة للحوادث .

ومع ذلك فما لجأوا اليه (٣) أوقعهم فيما فروا منه (٤) .

---

(١) الرسائل والمسائل ص ٤٦ ج ٥

(٢) مجموع فتاوى ابن تيميه ص ٣٠ ج ٥

(٣) وهو التأويل

(٤) وهو المشابهة للحوادث

ويضرب لذلك مثلا بالمعتزلة وهم أكثر المتكلمين أيغالا فى التأويل لما نفوا الصفات وأثبتوا الاسماء [1] .

فقالوا : أنه حى عليم وقالوا : لا يوصف بالحياة والعلم لان هذه أعراض لا تقوم الا بالاجسام لم يستطيعوا بذلك أن يتخلصوا مما فروا منه لانه يقال لهم : إذا كنتم لا تتصورون عالما قادرا الاجسما فكذلك لا نتصور حيا عليما الا جسما ولا يعقل مسمى بذلك الا جسما . فما كان جوابكم عن الاسماء كان جوابنا عن الصفات [2] .

وكذلك الاشاعرة : لما تأولوا المحبة والرضى على معنى الارادة لان ذلك يستلزم المشابهة للحوادث . فيقال لهم : نظير ما قيل للمعتزلة : ولو خاطبناهم بلغتهم لقلنا لهم : ان الارادة تستلزم العزم والهم بفعل الشىء بعد أن لم يكن وهذا من صفات المحدثين [3] .

يتساءل ابن تيمية هل المعنى الذى فروا منه بالتأويل تم لهم ؟ أو هل هل سلم لهم فيما ذهبوا إليه ؟ .

ثم يتساءل أخيرا من أين لهؤلاء المتكلمين هذه الأصول التى جعلوها مقياسا للتنزيه ؟ .

هل تلقوها من الكتاب والسنة ؟ .

ثم يقول متهكما بما صارت عليه حالهم من أنهم ما نصروا دينهم وما كسروا عدوهم !! .

٣ - نفى مماثلة اللّه تعالى لشىء من خلقه فى ذاته وصفاته وأفعاله :

فهو سبحانه وتعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء وكل ما ثبت له من صفات الكمال فهو مختص به لا يشرك فيه سواه .

---

(١) العقيدة التدمرية ص ٨٥ وما بعدها . ملخصا

(٢) الرسالة التدمرية لابن تيميه ص ١٩ (٣) الفتاوى ج ٥ الاسماء والصفات .

وهذا يقتضى ان ظاهر القرآن والسنة لا يؤدى الى التشبيه أو التجسيم لان ما يثبت للّه عن طريقهما ليس من جنس ما يثبت للحوادث وان كان هناك من الاسماء ما يطلق على صفات اللّه كما يطلق على صفات خلقه فهو اشتراك فى الاسم فحسب لا يقتضى المماثلة فى الحقيقة .

ومن هنا فالاثبات ليس تشبيها .

فاذا قيل : اللّه عالم والانسان عالم فليس العلم كالعلم لان اللّه يوصف بالعلم الذى يليق به والانسان يوصف بالعلم الذى يليق به .

وفى هذا يقول ابن تيميه :

ان الصفة تتبع الموصوف فان كان الموصوف هو الخالق . فصفاته غير مخلوقه وإن كان الموصوف هو المخلوق فصفاته مخلوقه [1] ويستدل على نفى المماثلة بقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ .

وعقلا بأنه لو ماثل غيره فى شىء للزم أن يكون هو والشىء الذى ماثله فيه ممكنا قابلا للعدم بل معدوما مفتقرا إلى فاعل [2] .

٤ - لا يصح البحث عن حقيقة اللّه تعالى وكنهه فكذلك صفاته :

لان اللّه تعالى اجل من أن تدرك العقول كنهه وحقيقته فكذلك صفاته لان ما يقال فى الصفة هو ما يقال فى الموصوف .

وقد جرى الشرع على اثبات وجود الصفات لا اثبات كيفها وكنهها .

وفى هذا يقول الإمام ابن تيميه [3] :

ان القرآن جرى على اثبات وجود اللّه لا على إثبات كيفيته وإذا كانت كل صفة تتبع موصوفها فيكون الكلام فى الصفات مقصودا به اثبات وجود الصفة وليس اثبات كيفها .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ص ٥٤ ج ٢
(٢) منهاج السنة ص ١٩٥ ج ١
(٣) مجموع الفتاوى

وهذا القول يجب أن يطرد فى الحديث عن جميع الصفات لا فرق بين صفة وأخرى .

وإذا كانت ذاته تعالى لا تماثل الذوات فكذلك صفاته لا تماثل الصفات [١] .

تلك هى الاسس التى بنى عليها الامام ابن تيميه قواعده فى قضيه الأسماء والصفات لم يفرق بين صفة وصفه بل جعلها عامة فى جميع الصفات حتى الصفات الخبرية [٢] التى أنكرها الفلاسفة والمتكلمون بل إنه عنى بها عناية بالغة ورد على المنكرين لها فى معظم رسائله التى كتبها فى العقيدة [٣] .

ويمكن القول بأن السبب فى عناية الإمام ابن تيميه بالمبالغة فى اثباتها هو انكار جمهور المتكلمين والفلاسفة لها .

وزعمهم باستحالة اتصاف البارى سبحانه وتعالى بها مما أدى بهم إلى تأويل ما ورد فيها من النصوص إلى معان تليق بذاته المقدسة .

واعتبارهم القول بثبوتها على الحقيقة تشبيها وتجسيما ولعل الإمام الرازى [٤] .

كان من أكبر المعارضين فى اثبات هذه الصفات الخبرية وقد ألف كتابه (تأسيس التقديس) [٥] ردا على المثبتين لهذه الصفات .

---

(١) الرسالة الحموية ص ٤٤

(٢) الصفات الخبرية هى ما كان الدليل على ثبوتها السمع دون استناد الى نظر عقلى كاستوائه تعالى على العرش ونزوله الى السماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة ومحبته ورضاه على المؤمنين وسخطه على الكافرين . وكالوجه واليدين والعين والقدم وغيره ذلك مما ورد به السمع .

انظر رسالة الإمام محمد عبده ص ٤٥ ، وتلبيس الجهمية ص ٧٦٥ وما بعدها .

(٣) انظر الرسالة المحمدية والواسطية والتدمرية والعرشية وغيرها وقد جمعت معظم هذه الرسائل فى مجموعة (تسمى مجموعة الرسائل الكبرى) مطبوع بالمطبعة المنبرية بمصر فى خمسة أجزاء .

(٤) هو فخر الدين محمد بن عمر اليمى ت ٦٠٦ هـ إمام فى علم الكلام وإمام فى التفسير انظر ٣٠١ من المنجد فى اللغة والإعلام .

(٥) يوجد الكتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٣٦٠ كلام رمزج

وحاول فيه اقامة البراهين النقلية والعقلية على استحالة اتصاف اللّٰه تعالى بها لما يترتب على ذلك من كونه تعالى جسما أو فى حيز أو مختصا بجهة واللّٰه تعالى منزه عن كل ذلك .

ومن النماذج التى ساقها فى كتابه قوله [(١)] :

فاستواؤه قهره واستيلاؤه . ونزوله بره وعطاؤه .

ومجيؤه حكمه وقضاؤه . ووجهه وجوده أو جوده وحباؤه .

وعينه حفظه وعونه واجتباؤه . وضحكه عفوه ، أو اذنه وارتضاؤه .

ويده انعامه وإكرامه واصطفاؤه [(٢)] .

ولهذا كانت عناية الامام ابن تيميه بالرد عليه وعلى من سلك مسلكه .

ويخلص رده وينتهى إلى وجوب اثبات هذه الصفات للّٰه تعالى لأنها مما أثبتها اللّٰه لنفسه أو أثبتها له رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم .

والمسلم عليه أن يثبت ما أثبته ولا ينفى إلا ما نفاه .

ولابد أن يكون دليله وسبيله فى ذلك هو الشرع لا سواه .

هكذا كانت وجهة نظره فى قضية الصفات .

وهكذا كانت الأسس التى بنى عليها قواعده فى هذه القضية .

والآن .. سنسوق أمثله تطبيقية على تلك القواعد لنرى إلى أى مدى كان تطبيقه لها ، ومدى قربه منها .

• عقيدته فى كلام اللّٰه تعالى :

ان عقيدة الإمام ابن تيميه فى مسألة كلام اللّٰه تعالى تبنى على الأصل الذى تبنى عليه مسائل الصفات .

---

(١) انظر خطبة الكتاب المذكور

(٢) اساس التقديس للرازى فى المقدمة .

ولما كانت صفة الكلام من صفات اللّه تعالى فيجب وصفه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل [١] .

وبعد بيان هذا الاصل الذى تبنى عليه صفة الكلام كسائر الصفات يرى أن اللّه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء وأن الكلام صفة قائمة بذاته تعالى وأنه يتكلم بها متى شاء باختياره وارادته .

ويثبت صفة الكلام للّه تعالى بما ثبت فى الكتاب والسنة [٢] .

وبأنه وقع الاتفاق على أنه تعالى متكلم ولا يعقل من المتكلم إلا من قام به الكلام وتكلم بمشيئته واختياره .

وأيضا بناء على قاعدة الكمال : من أن كل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به . وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه .

فكل ما كان صفة كمال فى حق المخلوق فهو أولى به وأحق لأنه لو لم يتصف بصفات الكمال لكانت مخلوقاته أكمل منه ولأنه لو لم يتصف بصفات الكمال لاتصف بنقائضها وهى صفات نقص واللّه منزه عن ذلك [٣] .

ومن المعلوم أن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم كما أن من يعلم أكمل ممن لا يعلم .

---

(١) فتاوى ابن تيميه ص ٥١٨ ج ٦

(٢) قال تعالى : ﴿ وكلم اللّه موسى تكليما ﴾ وقال صلى اللّه عليه وسلم فى هذا المعنى : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) ..

(٣) قد ذكر الضابط فى إثبات الكمال للّه عند الكلام على القواعد التى بنى عليها الإمام ابن تيميه عقيدته فى الصفات . والخلاصة أن هذا الضابط هو الشرع . وليس الهوى والرأى بمعنى أنه ليس كل ما نراه بأهوائنا كمال نثبته .

وكذلك من يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة .

ثم يقول [١] فتبين بهذا أن الله لم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك . وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه [٢] ولا لازما لذاته لزوم الحياة لها [٣] بل هو تابع لمشيئته واختياره ثم ينفى الإمام ابن تيمية أن كلام الله مخلوق وأنه بائن عنه .

وينفى ان القرآن أو التوراة أو الانجيل لازمة لذاته أزلا وأبدا بحيث لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وينفى أن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمات المعينة قديمة أزلية . بل يقول لم يزل الله متكلما إذا شاء بمعنى أن جنس كلامه قديم [٤] .

ثم يقول [٥] إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود .

ومعنى « منه بدأ » : أى هو المتكلم به فمنه بدأ لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن حق القول منى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾

وقوله تعالى :﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ .

وهذا خلافا للجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون ان الله خلق الكلام فى المحل .

---

(١) مذهب السلف القويم فى تحقيق كلام الله الكريم لابن تيميه ملخصا .

(٢) خلافا للمعتزلة القائلين بأن الكلام مخلوق منفصل عنه تعالى .

(٣) بخلاف الأشاعرة القائلين ان كلام الله تعالى لازم له كلزوم الحياة لذاته تعالى .

(٤) المرجع السابق .

(٥) مجموع فتاوى ابن تيميه ص ٣٢٨ ج ٦

● « ومعنى اليه يعود » :

أنه يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى فى الصدور منه آية ولا حرف كما جاء فى الآثار) (١) .

ويقول الإمام ابن تيمية (٢) إن اللّه تكلم بالقرآن حقيقة فهو كلامه لا كلام غيره ولا يجوز القول بأنه حكاية عن كلام اللّه ولا عبارة عنه بل إذا قرأ الناس القرآن الكريم أو دونوه لم يخرج عن أن يكون كلام اللّه تعالى فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا لا إلى من بلغه عنه مؤديا .

ثم يقول (٣) : واللّه تعالى تكلم به بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شيء منه كلاما لغيره لا لجبريل ولا لمحمد عليهما السلام : ولا غيرهما ولم يقل أحد من السلف ان جبريل أو محمدا عليهما السلام أحدثا ألفاظه أو تصرفا فى حرف واحد منها . ولم يقل أحد من السلف إن اللّه خلق ألفاظه فى الهواء أو فى الأشياء أو أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ . بل إن القرآن بلفظه ومعناه من اللّه تعالى . تكلم به بصوت نفسه وقرأه العباد بصوت أنفسهم ومع قراءتهم له بصوت أنفسهم فلم يخرج عن كونه كلام اللّه تعالى فإن قرأ العبد ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ كان هذا الكلام المقروء كلام اللّه لا كلام نفسه وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت اللّه .

ثم يقول (٤) :واللّه سبحانه نادى موسى بصوت وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحى بصوت . ويقول : لم ينقل عن أحد من السلف أنه قال إن اللّه يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ولا أنه أنكر أنه يتكلم اللّه بصوت أو بحرف .

---

(١) فتاوى ابن تيميه ص ٥٢٩ ج ٦

(٢) مذهب السلف القويم فى تحقيق كلام اللّه الكريم ملخصا

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ثم يستدرج قائلاً :

ولكن الحروف والأصوات التى تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده فإن الله لا يمثل المخلوقين فى شىء من صفاته .

وإذا كان هذا هو رأى الإمام ابن تيميه فى صفة الكلام وأنه كما رأينا يعتمد على أصلين :

أولهما : قاعدة الكمال .

وثانيهما : قاعدة التنزيه .

ولكن هل قاعدة الكمال على اطلاقها بمعنى أنه يحق لنا أن نصف الله بوصف من عند أنفسنا بناء على أنه صفة كمال ؟ إن ابن تيميه نفسه قال أن الضابط هو الشرع فى ذلك فهل استقام له هذا الضابط وهل قال الشرع أن لله صفة تسمى الحرف والصوت حتى تكون الحروف والأصوات صفات لله تعالى ؟ .

ان السلف يقولون إن الصفات توقيفية .

فما موقف الشرع من ذلك وهل وقف ابن تيمية عند حدود الشرع كما هو مذهبه ؟ .

وهل قاعدة التنزيه كذلك على اطلاقها .

بمعنى هل لنا أن نصف الله بصفات من عند أنفسنا فنقول له حرف ليس كحروفنا ؟ .

ان الظاهر أن الأمر ليس كلك وإنما يجب أن نكون محكومين بقاعدة الكمال والتنزيه بالشرع والإجماع الذى عليه الأمة .

لأن الأثبات لا يكون إلا بدليل والنفى لا يكون إلا بدليل كذلك .

وهناك أمر آخر ينبغى التنبيه إليه قبل النقد والتحقيق .

وهو أن الإمام ابن تيميه يجعل كلام اللّه تعالى متعلقا بمشيئته واختياره مع أن ما يتعلق بالمشيئة والأختيار لا يكون إلا حادثا فهل يجوز قيام الحوادث بذاته تعالى .

إن الذى يظهر من خلال نصوصه وآرائه أنه لا يمنع قيام الحوادث بذاته تعالى ويستدل بالعقل والنقل .

فالنقل كقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ فهنا أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم لم يأمرهم فى الأزل والعقل : أن اللّه تعالى ينادى عباده فى يوم معين حين يسألهم عن اجابة المرسلين أو عن الشركاء ولا شك أن هذا اليوم الذى سألهم عنه حادث كائن بعد أن لم يكن .

وهو سبحانه حينئذ فقط يناديهم ولم ينادهم قبل ذلك .

ثم يقول إن العقل والنقل متضافران فى ذلك .

فإن قيل له بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

فيجيب بأن هذا صحيح إن أريد آحاد الحوادث وأفرادها المتعاقبة فى الوجود (١).

أما إن أريد جنس الحوادث فهو باطل . لأن الجنس يجوز أن يكون قديما وإن كان كل فرد من أفراده حادثا لأنه لا يلزم من حدوث كل فرد حدوث الجملة لأن للجملة حكما غير حكم الأفراد (٢) وقد يقال إن قدم الجنس وحدوث الأفراد ليس مسلماً لأن الجملة ليست شيئا أكثر من الأفراد مجتمعة فاذا فرض أن كل فرد منها حادث لزم من ذلك حدوث الجملة قطعا (٣) .

---

(١) وبيان ذلك أن أفراد الحوادث وآحادها المتعاقبة فى الوجود لكل واحد منها مبدأ ونهاية فما لم يخل منها فهو إما أن يكون معها أو بعدها وعلى كلا التقديرين يكون حادثا . لأنه إن كان معها فهما مقترنان والمقترن بالحادث حادث وإن كان بعدها فما بعد الحادث حادث من باب أولى .

(٢) منهاج السنة لابن تيميه ص ١١٨ وما بعدها ج ١

(٣) ابن تيميه السلفى د . هراس ص ١٣١

تلك كانت عقيدة الإمام ابن تيميه فى صفه الكلام بما له وما عليه مما سيظهر أثناء المقارنة والتحقيق إن شاء اللّه تعالى .

والأن سأعرض بعضا من نصوصه فى بعض رسائله التى كتبها عن العقيدة مجملة يقول فى العقيدة الواسطية (١) :

ومن الإيمان باللّه الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف فى كتابه . وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل . وأهل السنة يؤمنون بأن اللّه سبحانه ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ . فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء اللّه وآياته . ولا يكيفون (٢) ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لاسمى له ولا كفء ولا ند (٣) .

قال عنها الإمام ابن تيميه نفسه فى المقدمة (أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) .

وقال عنها د . محمد خليل هراس إنها من أجمع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيميه فى عقيدة أهل السنة والجماعة .

وفى مجال تنزيه اللّه تعالى وعدم تشبيهه بخلقه بشىء من الأقيسة والإيمان بما قاله اللّه فى حق نفسه وما قالته رسله يقول (٤) .

---

(١) العقيدة الواسطية ص ١٧

(٢) أى لا يبحثون عن كيفها وكنهها

(٣) السمى هو النظير . قال تعالى هل تعلم له سميا . والكفء هو المساوى (ولم يكن له كفوا أحد والند هو المناوىء (فلا تجعلوا للّه أندادا) .

(٤) المرجع السابق .

ولا يقاس بخلقه (١) فانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه . ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون (٢) ولهذا قال (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون . وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والاثبات (٣) .

ثم يذكر الآيات الدالة على صفات الله تعالى وينبه على أن إثباتها واجب لأنها جاءت بها الأنبياء . وأهل السنه لا يعدلون عنها لأنها الطريق المستقيم (٤) فيقول : « فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وقد دخل فى هذه الجملة (٥) ما وصف الله به نفسه فى

(١) أى لا يجوز استعمال شىء من الاقيسه التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه مثل قياس التمثيل الذى هوالحاق فرع بأصل فى حكم لجامع بينهما كالحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى عله الحكم وهى الاسكار . فقياس التمثيل مبنى على وجود المماثلة بين الفرع والاصل والله عز وجل لا يجوز ان يمثل شىء من خلقه .

وكذلك قياس الشمول : وهو الاستدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى فهذا القياس مبنى على استواء الافراد المندرجة تحت هذا الكلى ومن هنا يحكم على كل منها بما حكم به عليه . ولذا قال ولا يقاس بخلقه لانه لا مساواة بين الله تعالى وبين شىء من خلقه.

(٢) يعنى ان كلام الله وكلام رسله أصدق فيما يجب إثباته لله أو نفيه عنه فلا حاجة إلى التأويل أو التعطيل أو التحريف الذى يقول به الفلاسفة والمتكلمون .

(٣) المراد بالنفى هنا تنزيه الله تعالى عن كل نقص . والمراد بالاثبات اثبات الكمال اللائق به تعالى .

(٤) العقيدة الواسطية ص ٢٨

(٥) أى جملة ما يجب الإيمان به كأنه يقول ومن الإيمان بالله تعالى الإيمان بما وصف به نفسه .

سورة الاخلاص التى تعدل ثلث القرآن [1] حيث يقول ﴿ قل هو اللّه أحد اللّه الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وما وصف به نفسه فى أعظم آية من كتاب اللّه حيث يقول ﴿ اللّه لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده [2] حفظهما وهو العلى العظيم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وهو الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ان اللّه يحكم ما يريد ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ان اللّه يحب المحسنين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رضى اللّه عنهم ورضوا عنه ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب اللّه عليه ولعنه ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن كره اللّه انبعاثهم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللّه ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أو يأتى ربك ﴾ .

---

(١) ثبت فى الصحيح أن قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن . ولعل ذلك لأنها تشتمل على التوحيد الذى هو ثلث ما فى القرآن .

(٢) أى لا يشغله .

وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ يا عيسى انى متوفيك ورافعك إلى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾

وقوله تعالى : ﴿ اننى معكما اسمع وأرى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ .

ذكرت فى سبعة مواضع فى سورة الأعراف وفى سورة يونس وفى سورة الرعد وفى سورة طه وفى سورة الفرقان وفى سورة السجدة وفى سورة الحديد .

وقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾

وبعد سرد هذه الآيات [١] التى وصف الله بها نفسه يدخل فى ذلك أيضا ما وصف به الرسول ربه ؛ لأن السنة مبينة للقرآن ودالة عليه .

---

(١) استخلص الدكتور هراس رحمه الله من تلك الآيات أصولا ذكرها فى شرحه للعقيدة الواسطية لابن تيميه ص ٨٨ وما بعدها منها الأصل الأول : يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك القدرة مثلا يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير والإيمان بكامل قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى لله على هذا النمط .

وعلى هذا فما ورد فى هذه الآيات التى ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فانها داخلة فى الإيمان بالأسم ، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وارادته ومشيئته ، فإنها داخله فى الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم ويحكم ويرى . ويسمى . وينادى .ويناجى . وكلم . ويكلم فانها داخلة فى الإيمان بالأفعال .

الأصل الثانى : دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات البارى قسمان :

(١) صفات ذاتية : لا تنفك عنها الذات بل هى لازمة لها ازلا وأبدا ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء الخ .

(٢) صفات فعليه : تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الأفعال وأن كان هو لم يزل موصوفا بها بمعنى أن نوعها قديم وافرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعالا لما يريد ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله تقع شيئا فشيئا تبعا لحكمته وارادته . فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالأستواء على العرش والمجيء والأتيان والنزول إلى السماء الدنيا والضحك والرضى والغضب والكراهية والمحبة .

والمتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والاحياء والأماتة وأنواع التدبير المختلفة .

الأصل الثالث : اثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل فى شيء منها وما ورد فى الآيات السابقة من اثبات المثل الأعلى له وحده ونفى الند والمثل والكفء =

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوتى القرآن ومثله معه فالسنة قد أوتيها وأوحى بها إليه من الله تعالى ليفسر بها القرآن فيجب الإيمان بما ثبت منها . وعلى ذلك فجميع الأحاديث التى صحت عن رسول الله ﷺ فى الصفات يجب الإيمان بها كما وجب الإيمان بما جاء فى القرآن .

وفى هذا يقول الإمام ابن تيميه (١) :

فالسنة تفسر القرآن وتدل عليه وتعبر عنه . وما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به ربه عز وجل من الآحاديث الصحاح التى تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها ، كذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخر فيقول من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟) (٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم) . الخ الحديث (٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (يضحك الله الى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنه) (٤) .

= والسمى والشريك عنه يدل على ذلك ، كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفه .

الأصل الرابع : اثبات جميع ما ورد بالكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والأرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها .

والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهية .

وكذلك لا فرق بين اثبات الوجه واليدين ونحوهما وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها تثبت بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه ولا تمثيل !! .

(١) العقيدة الواسطيه ص ١٠ .

(٢) متفق عليه　　　　(٣) متفق عليه

(٤) متفق عليه وأخرجه مسلم فى كتاب الامارة باب بيان الرجلين يقتل احدهما الآخر ٣/ ١٥٠٥ .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره فينظر اليكم أذلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب) [١] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (لا تزال جهنم يلقى فيها وهى تقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله - وفى رواية - عليها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض فتقول قط قط) [٢] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (يقول اللّٰه تعالى يا آدم فيقول : لبيك وسعديك فينادى بصوت ، ان اللّٰه يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار) [٣] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم فى رقيه المريض (ربنا اللّٰه الذى فى السماء تقدس اسمك أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ) [٤] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء) [٥] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم (والعرش فوق الماء واللّٰه فوق العرش) [٦] .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم للجارية (أين اللّٰه ؟ قالت فى السماء . قال من أنا قالت أنت رسول اللّٰه قال أعتقها فانها مؤمنة) [٧] .

---

(١) متفق عليه وأخرجه مثله ابن ماجه فى المقدمة ٦٤/١ عن أبى رزين .

(٢) متفق عليه وأخرج مثله البخارى فى كتاب التوحيد ٣٦٩/١٣ عن أنس

(٣) متفق عليه وأخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ٣٨٢/٦ عن أبى سعيد .

(٤) حديث حسن رواه أبو داوود وغيره وأخرجه أبو داوود فى كتاب الطب ٢٣٨/٢

(٥) حديث صحيح اخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٦٧/٨

(٦) حديث حسن رواه أبو داود واخرجه احمد بألفاظ مختلفة ٢٠٦/١

(٧) رواه مسلم وأخرجه أحمد ٤٤٧/٥ عن معاوية

يقول الإمام ابن تيميه بعد ذكره لكثير من الآحاديث التى يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به .

يقول [١] : فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك [٢] .

كما يؤمنون بما أخبر الله تعالى به فى كتابه العزيز من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط فى فرق الأمة كما ان الأمة هى الوسط فى الأمم . فهم وسط فى باب صفاته سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهيمة وأهل التمثيل المشبهة .

وهكذا نرى عقيدة الإمام ابن تيميه من خلال ما نص عليه فى كتبه ورسائله تكاد تكون كلها متقاربة ان لم تكن متوافقه وقد يركز على بعض المسائل وينبه عليها بصفه خاصة بعد اجماله للكثير من المسائل الأخرى بل أحيانا يؤلف رسالة كاملة فى المسألة الواحدة .

كرسالته الحموية [٣] عن مسألة الصفات وأحيانا يؤلف كتابا [٤] كما فى مسألة النزول .

وسواء أجمل فى عقيدته أم فصل فقد كان خطه واضحا لا يكاد الباحث يلاحظ من ورائه اختلافا أو تناقضا .

---

(١) العقيدة الواسطية ص ١١

(٢) أى يؤمنون بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يؤمنون بما أخبر الله تعالى فى كتابه .

(٣) الرسالة مطبوعة (فيما اطلعت عليه) طبعت ثلاث طبعات الأولى بالهند سنة ١٢٩١ هـ ، (مترجمه) والثانية بالهند أيضا سنة ١٣٢٢ هـ والثالثة مطبوعة بمصر ضمن مجموعة رسائل للأمام ابن تيميه سنة ١٣٢٣ هـ وطبعت أخيرا بمطبعة المدنى وتقع فى ٩٠ صفحة من القطع المتوسط .

(٤) كتاب شرح حديث النزول للإمام ابن تيميه طبع أكثر من مرة ومن هذه الطبعات التى اطلعت عليها طبعة المكتب الاسلامى سنة ١٣٨١ هـ دمشق ومنها طبعة حديثة سنة ١٣٨٩ هـ وهى الطبعة الخامسة . المكتب الاسلامى ببيروت ويقع الكتاب فى حوالى ٢٠٠ صفحة بالحجم المتوسط .

● الخلاصة :

أن الإمام ابن تيميه يتحدث عن عقيدته فى أكثر من موضع فلا يرى نفسه إلا معربا عن الألتزام الكامل بكتاب الله تعالى مجتهدا فى استخراج عقيدته منه محاولا ألا ينحرف عنه ولا يتبدل ولا يؤول فيه ولا يعطل ، ومسترشدا فى ذلك بالسنة النبوية مفسرة وموضحة لمعانيه ، ومفصلة لمجمله . ومستنيرا فى ذلك بآراء السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وكذلك من تبعهم باحسان ممن يدور فى فلك الكتاب والسنة ولا يحيد عنهما .

والحق عنده يطلب من صاحبه صلى الله عليه وسلم وممن تخرجوا على يديه من الصحابة والتابعين على أنه لا يعرف الحق بالرجال بل يعرفه من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم أهله ومن عداهم ليس له مقام إلا بالحق يتبعه مهما كان المخالفون ممن عاصروه أو سبقوه .

ومن هنا فقد فند آراء الفلاسفة والمتكلمين وتصدى للشيعه والصوفية ومن على شاكلتهم ممن خالف الحق المتمثل فى الكتاب والسنة منهجا وتطبيقا .

وينتهى إلى أن القرآن هو الميزان والسنة شارحة ومؤيدة ، والعقل مقرب ومفهم . أى يستخدم العقل مع الكتاب والسنة للتقريب والأنشاء لا للحكم والأهتداء .

وبهذا يمكن استخلاص منهجه على ضوء ما قد سبق من دراسة عقيدته . وهذا ما سيتحدث عنه البحث فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى .

* * *

الفصل الثالث
منهج الإمام ابن تيمية

من خلال وضوح الرؤية لعقيدة الإمام ابن تيميه يمكن تحديد منهجه فى الأمور التالية :

١ - استخراج العقيدة من النصوص وجعلها أساسا فى المنهج :

كان منهج الإمام ابن تيميه فى أصول الدين كمنهجه فى الفروع . فكما يستخرج الأحكام الفرعية من النصوص فكذلك الأمور العقدية لأن الدين مجموع الأمرين فما يسلك فى تعرف أحدهما يسلك لا محالة لاستخراج الثانى .

والنصوص هى الكتاب والسنة . فالكتاب هو القرآن الكريم والسنة شارحة له

ويعتقد ابن تيميه أنه لا سبيل لمعرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها الا من القرآن الكريم والسنة المبينة له فما يقرره القرآن وما تشرحه السنة يقبله كما ورد ولايجعل للعقل سلطانا فى تأويله أو تفسيره إلا بالقدر الذى تؤديه العبارات وتضافرت به الأخبار عن النبى ﷺ . فالعقل حينئذ مؤيدا ومقررا لا حاكما أو شاهداً كما سبق بيانه أى أن مهمته تقريب المنقول من المعقول من غير أن يكون له سلطة فى الرفض أو القبول .

وقد انفرد الإمام ابن تيمية بهذا المنهج عن الفلاسفة والمتكلمين الذين وقفوا من القرآن فى هذا الجانب مواقف سلبية أو هامشية .

وقد قسمهم إلى أقسام أربعة [١] :

---

(١) مجموعة رسائل ابن تيميه ص ٤ ملخصا .

• القسم الأول : الفلاسفة الذين يقولون إن طريقة القرآن خطابية اقناعية تقنع الجمهور أما البرهان اليقينى فلا يوجد إلا فى الفلسفة .

• القسم الثانى : المتكلمون الذين يقدمون القضايا العقلية على النظر فى القرآن الكريم . وقد ذكر ابن تيميه أنهم يجعلون المحكوم حاكما ويقصد بالحاكم هنا العقل ولعله يقصد بهذا القسم من المتكلمين المعتزلة .

• القسم الثالث : هم الذين يجعلون ما فى القرآن من الآيات الدالة على التوحيد والصفات يجعلونها مجرد أخبار لا أدلة .

• القسم الرابع : وهم الذين اعتقدوا فى أدلة القرآن الكريم ولكنهم لم يكتفوا بها وقالوا لابد من التسلح بأدلة المتكلمين فينتهون إلى ما انتهوا إليه .

وتلك الأقسام الأربعة فندها جميعا وأكد أن القرآن الكريم بما فيه من أدلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة السليمة فهو ليس مجرد أخبار بل فيه أدلته وبراهينه على صحة ما احتواه من أخبار .

أى أنه يحمل فى نفسه دليل صدقه .

وقد حز فى نفس الإمام ابن تيميه أن تترك أدلة القرآن وراء الظهور وهاله ما رأى من الرازى ومن تبعه يقولون إن الاستدلال بالسمعيات فى المسائل الأصولية لا يمكن بحال من الأحوال لأن الاستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية . وعلى رفع المعارض العقلى وأن العلم بانتفاء المعارض لا يمكن . إذ يجوز أن يكون فى نفس الأمر دليلٌ عقلىٌ يناقض مادل عليه القرآن (١) .

ويتهكم من أن الأمر لم يقف عند هذا الحد من جعل العقل حاكما على القرآن بل إن ذلك يؤدى إلى أن المنطق يجب تقديمه على القرآن لأنه حينئذ هو المرجع وليست هناك وسائل قطعية إلا فيه وبه . ومعنى ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم حين جهلوه فقد جهلوا الوسائل القطعية لفهم هذا الدين . وكأن الصحابة

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ص ١ ج ١

والتابعين ما كانوا عالمين بأصول الدين إلا عن طريق ظنى حيث لم يتوافر لديهم الطريق القطعى الموجود فى المنطق الذى لم يدخل فى الفكر الإسلامى إلا فى القرن الثانى الهجرى !! .

بل ان هذا المنكر من قولهم قد يتجاوز الصحابة رضى الله عنهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه .

لأنه يلزم من قولهم كما يقول الإمام ابن تيميه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات (١) .

لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحاول تأويل الصفات فى القرآن بما يتفق مع القواعد المنطقية والتأويلات الكلامية كما يزعمون .

فإذا عاب الإمام ابن تيميه على الفلاسفة والمتكلمين تركهم للنصوص جانبا واعتبارهم اياها إخبارية أو إقناعية . فإنه يرد عليهم بأنها هى الأساس والبرهان لأنه ما من أمر من أمور الدين فروعه وأصوله إلا وقد وجد أساسه فى كتاب الله أو تفسيره فى سنة رسول الله ﷺ .

ويرى أن العبد لا يكون مؤمنا حقا حتى يؤمن بجميع ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم إيمانا جازما . ولا يصح أن يتكلم فى شىء من الدين إلا تبعا لما جاء به فلا يتقدم بين يديه بل ينظر إلى ما قاله فيكون قوله تبعا لقوله .

ويرى أنه إذا أراد معرفة شىء من الدين نظر فيما قاله الله ورسوله فمنهما يأخذ ولهما يتبع ومنهما يتعلم .

وفى النهاية يرى أن هذا هو أصل العلم والإيمان وطريق الخير والسعادة (٢) .

ويؤكد منهجه فى ذلك أيضا فى رسالة الفرقان (٣) بقوله :

---

(١) نقض المنطق لابن تيميه ص ٥٧

(٢) مجموعة الرسائل ص ٤٢ ج ١

(٣) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٠٦ ج ١

جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان فيصدق بأنه حق وصدق وما سواه من كلام يعرض عليه فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل . وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه أو قد يعرف مراده ولكن لم يعرف جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

ويرى الإمام ابن تيميه [1] أن العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وقد يكون علم من غير الرسول لكن فى أمور دنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة .

وأما الأمور الآلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها مأخوذ عن الرسول .

فهو أعلم الخلق بها وأرغبهم فى تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها فهو فوق كل أحد فى العلم والقدرة والأرادة وهذه الثلاثة بها يتم المقصود . ومن سوى الرسول إما أن يكون فى علمه بها نقص أو فساد وإما ألا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك لم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة ، وإما لغرض آخر وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان الذى عرفه الجنان [2] .

فالمقصود أن يؤخذ من الرسول العلوم الآلهية الدينية سمعيها وعقليها ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا . فدلائل النبوة وأعلامها تدل على ذلك .

وفى هذا يقول : إن رسول الله ﷺ بين الدين وأصوله وفروعه باطنه وظاهره علمه وعمله فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان ، وكل من كان أعظم اعتصاما بهذا الأصل كان أولى بالحق علما وعملا [1] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) معارج الوصول ص ٣

(٣) المرجع السابق .

ثم يؤكد ذلك فيقول [1] : والمقصود أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين بالكتاب والسنة وأن الأجماع - اجماع الأمة - حق فإنها لا تجتمع على ضلالة وكذلك القياس الصحيح حق يوافق الكتاب والسنة . ثم يقول فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان للرسول صلى الله عليه وسلم ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الأجماع فيستدل به وقد استقريناها فوجدناها منصوصة [2] وفى رسالة أخرى يقول [3] : « من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار » . ويؤكد ذلك بأن الشرع أصله القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم مبين ومبلغ والصحابة تلقوا هذا البيان والتبليغ وأمروا بأدائه كما سمعوه وفقهوه . والتابعون لهم بإحسان تلقوه عنهم . وتلك هى المنابع الصافية التى يجب الأخذ منها فى نظر الإمام ابن تيميه ولهذا فهو لا يتبع أحدا بعد الله ورسوله إلا الصحابة ويستأنس بأقوال التابعين وكثيرا ما كان يدعو معارضيه إلى التحاكم إلى أهل القرون الثلاثة الأولى لأنهم خير القرون [4] وأثارهم أقوى واجدى .

هذا هو معنى الأخذ بالنصوص عند الإمام ابن تيميه واتخاذها منهجا له ؟ .

إنه يجعل الدليل هو العمدة ويرى دائما الآثار قبل الرجال .

وكان تمسكه دائما للحق إذا ظهر دليله مع أى من الناس كائنا ما كان ولهذا ينص على الذين يتبعون الأقوال من غير معرفة أدلتها ووجه الحق فيها .

ومن هنا يتضح أنه لم يكن متعصبا فى تفكيره بمعنى أنه لم يسيطر عليه فكر معين يتعصب له أو يجمد عليه بل كان حرا فى فكره لا يقيده شىء إلا الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح رضى الله عنهم حيث لا سند فى العقائد إلا عليها

---

(١) المرجع السابق ص ١٩

(٢) الكلام لابن تيميه .

(٣) العقيدة الواسطية ص ٣٤

(٤) مجموع الرسائل ص ٤٠٩ ج ٢

٢ - رفض التأويل (١) :

إذا كان الأساس الأول فى منهج الإمام ابن تيميه هو النصوص من الكتاب والسنة فطبيعى أن يكون الأساس الثانى فى منهجه رفض التأويل .

لأن التأويل عند المتكلمين يقتضى اتخاذ العقل أصلا وبهذا يقدمونه على النص فإذا ظهر تعارض بين النقل والعقل قدموا العقل على النقل وأولوا النقل بما يوافق العقل .

وفى هذا يقول ابن تيميه عن هؤلاء (٢) المؤولين انهم :

« وضعوا لأنفسهم قانونا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذى يعتقدونه هو ما ظنوه بعقولهم ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعا له فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفهم لم يتبعوه » (٣) .

ثم يقول عنهم مقارنا بينهم وبين النصارى (٤) :

وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التى جعلوها عقيدة إيمانهم وردوا نصوص التوراة والأنجيل اليها غير أن النصارى كانوا أكثر تصديقا لنصوص أنبيائهم من هؤلاء لأنهم اعتمدوا فيها على ما فهموه من نصوص الأنبياء أو ما بلغهم عنهم وغلطوا فى الفهم أو فى تصديق الناقل كسائر الغالطين ممن يحتج بالسمعيات فإن غلطه إما فى الإسناد أو فى المتن وأما هؤلاء فوضعوا قوانينهم على ما رأوه بعقولهم وقد غلطوا فى الرأى والعقل معا .

فالنصارى أقرب إلى تعظيم الأنبياء والرسل من هؤلاء (٥) .

---

(١) التأويل المرفوض هنا هو تأويل المتكلمين الذى هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجع إلى الاحتمال المرجوع لدليل يقترن به .

أو صرف النصوص عن مدلولها . أو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يراه العقل .

(٢) العقل والنقل ص ٢ ج ١ (٣) المرجع السابق .

(٤) الجواب الصحيح ص ٥٨ ج ٢

(٥) درء تعارض العقل والنقل لابن تيميه تحقيق د . محمد رشاد سالم ص ٦ ، ٧ ج ١

والإمام ابن تيميه وهو يضع درجة المؤولين عن درجة النصارى فى تعظيمهم لأنبيائهم حيث إنهم قدموا العقل على النقل بحجة أنه الأصل وأنه يجب تقديمه عند التعارض . ويدفع مسألة التعارض بأن النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل الصريح وكتاب الإمام ابن تيميه فى ذلك يدل على هذا من عنوانه (١) ويخلص فيه إلى أنه ما من معقول عارض المنقول الصحيح فإنه لا يعدو أن يكون شبهات طارئة على العقل أو مجرد توهم .

وما يظن أنه منقول صحيح قد عارض المعقول الصريح قد يكون المستدل به غالطا فى المتن بحيث يكون النص غير صحيح بل مكذوبا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون غالطا فى الاستدلال بحيث يكون هذا النص لا يستدل به على مثل مطلوبه (٢) .

وهكذا يوضح الإمام ابن تيميه أن الحجة العقلية الصريحة لا تناقض الحجة الشرعية الصحيحة .

ومن هنا فهو يعارض مناهج المتكلمين فى التأويل ويدحض حججهم فى تعارض العقل والنقل ويرى أن هذا التعارض مصدره وهم خاطىء إما بسبب عدم العلم بالنص أو خطأ فى الفهم ثم يحاول إثبات أن دلالة القرآن شرعية عقلية . فهى شرعية لأن الشرع دل عليها . وعقلية لأنها يمكن إدراك صحتها بالفطرة كالبديهيات العقلية والأوليات الكلية (٣) .

---

(١) اسم الكتاب الذى رد فيه على القائلين بتعارض العقل والنقل هو (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) أو (درء تعارض النقل والعقل) طبع أخيرا بمطابع جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بالمملكة العربية السعودية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ولكنه لم يكتمل بعد وظهرت أجزاد متفرقة منه .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيميه ص ٦ وما بعدها ج ١

(٣) قواعد المنهج عند الإمام ابن تيميه د . مصطفى حلمى ص ١٠٩ ملخصا .

وبتوضيح أكثر يذكره فى كتابه درء تعارض العقل والنقل [١] جوابا على من يقول بتعارض النقل والعقل [٢] .

يقول الإمام ابن تيميه : ان قوله « إذا تعارض العقل والنقل » .

إما أن يريد به القطعيين فلا نسلم إمكان التعارض حينئذ وإما أن يريد به الظنيين فالمقدم هو الراجح مطلقا .

وإما أن يريد به أحدهما ، فالقطعى هو المقدم مطلقا ، وإذا قدر أن العقلى هو القطعى كان تقديمه لكونه قطعيا لا لكونه عقليا فعلم أن تقديم العقل مطلقا خطأ كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقليا خطأ .

وكأن الإمام ابن تيميه يقدم العقلى تارة والسمعى أخرى فأيهما كان قطعيا قدم وإن كانا جميعا قطعيين فيمتنع التعارض وإن كانا ظنيين فالراجح هو المقدم

فالخلاصة عنده أن القطعى هو المقدم مطلقا وتقديمه لكونه قطعيا لا لشىء آخر ولئن كان ابن تيميه قد دفع حجة القائلين بتعارض العقل والنقل .

فإنه يدحض أيضا دعوى القائلين بأن العقل أصل فى إثبات الشرع وبين أن هذا الأدعاء غير صحيح لأنه إما أن يريد أن العقل أصل فى ثبوت الشرع فى نفس الأمر أو يريد أنه أصل فى علمنا بصحته وكلاهما غير صحيح .

أما بالنسبة لكون العقل أصلاً فى ثبوت الشرع فى نفس الأمر فلا يقول به عاقل لأن الشىء الثابت فى نفسه هو ثابت سواء علمناه أو لم نعلمه ، كما أن من أرسله اللّه إلى الناس فهو رسوله سواء علموا ذلك أو لم يعلموا وعدم علمنا بوجود الشىء ليس دليلا على عدم وجوده .

وحينئذ فثبوت الرسالة فى نفسها وثبوت صدق الرسول صلى اللّه عليه وسلم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ص ٨٦ ج ١

(٢) القائل بامكان التعارض هو الإمام الرازى وغيره وقد حصر القسمة فى أربعة أقسام لأنهما قطعيان أو ظنيان أو أحدهما قطعى والآخر ظنى أو العكس .

وثبوت ما أخبربه ليس موقوفا على وجودنا فضلا عن أن يكون موقوفا على عقولنا ، وهذا يشبه وجود الرب سبحانه وما يستحقه من الأسماء والصفات فإنه ثابت فى نفسه سواء علمنا ذلك بعقولنا أم لم نعلمه [١] .

فتبين بذلك أن الشرع ثابت فى نفسه وأن العقل ليس أصلا فى اثباته فى نفسه ولا معطيا له صفة لم تكن له ولا مفيدا له صفة كمال إذ العلم مطابق للمعلوم المستغنى عن العلم ، تابع له ليس مؤثرا فيه .

ثم يقسم العلم إلى نوعين ليبين فساد المعنى الثانى من الأدعاء بأن العقل أصل الشرع كما بين فساد المعنى الأول وهو الأدعاء أن العقل أصل فى ثبوته فى نفسه فيقول : العلم نوعان .

أحدهما : العملى وهو ما كان شرطا فى حصول المعلوم . كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله فالمعلوم متوقف على العلم به محتاج إليه .

وثانيهما : الخبرى أو النظرى وهو ما كان المعلوم غير مفتقر فى وجوده إلى العلم به . كعلمنا بوحدانية الله تعالى وأسمائه وصفاته وصدق رسله وملائكته وكتبه وغير ذلك فإن هذه المعلومات ثابته سواء علمناها أو لم نعلمها فهى مستغنيه عن علمنا بها .

ثم بين أن الشرع من هذا القسم الأخير ولا يتوقف على علمنا لأنه صحيح فى نفسه ولو لم نعلمه .

وفى هذا يقول [٢] والشرع مع العقل هو من هذا الباب فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت - (صحيح) - فى نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه فهو مستغن فى نفسه عن علمنا وعقلنا ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ملخصا .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ص ٨٨ وما بعدها ج ١ ملخصا .

بعقولنا فإن العقل إذا علم ما هو الشرع فى نفسه صار عالما به وبما تضمنه من الأمور التى يحتاج إليها فى دنياه وآخرته وانتفع بعلمه به .

وبعد هذا التقسيم للعلم يتجه إلى بيان فساد القول بأن العقل أصل فى علمنا بصحة الشرع وهو المعنى الثانى فيقول [1] :

وأما إن أراد [2] أن العقل أصل فى معرفتنا بالسمع ودليل لنا على صحته يقال له : أتعنى بالعقل الغريزة التى فينا أم العلوم التى استفدناها بها ؟ .

أما الأول فممتنع لأن تلك الغريزة ليست علما يتصور أن يعارض النقل وهى شرط فى كل علم عقلى أو سمعى كالحياة . وما كان شرطا فى الشىء امتنع أن يكون منافيا له .

وإن أريد بالعقل المعرفة الحاصلة بالعقل فيقال من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلا للسمع ودليلا على صحته فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصى والعلم بصحة السمع وغايته أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله تعالى أرسله مثل إثبات الصانع وتصديقه للرسول بالآيات .

وإذا كان كذلك لم تكن جميع المعقولات أصلا للنقل لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها ولا بمعنى الدلالة على صحته ولا بغير ذلك .

وبهذا يدحض الإمام ابن تيميه القول بأن العقل أصل للنقل .

ويدحض القول بتعارض العقل مع النقل ما دام العقل صريحا والنقل صحيحا

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩ ج ١ .

(٢) يعنى الإمام الرازى واتباعه القائلون بأن العقل أصل للشرع .

فالدلائل الشرعية الصحيحة التى حث عليها الشارع نجدها عند التأمل توافق العقل الصريح وتؤازره .

وكذلك العقل الصريح يؤيد النص الصحيح ويعاضده .

فالادعاء بتقديم العقل على الشرع ادعاء متهافت .

ومن هنا يرى الإمام ابن تيميه :

وجوب تقديم الشرع عند التعارض .

ويستدل على وجوب تقديم الشرع على العقل عند التعارض بأن الشرع إذا أوجب أمرا من الأمور صار ايجابها معلوما بالشرع عند كل من آمن به . وأصبحت شرعية هذه الأمور صفة لازمة لها لا تختلف من مكلف لآخر .

وأصبح العلم بشرعيتها ممكنا لوجود النص فيها وأصبح رد الناس إلى النصوص ممكنا عند اختلافهم فيها .

أما الأمور العقلية فالأختلاف فيها كثير وليس علم العقل بالشيء صفة لازمة له بل ذلك يختلف من انسان لأخر فإذا كان شأن العقول هو الأختلاف والأضطراب فمن الحق أن يكون قول المعصوم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب هو المرجع والمال وهو المقدم على كل حال .

أما إذا قلنا بتقديم العقل عند التعارض كما يقول الرازى [1] فالى أى عقل نرجع إلى عقل الرازى وقد اتهم فى عقيدته أم يرجع كل إلى ما يراه عقله ؟ وحينئذ فلا فائدة من إرسال الرسل والكتب .

● الخلاصة :

إن الإمام ابن تيمية يؤكد أن الشرع هو الأصل والأساس وأن السمعيات التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم ونقلها عنه الصحابة رضى الله عنهم

---

(١) نهاية العقول ص . ٢١

ومن تبعهم بإحسان . لم يقل أحد منهم أن آية من كتاب اللّه قد عارضتها العقول أو أن شيئا مما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم عارضه المعقول .

بل كلهم على إثبات ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم من غير تأويل ولا تبديل .

ومن هنا كان رفضه للتأويل حيث انه تصرفْ فى النصوص وتقديم بين يدى اللّه ورسوله . وقول على اللّه بغير علم .

وتطاول على الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى الفهم ، وإدعاء لنفسه على من سلفه بالعلم .

وإلا فكيف غاب هذا التأويل عن اللّه تعالى ولم يبينه وكيف غاب عن الرسول فلم يبلغه وكيف غاب عن الصحابة فلم ينقلوه .

يقول الإمام ابن تيميه فى ذلك (١) :

أما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون ان الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما فى نفس الأمر وأن الحق فى نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا ثم يجتهدون فى تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات التى يحتاجون فيها إلى اخراج اللغات عن طرقها المعروفة وإلى الإستعانة بغرائب المجازات والأستعارات .

ثم يرد على هؤلاء المؤولين باطلهم بقوله فى كتابه سالف الذكر (٢) :

« معارج الوصول فى بيان أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول » ويؤكد فى موضع آخر (٣) أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم بلغ البلاغ المبين وبين مراده

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ص ١٢ ج ١

(٢) درء تعارض العقل والنقل ص ٢٢ ج ١

(٣) المرجع السابق .

وأن كل ما فى القرآن والحديث من لفظ يقال فيه إنه يحتاج إلى التأويل الأصطلاحى الخاص الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره ، فلابد أن يكون الرسول قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر إذ لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذى مفهومه ومدلوله باطل ويسكت عن بيان الحق .

ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لا مكان معرفة ذلك بعقولهم وأن هذا قدح فى الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بلغ البلاغ المبين الذى هدى الله به العباد وأخرجهم من الظلمات إلى النور وفرق الله به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال .

وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات وما ينزه عنه من ذلك حتى أوضح الله به السبيل وأنار به الدليل . وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ثم بين [1] أن القول بالتأويل قدح فى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه من زعم أن الرسول تكلم بمالا يدل إلا على الباطل وأنه أراد بذلك اللفظ المعنى الذى ليس بباطل وأنه أحال الناس فى معرفة المراد على ما يعلم من غير جهته بآرائهم فقد قدح فى الرسول !! .

كيف والرسول أعلم الخلق بالحق وأقدر الناس على بيان الحق .

وأنصح الخلق للخلق . وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد .

٣ - طريقة القرآن :

لقد عرفت قيمة النصوص عند الإمام تيميه ومدى مالها من أهمية في منهجه والقرآن الكريم هو كتاب الهداية للبشرية المنقذ لها من الضلال والشقاء : ﴿ فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ [2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) طه : ١٢٣

وما دام القرآن هو كتاب الهداية فطريقته أيضا هى الطريقة المثلى لتحقيق الهداية والسعادة .

ومن هنا اعتمد الإمام ابن تيمية على طريقة القرآن واتخذها منهجا له ووجد أن ذلك أقرب إلى الفطرة وأضمن للوصول إلى الغاية ووجد فى أدلة القرآن الكريم من البراهين العقلية الصريحة ما يناسب جميع الناس وفى نفس الوقت وجدها أكثر دلالة على مطلوب الشرع من أدلة الفلاسفة والمتكلمين واعتبر أن طريقة هؤلاء مخالفة للفطرة الأنسانية .

أما طريقة القرآن فهى فطرية أى تعتمد على أساس فطرى حتى ليكاد أن يكون كل إنسان مفطورا على الأعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبره ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك مهما اختلفت اسماء الله عندهم ، واختلفت صفاته ، يستوى فى ذلك الممعن فى البداوة والمغرق فى الحضارة .

ولقد أيد القرآن الفطرة فى مخاطبته للناس بما يحيى هذه العاطفة وينميها ويقويها ويصلح ما اعتورها من فساد الشرك وأومأ إليه .

وأدار الدعوة على هذا الأساس فالله تعالى خلق الإنسان وعنى به وأحاطه ببيئته ينتفع بها فى تسيير شئونه كلها من أرض وسماء وماء وهواء وليل ونهار وشمس وقمر وحيوان ونبات .

وهو الذى خلق الإنسان وسائر المخلوقات كلها مما يدرك ومما لا يدرك مما علم ومما لا يعلم . وهو سبحانه واهب الوجود لها كلها وواهب الحياة لها جميعها وهو وحده واضع نظامها ودقتها وابداعها . فإذا كان هو وحده المبدع الخالق لجميع الكائنات فغيره لا يستطيع أن يخلق ولو ذباباً .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (١) .

---

(١) الحج : ٧٣

ويوجه القرآن الإنسان إلى النظر فى نفسه ليعرف كيف خلقت ومن الذى خلقها ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (٢) .

ثم يوجهه أن ينظر إلى ما حوله ليرى آثار قدرة الله وانعامه : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ﴾ (٣) .

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٤) .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ (٥) .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾ (٦) .

﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ (٧) .

وهكذا طريقة القرآن الكريم حين تبث عقيدة التوحيد فى النفوس وتخاطب الفطرة والوجدان وتستثير المشاعر والأحاسيس .

وسلك القرآن فى الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك يستدل على ذلك بالمألوف والمعروف (لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا) .

(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) .

---

(١) الذاريات :٢١
(٢) الطارق : ٧
(٣) عبس : ٢٤ - ٣١
(٤) الغاشية : ١٧ - ٢٠.
(٥) يس : ٣٣
(٦) الفرقان : ٦١
(٧) آل عمران : ١٩١

كما استدل على ذلك بوحدة النظام ووحدة الخلق وخضوع المخلوقات جميعا لنظام واحد منسق . ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ . ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

وبهذه النصوص القرآنية البينة يمكن الاستعاضة عن الطرق الكلامية الغامضة فطريقة القرآن حين تبث العقيدة فى النفوس فتخاطب الفطرة والوجدان وتستثير المشاعر والأحاسيس فيشعر الإنسان من أعماق نفسه بالإستجابه والإصغاء .

هذا هو المنهج الذى ارتآه الإمام ابن تيميه ورأى فيه السهولة المتوافقة مع الفطره بعيدا عن طريقة الفلاسفة والمتكلمين بما فيها من عسر وتعقيد .

فطريقتهم عقلية وطريقة القرآن وجدانية (١) .

فالقرآن لا يؤلف برهانه تأليفاً من مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة ولا يتعرض لألفاظ الفلسفة من جوهر وعرض ونحوهما .

ولا يثير المشاكل العقلية التى توقع فى البلبلة والإضطراب .

وإنما يشير إلى الفطرة والعاطفة وذلك قدر مشترك بين جميع الناس ، وإذا رجعنا إلى نصوص الإمام ابن تيميه لنستدل منها على اختياره لطريقة القرآن منهجا له فى العقيدة نجده فى كتابه « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » يقول :

إن دلالة القرآن شرعية عقلية .

---

(١) ما سبق من معلومات حول منهج القرآن استرشدت فيه بما كتبه البزار فى الإعلام العلية وابن خلدون فى مقدمته وأحمد أمين فى ضحى الإسلام بعد تلخيص لما أوردوه عن الإمام ابن تيميه ومنهجه فى العقيدة .

فهى شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها .

وعقلية لأنها تعلم صحتها بالمعقول الصريح الذى يعرفه الناس بفطرتهم التى فطرهم الله عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض .

وتظهر دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب .

وقوله تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ [١] والأمثال هى أقيسة عقلية .

وفى هذا يقول الإمام ابن تيميه « جاء الرسول صلى الله عليه وسلم مؤيدا بالحجج العقلية ، كما قال تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ .

فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلى لباطلهم إلا جاءه الله بالحق . وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحق من قياسهم [٢] .

وينتهى الإمام ابن تيميه إلى أن القرآن الكريم يحمل المقومات العقلية البرهانية وفى هذا يرد على الفلاسفة والمتكلمين القائلين بأن آيات القرآن إخبارية إقناعية وليست برهانية ، ويعيب عليهم طريقتهم ومنهجهم فى التفكير .

ويقول : « إن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست مجرد الخبر كما يظنه طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية . وغيرهم بل الكتاب والسنة دلاً الخلق وهدياهم إلى البراهين والأدلة المبينة لأصول الدين وهؤلاء الغالطون أعرضوا عما فى القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية [٣] .

---

(١) الكهف : ٥٤

(٢) نقض المنطق ص : ٨٩

(٣) معارج الوصول ضمن مجموعة الرسائل لابن تيميه ص ١٨٣

وبهذا يقرر أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحتويان على أصول الدين وأساس العقيدة مع الأدلة العقلية والبراهين اليقينية .

ومن هنا يقال : إن الإمام ابن تيميه - لم يكل من التنبيه على أن فى القرآن عامة أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والنبوة والمعاد ودلائل هذه المسائل .

كما يُقال إن الإمام ابن تيميه ظل أمينا فى التزامه بهذا المنهج مستدلا بما استدل به القرآن من أن الله تعالى وحده هو الغنى غنى ذاتيا بينما مخلوقاته كلها فقيرة ذاتيا (١) فالحقيقة المعتبرة فى كل برهان ودليل هى اللزوم وبه يعرف أن كل ما فى الوجود آية الله فالوجود مفتقر إليه تعالى ولا بد له من خالق كما قال الله عز وجل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾ .

وفى هذا المعنى يقول الإمام ابن تيميه فى مجموع الفتاوى (٢) .

ولكى تتحقق سعادة الإنسان فلابد من أن يؤله ربه وحده .

فإن أطيب ما فى الدنيا معرفته وأطيب ما فى الآخرة مشاهدته .

فصلاح الخلق وسعادتهم أن يكون الله وحده هو معبودهم الذى تنتهى إليه محبتهم ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات (٣) .

ثم ينتهى إلى ما يريد تحقيقه وتأكيده من أن هذه الطرق العقلية الفطرية هى التى جاء بها القرآن وبهذا اتفق العقل والشرع وتلازم الرأى والسمع (٤) .

ثم يقرر الإمام ابن تيميه أن الفطرة مقرة بالله حتى عند المشركين ولا تحتاج إلا إلى التذكير من أقرب طريق ويسوق لذلك حديث الرسول صلى الله عليهوسلم لحصين حين سأله (وكان مشركا حينئذ) كم تعبد ؟ قال ستة فى الأرض وواحد

---

(١) قواعد المنهج السلفى عند الإمام ابن تيميه : ص ١١١

(٢) مجموع فتاوى ابن تيميه : ص ٢٣ ج ١

(٣) مجموع فتاوى ابن تيميه ص ٢٣ ج ١

(٤) المرجع السابق : ص ٤٩

فى السماء قال فمن الذى تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال الذى فى السماء . قال ألا تسلم فأعلمك كلمات ؟ فأسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قل « اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى » (١) .

وهكذا فالفطرة منتجة والوصول إليها سهل ولذلك عنى القرآن بها وسلك السبيل إليها ومن هنا سلك الإمام ابن تيميه هذا الطريق واختاره منهجا فى العقيدة مستغنيا به عن أدلة المتكلمين ومناهجهم وسنرى كيف كان تطبيقه لهذا المنهج فى الأستدلال على وجود الله .

• الدليل على وجود الله عند الإمام ابن تيميه : (٢)

كان للإمام ابن تيميه فى الإستدلال على وجود الله مسلكان :

• **المسلك الأول** : هو اللجوء إلى الفطرة السليمة المضطرة بطبعها إلى الإقرار بوجود الله تعالى وذلك لحاجتها إلى قوة عليا تستغيث بها وتلجأ إليها عند حلول ما ينتابها من الكوارث والمصائب حتى ينكشف الضر وتزول الكارثة .

ولقد لفت القرآن الأنظار إلى هذا الأعتراف الفطرى حيث قال فى صيغة الاستفهام التقريرى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) وهذه الفطرة مركوزة فى كل النفوس وإن غابت فسرعان ما تعود عندما يكون الاضطرار .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه : ص ٩١ ج ١

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيميه ص ١٦٥ ج ١١ . وص ٢٦٢ ج ١٦ الطبعة الأولى ١٣٨٢ مطابع ونقض المنطق ص ١٧٤ ، وانظر منهج السنة ص ٢٠٢ ج ٢ تحقيق د . محمد رشاد وسالم ، ابن القيم فى اغاثة اللهفان تحقيق محمد سيد كيلان ص ١٥٢ ج ٢ ومفتاح دار السعادة ص ١٨٦ وما بعدها ج ١ و ٢٢٥ ج ١ وتفسير ابن كثير ص ٤٠٧ ، ٥٠٠ ج ٢ .

وانظر الفتاوى ص ٢٥١ ج ١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ ورسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧ والرسائل الكبرى ص ١١١ وما بعدها ج ١ ومنهج القرآن للفقيهى ص ٣٧ - ١١٢ والرد على المنطقيين ص ٥٢ ودرء تعارض النقل .

والدليل على وجود هذه الفطرة حب النفس للمنفعة وكراهيتها للمضرة وحبها للخير وكراهيتها للشر .

ومن هنا كانت كل نفس مفطورة على الأعتراف بالخالق والأقرار به وإن طرأ فساد على هذه الفطرة فقد يزول بالتذكير والتعليم والإرشاد ومن هنا كانت مهمة الأنبياء والمرسلين .

ومن هنا كان السر فى أن نستطيع أن نفهم أسلوب القرآن في الإستدلال على وجود الله جاء فى صورة التذكير والتنبيه . وفى كل هذا دليل على أن الفطرة السليمة كافية فى وجوب الإقرار بالصانع (١) .

ويستدل الإمام ابن تيميه أيضا على أن فطرة كل إنسان مركوزة على الإعتراف بالحق وطلب المنفعة .

أما طلب الحق فإننا نجد فى كل نفس ما يدفعها إلى قبول الحق ورفض الباطل .

وأما طلب المنفعة فإننا نجد الطفل مدفوعا إلى لبن أمه بفطرته إن لم يحصل له مانع يمنعه من ذلك .

ثم يستدل بأن كل نفس لا تخلو من الشعور بخالقها ولا تخلو عن الإحساس بوجوده لأن لكل نفس شعورا وارادة وأعظم المرادات هو الله تعالى الذى تريده القلوب وتطلبه وتشعر النفس بمحبته وبذلك يعلم أن كل مولود ولد على محبة الله تعالى ومعرفته (٢) .

ولعل ذلك يرجع إلى الميثاق الذى أخذه الله على عباده أزلا حين قال : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ﴾ (٣) .

---

(١) العقل والنقل ص ٨٤ ج ٤ مخطوط تحت رقم ١٨٢ عقائد .

(٢) المرجع السابق ص ٨٥ ، ٨٦

(٣) الأعراف : ١٧٢

فقولهم بلى شهدنا اقرار بربوبيته تعالى وأنه خالقهم فهم حين خلقوا على الفطرة خلقوا مقرين بالخالق معترفين بوجوده شاهدين على أنفسهم بذلك وهذا الإقرار هو حجة الله على الخليقة يوم القيامة .

فعلم بذلك أن الأعتراف الفطرى بربوبية الخالق ضرورى ولازم لكل نفس .

ولهذا كان أسلوب القرآن فى آيات المعرفة الفطرية على سبيل التذكير لما قد ينساه المرء لعارض أو طارىء يفسد الفطرة .

● **المسلك الثانى** : وبعد بيان المسلك الأول وهو الأتجاه الفطرى فى الإستدلال على وجود الله تعالى الذى من داخل النفس البشريه .

يتحدث الإمام ابن تيميه عن الإتجاه الخارج عن النفس البشرية وهو التأمل فى الأفاق وما فى الكون من الآيات الباهرات .

ولكن لابد للمتأمل أن تكون لديه الخلفية السابقة من المعرفة الفطرية لأنهما مرتبطان أشد الأرتباط .

يقول [١] الإمام ابن تيميه : « وهذا شأن الحق الذى يطلب معرفته بالدليل فلابد أن يكون مشعورا به فى النفس حتى يطلب الدليل عليه أو على بعض أحواله » .

والتأمل فى الآفاق يستدل به على وجود الله تعالى من جانبين :

الأول : الأستدلال من ناحية الاختراع والابداع :

والثانى : من ناحية العناية .

فأما الجانب الأول : وهو الابداع والآختراع .

فهو الأستدلال على وجود الله تعالى بما أبدعه الله من سماء وسحاب وهواء وماء وأرض ونبات وسائر المخلوقات التى خلقها الله فلو تدبر الإنسان وعرف

(١) العقل والنقل ص ٨٦ ج ٤

كيف أبدعها بارئها فلا يسعه حينئذ إلا الإيمان بوجود الله الذى خلقها فسواها.

يقول تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾ (١) .

وأما الجانب الآخر فهو دليل العناية :

وهو الإستدلال على وجود الله تعالى بهذه العناية التى يتأملها المتأمل ويتدبرها المتفكر فيجد كل ما فى الكون مرتبطا بعضه ببعض ومسخرا لخير الإنسان ومنفعته كما قال الله تعالى ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ (٤) .

هذا هو منهج القرآن الذى ارتضاه الإمام ابن تيميه وإن كان قد ركز على الفطرة فذلك لأن الشعور الفطرى ضروري فى الاستدلال بالإبداع والاختراع .

كما أن دليل العناية يرجع إلى دليل الأختراع والإبداع لأن كل ما كان فيه

---

(١) الحج ٥ - ٦

(٢) الجاثية : ١٣

(٣) عبس : ٢٤ - ٣١

(٤) الروم : ٤٨

عناية إلهية يكون الإستدلال بكونه مخلوقا أسبق فى دلالته على الخالق وأقرب إلى الفطرة من كونه مشتملا على العناية الإلهية [1] .

ومن هنا كانت أدلة الإمام ابن تيميه على وجود الله متميزة بالوضوح والبداهة فى نفسها . ومن هنا أيضا فهى أدلة عقلية برهانية .

وقد وضح ذلك فى الاستدلال على الخالق عز وجل بخلق الإنسان لأن كون الإنسان حادثا بعد أن لم يكن وكونه مخلوقا من علقه ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من الدم فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان فقد يتعجب ولكنه دليل عقلى لأن بالعقل تعلم صحته ثم يبين الإمام ابن تيميه أنه بالإضافه إلى كونه عقليا فإنه دليل شرعى أيضا لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به .

● الخلاصة :

إن الإمام ابن تيميه اتخذ طريقة القرآن منهجا له لأنها موصلة للحق من أقرب طريق ولأنها تجمع بين الفطرة والدليل النظرى .

ولأن آياته تحث على الإستدلال بالتفكر فى ملكوت السموات والأرض وتحث على الأستدلال على الخالق بالمخلوق .

وتحث على الإستدلال على البعث بالخلق والإنشاء فى الإبتداء ومن هنا يرى فيها الكفاية والغناء .

* * *

(١) الإمام ابن تيميه للجليند ص ٣٣٨

الباب الرابع

المقارنة بين الإمامين ابن حنبل وابن تيمية

ويتكون من الفصول الآتية :

الفصل الأول : المقارنة بينهما فى المنهج .
الفصل الثانى : المقارنة بينهما فى التطبيق .
الفصل الثالث : المسائل المختلف فيها وتحقيقها .

مدخل إلى المنهج فى المقارنة

ينبغى توضيح المنهج الذى سيكون عليه البحث فى المقارنة بين الأمامين ابن حنبل وابن تيميه ، لبيان أن المقصود ليس مجرد الموازنة بينهما ، ولكنها مقارنة مقرونة بالقرب من السلف أو البعد عنهم .

ولما كان الحكم على الشيء فرعا عن تصوره ، وقد تبين من خلال العرض السابق تصور موسع عن السلف وعقيدتهم ومنهجهم ، واتضحت شخصية الإمام ابن حنبل وعقيدته ومنهجه ، وكذلك الإمام ابن تيميه قد اتضحت شخصيته وعقيدته ومنهجه .

● فمن الأفضل الالتزام بما يلى :

١ - الإشارة إلى السلف عند المقارنة كدليل ومعيار ورائد .

٢ - أن تكون المقارنة بين الإمامين فى المنهج والتطبيق ليتضح مدى القرب والبعد من الإتجاه السلفى لكل منهما .

٣ - توضيح القضايا المتفق عليها ، والمختلف فيها ، وتحقيقها ذلك هو المنهج الذى سألتزمه حتى تستقيم المقارنة بتوفيق اللّٰه تعالى ، وبه أستعين .

● المقارنة بين السلف والإمام ابن حنبل فى المنهج :

ان منهج السلف كما عرف عنهم يتمثل فى تقديم الشرع على العقل وعدم تأويل النقل ، والاستدلال فى قضايا العقيدة بطريقة القرآن الكريم .

وبالمقارنة بين السلف والإمام ابن حنبل فى المنهج نجد أنهما متشابهان .

فمنهج الإمام ابن حنبل يتمثل كذلك فى تقديم النصوص ، ورفض التأويل ، ورفض طريقة المتكلمين ، واختيار طريقة القرآن الكريم .

فالأسس متماثلة . والقواعد متشابهة ومن هنا كان التوافق بينه وبينهم .

١ - فأما تقديم النصوص :

فلأنها هى الأصل والأساس الذي يستند عليه فى أمور الغيب ، وتتمثل النصوص عند الإمام ابن حنبل فى كتاب اللّه تعالى أو سنة رسول اللّه ﷺ ، أو ما ورد عن أصحابه رضى اللّه عنهم (١) .

وبالمقارنة بين هذه القاعدة التى ارتكز عليها فى منهجه ومنهج السلف نجد الإتفاق فى ذلك واضحا لأن الأساس فى المنهج السلفى هو تقديم الشرع متمثلا فى الكتاب والسنة وتطبيقات الصحابة رضى اللّه عنهم (٢) .

فاللّه تعالى أمرنا بالأحتكام إلى كتابه ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون ﴾ .

وأمرنا بالاحتكام إلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتي يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ .

وقد أمر الرسول صلى اللّه عليه وسلم باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ﴿ عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ﴾ .

وهكذا كان منهج الأئمة من السلف يقول كل واحد منهم (إذا صح الحديث فهو مذهبى) و (كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر صلى اللّه عليه وسلم) (إذا رأيتم ما يخالف كلام رسول اللّه ﷺ فاضربوا به عرض الحائط) وهكذا كان احترامهم للنصوص وتقديمهم لها .

وبهذا يتفق الإمام ابن حنبل معهم فى ذلك المبدأ .

٢ - وأما المبدأ الثانى وهو رفض التأويل :

---

(١) ترجمة الإمام أحمد فى مقدمة المسند ص ١٢٧ منقولة من تاريخ الذهبى .

(٢) طبقات الحنابلة للسبكى والطبقات لأبى يعلى والسنن للخلال .

فقد بنى الإمام ابن حنبل ذلك على احترامه للنصوص وأعماله لها وتقديمه إياها على ما سواها .

وقد منع الإمام ابن حنبل التأويل لأنه ليس مأمون العاقبة ، وأن الإتباع هو طريق الأمان ، ولا يصح الخروج عنه بتأويل أو استغراب ، ولا يقال لم ولا كيف [١] بل لابد من ترك الجدال والإيمان بالآثار [٢] .

دون تأويل أو تعطيل كما سبق بيانه . وهذا ما كان عليه السلف كما تبين من قبل . ومن هنا كان التوافق بينه وبينهم على هذا الأساس .

٣ - أما الأساس الثالث فى منهجه :

فهو اختياره لطريقة القرآن الكريم ورفضه لطرق المتكلمين .

وهو إذ يرفض هذه الطريقة للمتكلمين فإنه يستعيض عنها بما هو خير منها فيختار طريقة القرآن الفطرية الميسرة بدلا من طريقة أهل الكلام المعقدة . بل إنه لم يكتف برفضها ولكنه حذر منها ودعا إلى منهج القرآن الكريم معتقدا بأنه أقوم المناهج وأفضل الطرق فى إثبات العقيدة .

ولذا ترى عبد الله بن أحمد يتحدث عن أبيه فيقول :

(كتب أبى إلى عبد الله بن خاقان : لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شىء من هذا إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ) [٣] .

وفى موضع آخر يقول (لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة) [٤] .

ومعنى هذا أن الإمام ابن حنبل لا يجعل الغاية مبررة للوسيلة ولو كانت الغاية هى الدفاع عن السنة وكأنه يعتقد أنه لا يدافع عن السنه كالسنة نفسها

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لأبن بدران الدمشقى ص ١٩ ط المنيرية .

(٢) المرجع السابق .

(٣) مناقب الإمام أحمد ص ١٥٦

(٤) المرجع السابق .

ولا يدافع عن القرآن كالقرآن [1] نفسه ولقد سلك القرآن مسلكه مع الكفار والمشركين والملحدين وفسر الرسول صلى الله عليه وسلم وطبق هذه المسالك وهكذا الصحابة رضى الله عنهم اتخذوا القرآن منهجا وسبيلا .

ومن هنا يتفق الإمام ابن حنبل مع السلف حيث إن هذا طريقهم الذى سلكوه . ولم يسلكوا سواه بل وجدوا فيه كفايتهم (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

ويكفى أنه المنهج الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو كان هناك طريقة أخرى لعلمهم اياها وسلكها أصحابه من بعده .

وهكذا بمقارنة الإمام ابن حنبل بالسلف فى المنهج وجدناه سلفيا حتى قيل عنه أنه محيى مذهب السلف بعد التابعين بل قيل عنه أنه تابعى تخلف به الزمن ، ومن هنا كان إماما لأهل السنة .

وإذا كان هذا فى المنهج فماذا عن التطبيق ؟

الواقع أن ما نقل عن الإمام ابن حنبل يدل على أنه لم يحد فى تطبيقاته عن منهجه الذى أثر عنه .

وقد رأينا كيف كان نصياً فى كل مسائل العقيدة التى طرقها وكان يستقيها من الكتاب والسنة ويستدل عليها فى إطار ما ثبت من النصوص ولا يتعدى ذلك أو يتجاوزه برأى أو تأويل ولم يعطل النصوص أو يهملها بل كان اعماله لها حتى ولو استوحشتها الأسماع ، ومأثوراته فى ذلك عديدة كما سبق بيانه واثباته .

---

(١) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا أى لا تستعمل طرق المتكلمين فى الدفاع عن الدين بل طريقة القرآن والسنة هما العاصم من الضلال والأنحلال وفيهما الرد على أهل الضلال والانحلال .

● المقارنة بين السلف والإمام ابن حنبل فى التطبيق :

ان المتتبع لتطبيق السلف فى جانب الأسماء والصفات [1] يجد أن تطبيقاتهم فى ذلك تتمثل فى إثبات ما أثبته اللّٰه لنفسه ، أو أثبته له رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم من غير زيادة أو نقصان ، ومن غير تحريف أو تعطيل فكل ما ثبت من النصوص فى صفات اللّٰه تعالى كالسمع والبصر والعين والوجه والقدرة والقوة والرضا والسخط والحياة والفرح والضحك والأستواء والنزول وغيرها ، يثبتونها جميعها على الوجه اللائق بجلاله تعالى .

فيقولون له سمع وبصر وعين ووجه ليست مثل سمعنا وبصرنا ووجهنا وإنما هى صفات لائقة بجلاله وكماله تعالى .

ويقولون انه تعالى ينزل ، ويضحك ، وأنه تعالى استوى على العرش لا كاستوائنا وأنه ينزل ويضحك لا كنزولنا وضحكنا .

وصفاته هذه كلها كما أخبر لا كما يخطر على قلب بشر .

وبالمقارنة بين السلف وبين الإمام ابن حنبل نجد أن التقارب فى التطبيق واضح فإنه يقول بما قال به السلف فى صفة الاستواء والنزول والقدرة والعلم والكلام وسائر الصفات فهم إذ يثبتونها كما ثبتت من غير تشبيه لشىء من ذلك بصفات المخلوقين لأنه تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

فان الإمام ابن حنبل لم يختلف عنهم فى ذلك فهو يقول فى صفة الاستواء مثلا :

استوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب بشر وهكذا فى بقية الصفات .

ومن هنا يتضح أنه كما التقى الإمام ابن حنبل مع السلف فى المنهج فقد كان الحال كذلك فى التطبيق .

* * *

---

(١) إنما كان اختيار قضية الأسماء والصفات لأنها من أهم جوانب العقيدة .

والمراد بالأسماء والصفات : أسماء اللّٰه الحسنى وصفاته العلا .

الخلاصة

إن الإمام ابن حنبل كان سلفيا فى منهجه ، وسلفيا فى تطبيقه .

ومن هنا يحق أن يقال ان منهجه يعتبر معيارا للسلف ، يمكن أن يقاس به ، وأن يقاس عليه .

وإنه بحق يمثل الاتجاه السلفى .

والآن ... بقى أن نرى إلى أى مدى كان الإمام ابن تيمية قريبا أو بعيدا من الإمام ابن حنبل فى المنهج والتطبيق .

وبالتالى قريبا أو بعيدا من الاتجاه السلفى ؟!

* * *

الفصل الأول

• المقارنة بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيميه فى المنهج :

لقد تقدم أن منهج الإمام ابن تيميه ينحصر فى الأسس الآتية :

تقديم الشرع على العقل ، ورفض التأويل ، والاستدلال بطريقة القرآن الكريم

١ - فأما تقديم الشرع على العقل : فلأن الشرع هو الحق والفرقان أما ما سواه من كلام فإنه يعرض عليه فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل (١) ومقصود الإمام ابن تيميه أن تؤخذ العلوم الدينية من اللّه والرسول صلى اللّه عليه وسلم سمعيها وعقليها ويجعل ما جاء به هو الحق .

ويؤكد تقديم الشرع على غيره لأن الشرع أصله القرآن والرسول صلى اللّه عليه وسلم مبين ومبلغ ، والصحابة رضى اللّه عنهم تلقوا هذا البيان وأمروا بأدائه وتبليغه كما سمعوه وفقهوه وكذلك من تبعهم بإحسان (٢) .

هذا هو الأساس الأول عند الإمام ابن تيمية حيث يرى أن النصوص هى العمدة ويرى الاثار قبل الرجال ، ويرى تقديم النصوص على كل شىء كائنا ما كان (٣) .

ومع مقارنة هذا المنهج بمنهج الإمام ابن حنبل نجد أنهما متفقان .

فالنصوص عند الإمام ابن حنبل هى الأصل وهى العمدة أيضا وكما عرف عنه لم نجده يخرج عن حدود النصوص وكثيرا ما كان يقول كما روى عنه (٤) :

---

(١) رسالة الفرقان لابن تيميه ص ١٠٦ ضمن مجموعة الرسائل الكبرى .

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية ص ٣٤

(٣) مجموع الرسائل الكبرى ص ٤٠٩ ج ٢

(٤) المناقب لابن الجوزى ص ١٥٥

« هذه الأحاديث - أى الواردة فيما يتعلق بصفات الله تعالى نرويها كما جاءت ».

وكثيرا ما كان يمتنع عن الكلام إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ أو عن أصحابه رضى الله عنهم [١] .

فكما أن النصوص عند الإمام ابن حنبل هى الأصل والأساس لأنها تمثل الشرع ومن هنا يجب تقديمها فكذلك الحال عند الإمام ابن تيمية .

والإمام ابن حنبل إذ يقدم النصوص أو بمعنى آخر إذ يقدم الشرع على العقل فذلك لأنه أى العقل محدود الإمكانية مثل السمع والبصر ولا تعرف أمور الغيب إلا من الشرع ومن هنا وجب تقديمه . هكذا كان فى كل ما نقل عنه [٢] لم يقدم الرأى ولم يقدم العقل ولم يجعل لغير النصوص أحقية فى التقديم لأن ماعدا الشرع غير مأمون العاقبة . بينما الشرع لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . فتقديم ما حقه التقديم أولى [٣] .

والإمام ابن تيميه لم يلتق مع الإمام ابن حنبل لمجرد تقديمه للنصوص ولكنه أيضا يلتقى معه في اعمالها وعدم اهمالها فالمعنى عند كل منهما معلوم أما الكيف فلا يخوضان فيه .

وليس الإمام ابن تيميه مؤمنا بمجرد التقديم للنص مع تفويض المعنى كما تقدم [٤] وإنما يقدم النص مع إعماله ، وفهم معناه ويعيب على الذين يقفون

---

(١) ترجمة الإمام ابن حنبل للحافظ الذهبى فى مقدمة المسند ص ١٢٤ ج ١

(٢) طبقات الحنابلة لأبى يعلى والطبقات للسبكى والذيل على الطبقات لابن رجب والمنافب لابن الجوزى . وغيرها وكذلك كتب الإمام ورسائله كالرد على الجهمية ورسالته إلى مسدد بن مسرهد وغيرها .

(٣) ترجمة الإمام أحمد للحافظ الذهبى من مقدم المسند ص ١٢٤ ج ١

(٤) انظر موضوع التفويض من هذا البحث .

جامدين مع مجرد الظاهر دون فهم المعنى ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ فهو يعيب الأمية والجهالة وجعل كلام اللّه كالطلاسم أو الكلمات الأعجمية التى لا يعلم معناها . ويقول حاشا للّه ولرسول اللّه ﷺ أن يكون ذلك فى كلامهما أو بيانهما ويقول ان الرسول بين كل شيء والصحابة فقهوا عنه كل شيء . كل يحسب امكاناته كما قال أمير المؤمنين عمر (ما من شيء إلا بينه رسول اللّه ﷺ فقهه من فقهه) .

وفى هذا يلتقى الإمام ابن تيميه مع الإمام ابن حنبل فى اعمال النصوص مع تقديمها وفقه معناها وتفسيرها وبيانها . وإن كان الإمام ابن تيميه زاد فى إعماله للنصوص وإيمانه بظاهرها وبيانها إلى الحد الذى اتهمه البعض فيه بالتجسيم ولكنه يدافع عن نفسه بأن الظاهر مشترك إذا ما اطلق أما إذا اضيف إلى اللّه تعالى فينصرف إلى ما يليق به تعالى وحينئذ فليس هناك تجسيم ولا تشبيه إذا اضيفت الصفة إلى اللّه تعالى . وإنما هو الآثبات مع التنزيه فإن قيل يد فهى مشتركة وإما إذا قيل يد اللّه فتنصرف إلى ما يليق بجلال اللّه وكماله وإن قيل يد بشرية انصرفت إلى الجارحة .

ومن هنا فهو يلتقى مع الإمام ابن حنبل فى الإيمان بظاهر النص مع إعماله وفهمه وتفسير معناه اما تفسير كيفه وكنهه فهذا غيب لا يعلمه إلا اللّه . كما قال الإمام ابن حنبل (نرويها كما جاءت [١] ... وارجاء ما غاب عنا من الأمور إلى اللّه [٢]) .

وينفى الإمام ابن تيميه عن الإمام أحمد أن يكون مفوضا بما قد ثبت عنه من فهمه للنصوص وتفسيرها وردوده على الملحدين فيها واكبر دليل على ذلك كتابه القيم الرد على الجهمية والزنادقة . وفى هذا يريد أن يتقارب مع الإمام ابن حنبل فى أن كلا منهما على وفاق فى تقديم النصوص واعمالها ومع البحث والدراسة وجدناهما متفقين كما تقدم .

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ١٥٥ (٢) المرجع السابق .

الخلاصة

ان النصوص عند كل منهما هى الأصل والأساس وأن كلا منهما يؤمن بالنص ويفهم معناه ويفسره منعا للأمية والجهالة فى كتاب اللّه . وتنزيهه عن أن يكون مجرد ألفاظ لا معنى لها . وأما ما وراء ذلك من الكيف والكنه والحقيقة فيرجآن علمه إلى اللّه .

هذا هو الأساس عند كل منهما لم نجد بينهما خلافا يذكر وكانت نتيجة البحث أنهما متقاربان بل متفقان .

* * *

٢ - وأما رفض التأويل :

فالمراد به التأويل الفاسد [١] كما تقدم .

وإذا كان الأساس الأول عند الإمام ابن تيميه هو تقديم الشرع فمن الطبيعى أن يكون الأساس الثانى عنده رفض التأويل كما سبق .

لأن التأويل عند المتكلمين يقتضى اتخاذ العقل أصلا وأساسا ومن هنا يوجبون تقديمه على النص . فاذا ظهر تعارض بين النقل والعقل - قدموا العقل على النقل وأولوا النقل بما يوافق العقل .

ولكن الإمام ابن تيمية يدحض أن يكون العقل أصلا فى اثبات الشرع ويبين أن هذا الادعاء غير صحيح . لأنه إما أن يقال ان العقل أصل فى ثبوت الشرع فى نفس الأمر أو أنه أصل فى علمنا بصحته وكلاهما غير صحيح .

أما بالنسبة لكون العقل أصلا فى ثبوت الشرع فى نفس الأمر فلا يقول به عاقل لأن الشىء الثابت فى نفسه هو ثابت سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه لأن عدم علمنا بالحقائق لا ينفى ثبوتها فى أنفسها ، وما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم هو ثابت فى نفسه علمناه أو لم نعلمه ، كما أن من أرسله الله إلى الناس فهو رسوله سواء علموا ذلك أو لم يعلموا وعدم علمنا بوجود الشىء ليس دليلا على عدم وجوده .

وحينئذ فثبوت الرسالة فى نفسها وثبوت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وثبوت ما أخبر به ليس موقوفا على وجودنا فضلا عن أن يكون موقوفا على عقولنا ، وهذا يشبه وجود الرب سبحانه وما يستحقه من الأسماء والصفات ، فإنه ثابت فى نفسه سواء علمنا ذلك بعقولنا أم لم نعلمه .

فتبين بذلك أن الشرع ثابت فى نفسه وأن العقل ليس أصلا فى اثباته فى نفسه ولا معطيا له صفة لم تكن له .

---

(١) وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يراه العقل .

وأما ابطال ان العقل أصل فى علمنا عند الإمام ابن تيميه رادا فى ذلك على الإمام الرازى فيقول :

ان أراد [١] أن العقل أصل فى معرفتنا بالسمع فيقال له أتعنى بالعقل الغريزة التى فينا أم العلوم التى استفدناها بها ؟ .

أما الأول فممتنع لأن تلك الغريزة ليست علما يتصور أن يعارض النقل وهى شرط فى كل علم عقلى أو سمعى كالحياة ، وما كان شرطا في الشيء امتنع أن يكون منافيا له .

وان اريد بالعقل المعرفة الحاصلة بالعقل : فيقال من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلا للسمع ودليلا على صحته فان المعارف العقلية أكثر من أن تحصى والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله تعالي أرسله مثل اثبات الصانع وتصديقه للرسول بالآيات وإذا كان كذلك لم تكن جميع المعقولات أصلا للنقل لا بمعنى توقف العلم عليها ولا بمعنى الدلالة على صحته ولا بغير ذلك .

وبهذا يدحض الإمام ابن تيمية القول بأن العقل أصل للنقل .

وكذلك يدحض القول بتعارض العقل مع النقل :

بأن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح .

فالدلائل الشرعية الصحيحة نجدها عند التأمل توافق العقل الصريح وتؤازره.

وكذلك العقل الصريح يؤيد النقل الصحيح ويعاضده .

فالادعاء بتقديم العقل على الشرع ادعاء متهافت .

---

(١) أى الإمام الرازى

ومن هنا يرفض الإمام ابن تيميه التأويل ولا يأخذ به .

وبالمقارنة بينه وبين الإمام ابن حنبل فى هذا المنهج .

نجد أن الروايات عن الإمام ابن حنبل وان تعددت إلا أنه مع التحقيق اتضح أنه لم يكن مؤولا كما تقدم .

ومن هنا يمكن أن يقال إن الإمام ابن تيميه يلتقى مع الإمام ابن حنبل ويتفق معه فى رفض التأويل .

ومما يؤكد توافقهما فى هذا الأتجاه أن الإمام ابن حنبل ظل وفيا للنصوص طوال حياته دون تأويل لظاهرها أو تحريف لها عن معناها .

وقد بلغ من تمسكه بالنصوص ورفضه للتأويل غضبه الشديد على المؤولين ورفضه لمجالستهم ، ولا أدل على ذلك من تحمله للصعاب والشدائد فى سبيل ذلك وعباراته المحفوظة التى ما كان يردد غيرها حين محنة خلق القرآن حيث كان يقول : ايتونى بآية من كتاب الله ، أو حديث ثبت عن رسول الله ﷺ .

ومن هنا يلتقى الإمام ابن تيميه وهو يحارب التأويل ويرفضه مع الإمام ابن حنبل وهو يرفض التأويل ويمنعه .

● فالخلاصه :

انهما فى هذا الاتجاه متفقان حيث تمسك كل منهما بالنصوص وفهمها وأعملها ولم يتصرف فيها بتأويل أو تبديل .

ولقد كان الدافع لكل منهما هو تقديم النقل على العقل وأن التأويل ظن وتخمين لا ينازع اليقين .

وإذا كان الإمام ابن تيميه قد رفض أن يكون العقل أصلا للشرع لاختلافه وتناقضه وعدم الأطمئنان إليه ، ومن هنا كان رفضه للتأويل .

فإن الإمام ابن حنبل اعتبر ان النصوص هى طريق الأمان والأطمئنان أما التأويلات العقلية فهى مجرد احتمالات لا يترك النص الثابت من أجلها ، وأشهر الروايات تدل على ذلك .

ومن أشهر ما ثبت عنه قوله :

« إنًا لاندرى إن أولنا أكان تأويلنا موافقا لمراد اللّه تعالى فيما أنزل أم لا »
ثم يقول :

« فالمؤول لا يستطيع أن يدعى الجزم بما أول واليقين هو الظاهر وهو الحقيقة دون المجاز » (١) .

ومن هنا كان الأتفاق بين الأمامين وكان اللقاء بينهما على هذا المبدأ .

٣ - وأما طريقة القرآن الكريم :

فقد اتضح مما سبق أن الإمام ابن تيمية اعتمد عليها واتخذها منهجا له فى الاستدلال ووجد أن ذلك أقرب إلى الفطرة وأضمن للوصول إلى الغاية ، ووجد فى أدلة القرآن من البراهين العقلية الصريحة ما يناسب جميع الناس ، وقد وجدها اكثر دلالة على مطلوب الشرع من أدلة الفلاسفة والمتكلمين ، واعتبر أن طريقة هؤلاء مخالفة للفطرة الإنسانية ، أما طريقة القرآن فهى فطرية أى تعتمد على أساس فطرى حتى ليكاد أن يكون كل إنسان مفطوراً على الاعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبره ، ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك .

والفطرة السليمة تشهد بأن اللّه تعالى خلق الإنسان وعنى به وأحاطه ببيئته ينتفع بها فى تسيير شئونه كلها من أرض وسماء وماء وهواء وليل ونهار وحيوان ونبات وسائر المخلوقات .

والفطرة السليمة تدرك أن اللّه سبحانه هو واهب الوجود وواهب الحياة ، وهو

---

(١) طبقات الحنابلة لأبى يعلى ، والسنن للخلال والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران الدمشقى وغيرها من كتب الطبقات والتراجم .

وحده واضع نظام الكون ومبدعه . وإذا كان الله وحده هو المبدع الخالق لجميع الكائنات فغيره لا يستطيع أن يخلق شيئا .ويوجه القرآن بتوجيهاته المتكررة إلى ذلك فيقول :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾

﴿ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

ثم يوجه القرآن الإنسان إلى النظر فى نفسه ليعرف كيف خلقت ومن الذى خلقها وأنشأها : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ﴿ فلينظر الأنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ .

ثم يوجهه أن ينظر إلى ما حوله ليرى آثار قدرة ربه . وانعامه عليه :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

ثم يوجه الإنسان إلى توحيد الله ربه وخالقه فيستدل بالمألوف والمعروف ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ .

ويستدل بوحدة النظام ، ووحدة الخلق ، وخضوع المخلوقات جميعا لنظام واحد متسق ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وبهذا النصوص القرآنية البينة يمكن الاستعاضة عن الطرق الكلامية الغامضة حيث إنها تثبت العقيدة فى النفوس عن طريق مخاطبة الفطرة والوجدان [١]

---

(١) الوجدان : هو الشعور والأنفعال . انظر معجم المصطلحات النفسية والتربوية . د/ مصطفى زيدان . دار الشروق . جدة . المملكة العربية السعودية .

واستثارة المشاعر والأحاسيس فيشعر الإنسان حينئذ من أعماق نفسه بالاصغاء والاستجابة .

هذا هو المنهج الذى رآه الإمام ابن تيميه . ورأى فيه السهولة المتوافقة مع الفطرة الإنسانية وهو فى هذا لا يختلف عن الإمام ابن حنبل فبالمقارنة بينهما نجد أن كلا منهما قد ارتضى هذه الطريقة واختارها دون طرق الفلاسفة والمتكلمين .

فمع الدراسة لمنهج الإمام ابن حنبل لا يجد المتتبع لمذهبه إلا الرفض الدائم والمستمر لطريقة علماء الكلام .

بل إن الباحث لايكاد يرى فيما أثر عن الإمام ابن حنبل إلا الكراهية لعلماء الكلام بل الرفض لمجرد مجالستهم ومخالطتهم ناهيك عن طريقتهم ومنهجهم حتى لقد أثر عنه أنه قال لمن سأله أن يناظر أهل الكلام : (ان الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ويكرهون الجلوس مع أهل الزيغ) .

ثم نجده مفضلا طريقة القرآن ومنهجه وما جاء فيه فيقول : وانما الأمر فى التسليم والأنتهاء إلى ما فى كتاب اللّه لا تَعَدٌ ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب وجلوس مع مبتدع ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه دينه (١) .

والأمام ابن تيميه يتفق مع الأمام ابن حنبل فى ان طريقة علماء الكلام ليست ميسرة ولكنها معقدة وهذا ما دعا الأمام ابن حنبل إلى رفضها بل إن الإمام ابن حنبل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حيث حذر منها ونهى عنها ودعا إلى طريقة القرآن الكريم ومنهجه مبينا أنها أحسن الطرق وأن منهجه أقوم المناهج .

---

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر فى المقدمة .

يقول الإمام ابن حنبل فى ذلك : [1] (لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شيء من هذا الا ما كان فى كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ .

ثم يقول فى موضع آخر : (لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة) [2]
وكأنه يعتقد أنه ليس فوق منهج الله الذى جاء به القرآن أو أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام ليس فوق ذلك من منهج وليس يدافع عن السنة كالسنة ولا يدافع عن القرآن كالقرآن .

ومن هنا يلتقى الإمام ابن تيمية مع الإمام ابن حنبل فى أن طريقة القرآن هى الطريقة المثلى فى تثبيت العقيدة وأنها هى التى نهجها رسول الله ﷺ وأصحابه ولو كان هناك طريقة أخرى لسلكها ولعلم الأمة اياها . ومن هنا فهما فى المنهج متقاربان لا يكادان يختلفان .

وإذا كان الأمر هكذا فى المنهج فماذا عن التطبيق ؟

هذا ما سيتناوله البحث منتقيا بعض النماذج من مسائل العقيدة حتى يتبين مدى التزام كل من الأمامين بمنهجه الذي ارتضاه لنفسه ، وإلى أى مدى كان الألتزام به أو الخروج عنه .

وبهذا تتضح المقارنة بينهما فى التطبيق كما اتضحت بينهما فى المنهج .

* * *

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ١٥٦

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦

الفصل الثانى

● المقارنة بينهما فى التطبيق :

لقد رأينا من خلال ما تقدم أن عقيدة الإمام ابن حنبل تتركز حول الإيمان بما ثبت من النصوص حيث يؤمن بمعناها كما جاءت دون زيادة حرف أو نقصانه ، مع ارجاع علم كيفها وحقيقتها إلى اللّه تعالى لأن الكيف والحقيقة من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا اللّه ، وليس للعقل مجال فى بحثها والخوض فيها لأن العقول قاصرة عن ادراك كنه تلك الصفات .

ورأينا أن الكتاب والسنة هما دليله فى ذلك غير متجاوز لهما ولا مؤول لأن الظاهر يقين والتأويل تخمين لا يعلم هل هو المراد أم لا ؟

ولقد اتضح من عقيدته أيضا الإيمان بتنزيه اللّه تعالى من أن تشبه صفاته صفات المخلوقين وان الضابط للاثبات والتنزيه عنده ، قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ وإذا كانت للنصوص هذه القيمة الرفيعة لدى الإمام ابن حنبل فلانها من وحى اللّه الذي لا ينطق عن الهوى .

ومن هنا أيضا كان تطبيقه لهذا المنهج فى مسائل العقيدة على هذا الدرب دون زيغ أو انحراف ودون تأويل أو تعطيل .

ولقد رأينا من خلال البحث والدراسة فيما يتصل بعقيدة الإمام ابن حنبل فى النصوص المتعلقة بالصفات يقول فيها :

أمروها كما جاءت (دون تأويل) .

وروى عنه أنه قال فى صفة الاستواء : استوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب البشر [1] .

---

(١) العقائد السلفيه ص ١٢١ ج ١

وسئل عمن يقولون : ان اللّه ليس على العرش فقال : كلامهم كله يدور على الكفر . أى كلام المنكرين أن اللّه على العرش .

ويتوسع الإمام ابن حنبل فى رده على الجهمية المنكرين أن يكون اللّه على العرش .

فيقول لهم : (١)

لم انكرتم أن يكون اللّه على العرش وقد قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش أستوى ﴾ .

وقال تعالى ﴿ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ .

فيقول الجهمية :

هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش وفى السموات وفى الأرض وفى كل مكان ولا يخلو منه مكان ولا يكون فى مكان دون مكان

ويستدلون بقوله تعالى ﴿ وهو اللّه فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ .

فيقول الإمام ابن حنبل لهم :

قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شىء .

فيقول لهم : أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شىء ، وقد أخبرنا أنه فى السماء .

فقال تعالى ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ ﴿ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ .

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة لابن حنبل ص ١٣٥ . ط دار اللواء بالرياض .

وقال ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، وقال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ويعلق الإمام ابن حنبل على تلك الفوقية بقوله :

فهذا خبر اللّه أخبرنا أنه فى السماء ووجدنا كل شىء أسفل منه مذموما . يقول اللّه جل ثناؤه ﴿ ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ .

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والأنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

ثم يقول للجهمية أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه والشياطين مكانهم فلم يكن اللّه ليجتمع هو وإبليس فى مكان واحد وإنما معنى قول اللّه جل ثناؤه ﴿ وهو اللّه فى السموات وفى الأرض ﴾ .

أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض وهو على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش ولا يخلو من علم اللّه مكان .

فذلك قوله تعالى ﴿ لتعلموا أن اللّه على كل شىء قدير وأن اللّه قد أحاط بكل شىء علما ﴾ ..

● ثم ضرب لذلك مثلا فحواه :

لو أن رجلا كان فى يديه قدح من قوارير صاف وفيه شراب صاف كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم فى القدح ، فاللّه تعالى وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شىء من خلقه .

وهكذا كان الإمام ابن حنبل ملتزما بمنهجه أثناء التطبيق :

أبى أن يؤول النزول بالعلم وأبى أن يؤول الأستواء بالأستيلاء .ولو أنه لم يؤول المعية أيضا وقال إنها معية تليق بجلاله تعالى كما قيل فى النزول والأستواء لاستقام له منهجه . وقد قال بذلك الإمام الشوكانى فى رسالته عن مذهب السلف [١] . ولكن يشفع له أن القرينة فى الآية الكريمة تسوغ تفسير

---

(١) التحف فى مذاهب السلف للشوكانى ص ١٦

المعية بالعلم حيث بدأت الآية بالعلم وانتهت بالعلم فدل على أن المراد بالمعية - هنا - العلم . فدل ذلك على أنه ليس من باب التأويل الممنوع كما تقدم (١) .

هذا عن الإمام ابن حنبل فى التطبيق فماذا عن الإمام ابن تيميه ؟

ان المقارنة بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيميه فى التطبيق لا تضع أيدينا على خلاف يذكر فى تلك المسائل المتقدمة . فإن الإمام ابن حنبل وان التزام باحترام النصوص وعدم تأويلها فقد كان الحال كذلك عند الإمام ابن تيميه الذى اعتبر أن التأويل يؤدى إلى تعطيل آيات الصفات لله تعالى عن دلالتها على المعنى المسوقة لأجله . فإن هذه الآيات جاءت لتدل على ثبوت هذه المعانى لله تعالى فأذا حملت على خلاف ذلك بتأويلها كان ذلك نفيا للمعنى الذى جاءت من أجله واثباتا لمعنى آخر لم تدل عليه الآيات لا نصا ولا ظاهرا . ولهذا صرح بأن الله سميع عليم وأنه استوى على عرشه وخلق آدم بيده وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ويجىء يوم القيامة وكل ذلك على الحقيقة لا على المجاز لأن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه الصفات ومن هنا فلا داعى لتأويل هذه الصفات أو صرفها عن ظاهرها . ولهذا ثبت عنه فى كثير من النصوص المتقدمة أنه يجب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث .

وهذا بالضبط ما ذهب إليه الإمام ابن حنبل حيث يقول : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث » (٢) .

ومن هنا فهما متفقان كما تقدم ، وإن كان الإمام ابن تيميه قد قيل أنه انفرد ببعض المسائل التى خالف فيها الإمام ابن حنبل .

---

(١) إشارة إلى ما قيل عن الإمام بن حنبل من أنه أول المعية بالعلم فى قوله تعالى ﴿ هو معهم اينما كانوا ﴾ المجادلة : ٧

(٢) الرسائل الكبرى ص ٤١٨ ج ١

وسوف نتتبع ما أثر عنه فى صفة العلو والنزول والأستواء - تلك الصفات التى كثر حولها الجدل والعراك واتهم من أجل رأيه فيها بالتشبيه والتجسيم ، وبعد تحقيقها نتبعها بتحقيق بعض القضايا المتهم فيها بمخالفة الاتجاه السلفى لنرى مدى قربه أو بعده من هذا الاتجاه .

* * *

الفصل الثالث

• المسائل المختلف فيها وتحقيقها :

• صفة العلو :

لقد سئل (١) الأمام ابن تيمية عن علو الله تعالى فأجاب :

قد وصف الله تعالى نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالعلو والأستواء على العرش والفوقية فى آيات كثيرة ، حتى ذكر أن فى القرآن اكثر من ألف دليل على أن الله تعالى عالٍ على الخلق ، وأنه فوق عباده .

ثم يقول الإمام ابن تيميه (٢) مؤكدا ذلك : إن كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة - مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر فى أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى ، وهو فوق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء . مثل قوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وقوله ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ وقوله ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ .

وقوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فى ستة مواضع كلها تدل على استواء الله تعالى على العرش ، وعلوه .

ثم يؤكد ذلك أيضا بما ورد من الأحاديث الصحاح والحسان :

---

(١) الفتاوى ص ١٢١ ج ٥

(٢) المرجع السابق .

مثل قصة معراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه ، وقوله فى الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار : فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم .

وفى الصحيح فى حديث الخوارج : (ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء) وفى حديث الرقية الذى رواه أبو داوود وغيره (ربنا الذى فى السماء تقدس اسمك) ، وقوله فى الحديث الصحيح للجارية « أين الله ؟ قالت فى السماء . قال : من أنا ؟ قالت أنت رسول الله ﷺ . قال اعتقها فأنها مؤمنة » .

وقوله فى الحديث الصحيح (إن الله لما خلق الخلق كتب فى كتاب موضوع عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى) وقوله فى حديث قبض الروح « حتى يعرج بها إلى السماء التى فيها الله تعالى » .

* * *

وإن ما فى الكتاب والسنة من قوله ﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه البعض أن « السماء » هى نفس المخلوق العالى - العرش فمادونه . فيقولون : قوله (فى السماء) بمعنى على السماء كما قال : ﴿ ولاصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ آى على جذوع النخل ولا حاجة إلى هذا ، « بل السماء » اسم جنس للعالى لا يخص شيئا فقوله تعالى ﴿ فى السماء ﴾ أى فى العلو دون السفل وهو العلى الأعلى فله أعلى العلو وهو ما فوق العرش - العلى الأعلى سبحانه وتعالى (١) .

وقول عبد الله بن رواحة الذى أنشده للنبى صلى الله عليه وسلم وأقره عليه :

---

(١) مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيميه . تعليق عبد الصمد شرف الدين مطبعة « ق » بالهند (بومباى) سنة ١٣٧٤ هـ .

شهـــدت بأن وعـــد اللّه حق　　　وأن النار مثـــوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف　　　وفـــوق العرش رب العالمينا

وقوله فى الحديث ان اللّه حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا .

● المناقشة والتحقيق :

إذا قيل ان الإمام ابن تيمية قد أثبت العلو والفوقية فمن أين له هذا الإثبات ؟ وما دليله على ذلك ؟

يجيب بأن هذا الإثبات أثبته اللّه لنفسه أو أثبته له رسوله صلى اللّه عليه وسلم فهذا الأثبات بنص الكتاب والسنه .

ويسوق الإمام ابن تيمية العديد من الأدلة على استواء اللّه وعلوه وأنه ليس فى كتاب اللّه ولا فى سنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ولا عن أحد من سلف الأمة - حرف واحد يخالف ذلك لا نصا ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم ان اللّه ليس فى السماء ولا إنه ليس على العرش ولا إنه بذاته فى كل مكان ، ولا إنه لا تجوز الأشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها بل قد ثبت فى الصحيح عن جابر رضى اللّه عنه أن النبى صلى اللّه عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات جعل يقول : « ألا هل بلغت . فيقولون :

نعم . فيرفع أصبعه إلى السماء ثم ينكتها إليهم ويقول :

« اللهم اشهد » :

ثم يقول الإمام ابن تيميه [1] ساخرا من النافين لهذه الصفات : « فلئن كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة فى الكتاب والسنة من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصا وإما ظاهرا

---

(١) الفتاوى ص ١٥ ج ٥

فكيف يجوز على اللّه تعالى ثم على رسول اللّه ﷺ ثم على خير الأمة : أنهم يتكلمون بما هو إما نص وإما ظاهر فى خلاف الحق » ؟ !! ويقول أيضا [(١)] « ثم الحق الذى يجب اعتقاده لا يبوحون به قط ولا يدلون عليه لا نصا ولا ظاهرا حتى يجىء هؤلاء النافون من الفلاسفة والمتكلمين يبينون للأمة العقيدة الصحيحة » !! .

« وكأن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء إن العباد لا يطلبون معرفة اللّه عز وجل وما يستحقه من الصفات نفيا واثباتا لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ولكن ينظرون فما وجدوه مستحقا له من الصفات فى عقولهم - وصفوه به - سواء كان موجودا فى الكتاب والسنة أو لم يكن - وما لم يجدوه مستحقا له فى عقولهم فلا يصفونه به !!

ويبين الإمام ابن تيميه أن هذا الأمر على ما يقول هؤلاء يؤدى إلى أن الناس عند التنازع لا يتحاكمون إلى كتاب اللّه ولا إلى سنة رسول اللّه عليه وسلم . بل إلى طواغيتهم وأهوائهم وعقولهم ثم يشبه حال المتكلمين حينئذ بقوله تعالى :

﴿ ألم إلى الذين يزعمون أفهم أمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ فإن هؤلاء إذا دعوا إلى ما أنزل اللّه اعرضوا وهم يقولون إنا قصدنا الأحسان علما وعملا بهذا الطريق التى سلكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية .

والإمام ابن تيميه لا يسميها دلائل عقلية بل يجعلها شبهات تقلدوا اكثرها عن طواغبت المشركين مع أن الإيمان لا يكون إلا بالتسليم والأحتكام الكامل إلى رسول اللّه ﷺ (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ ثم بين الإمام ابن تيميه خطورة هذا الأنحراف اللازم من أقوال هؤلاء المتكلمين بأنه

---

(١) المرجع السابق .

يؤدى إلى ترك الكتاب والسنة جانبا ويؤدى ذلك إلى ألا يكون الكتاب هدى للناس ولا بيانا ولا شفاء لما فى الصدور .

وأيضا يؤول الأمر إلى أن لازم مقالة هؤلاء المتكلمين أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيرا لهم فى أصل دينهم لأن مردهم قبل الرسالة وبعدها واحد .

ويتهم الإمام ابن تيميه من هؤلاء المتكلمين المتأولين المحكمين عقولهم فوق شرع الله فيقول (١) :

كيف لم يقل الرسول يوما من الدهر ولا أحد من سلف الأمة : هذه الآيات والآحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه ولكن اعتقدوا الذى تقتضيه مقاييسكم فإنه الحق وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره أو انظروا فيها فما وافق قياس عقولكم فاقبلوه ومالا فتوقفوا فيه أو انفوه ؟ !! ثم رسول الله ﷺ قد أخبر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة فقد علم ما سيكون ثم قال : انى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله » .

وروى أنه قال فى صفة الفرقة الناجية « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

فهلا قال من تمسك بالقرآن أو بدلالة القرآن أو بظاهر القرآن فهو ضال ؟ وإنما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم وما يحدثه المتكلمون منكم ؟ !!

إن شيئا من ذلك لم يكن وإنما كانت وصيته صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى ما كان عليه وأصحابه . وهم قد أثبتوا له العلو والاستواء فلا نحيد عنه ولا نؤوله .

وينتهى الإمام ابن تيميه إلى اثبات صفة العلو لله تعالى من عدة نواح :

١ - من ناحية أن الفطرة السليمة مجبولة على الاعتراف لله تعالى بالعلو

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه ص ١٩ ج ٥

ويشعر الإنسان بذلك حين يتوجه قلبه إلى جهة العلو مضطرا إلى ذلك حين الدعاء أو الاستغاثة أو الابتهال إلى الله عز وجل .

٢ - ان جميع النصوص من الكتاب والسنة تدل على علو الله تعالى وأنه فوق كل شيء .

٣ - المراد بالعلو والفوقية هو العلو الحقيقى والفوقية الحقيقية لا علو الرتبة أو فوقيتها لأن فوقية الرتبة والمكانة لا تكون إلا بين شيئين اشتركا فى معنى ما وفضل احدهما الآخر فى ذلك المعنى وهذا بالنسبة لله تعالى محال . لأنه ليس كمثله شيء . وله المثل الأعلى .

ولو كان المراد فوقية الرتبة أو المكانة لم يتصرف القرآن فى موارد هذه الصفة هذا التصرف العجيب كما يقول ابن القيم (١) ولم يتوسع فيها كل هذا التوسع .

٤ - ليس فى العقل ولا فى النقل ما يناقض وصفة تعالى بالفوقية والعلو .

٥ - ان العلو صفة كمال والسفل صفة نقص ، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب اللائق لجلال الله وكمال ذاته المنزهة عن الحوادث ومماثلتها .

٦ - ان نفى العلو يؤدى إلى القول بالحلول والأتحاد لأن النفوس مجبولة على التوجه إلى الله تعالى فى جهة العلو .

فإذا انتفى العلو عن الله تعالى بقيت النفوس حائرة أين تتوجه بالدعاء ؟ لأنه ليس فى هذا العالم إلا الخالق والمخلوق فلما نفى المتكلمون أن يكون هناك وجود آخر متمايز عن وجود المخلوقين اضطربت كلمتهم فمنهم من قال إنه فى كل مكان ومنهم من قال لا مكان له بل هو عين الموجودات أو حال فيها لأنهم لما نفوا أن يكون فوق العرش إله لزم من ذلك أن يقولوا هو هذا الوجود (٢) ومن

---

(١) الصواعق المرسلة ص ٣٠٩ ج ٢

(٢) الفتاوى ص ٩٧ وما بعدها ج ١٦

هنا كان نفى العلوله علاقة وشيجة بالقول بالحلول أو الاتحاد لأنه لم يبق بعد نفى العلو إلا أن تطلبه النفوس فى الموجودات إما متحدا بها أو حالا فيها ولكن إذا كان الإمام ابن تيمية قد استدل على اثبات العلو والفوقية فلا يزال الاعتراض قائما على أن هذا الاثبات يستلزم الحيز والجهة ، وذلك يؤدى إلى الجسمية والله منزه عن ذلك .

وأيضا يمكن أن يقال إن اثبات الجهة دليل الاحتياج المنافى للكمال الآلهى .

فكيف يجيب الإمام ابن تيميه عن كل ذلك ؟؟

إنه يقول إن هذه الاعتراضات نشأت عن قياس الغائب على الشاهد - وهذا خطأ فادح - لأن الله تعالى خلق جميع مخلوقاته وهى كلها فى حاجة إليه فكيف يكون هو فى حاجة إليها ؟ وكيف يقاس الخالق على المخلوق .

ومن هنا فالعلو ثابت واللوازم باطلة لأن علو الله تعالى وفوقيته ليست مثل فوقية البشر ،حتى تستلزم الحيز والجهة ، وأن القول بأن العلو يستلزم هذه المعانى إنما نشأ من قياس الخالق على المخلوق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وليس معنى كون الله فى السماء أن السماء تحتويه أو تحيط به بل هو سبحانه فوق كل شىء ومحيط بكل شىء ووسع كرسيه السموات والأرض .

وقد يدفع الإمام ابن تيمية شبهة الجسمية [١] ، ويدفع شبهة التشبيه بأن ذلك لا يكون إلا إذا كان العلو مثل علو المخلوق كما قال اسحاق بن راهويه [٢] : إنما يكون التشبيه إذا قال يد مثل يدى أو سمع كسمعى فهذا تشبيه وأما إذا قال كما قال الله : يد وسمع وبصر فلا يقول كيف ولا يقول مثل فهذا لا يكون تشبيها .

قال تعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ولو كان اثبات الفوقية

---

(١) أى يبطل شبهة الجسمية المركبة الحادثة التى يتوهمها المتوهمون ويردها ويدفعها

(٢) العلو للذهبى ص ٦٩

للّه تعالى معناه التشبيه لكان كل من أثبت الصفات الأخرى للّه تعالى ككونه حيا قديرا سميعا بصيرا مشبها أيضا وهذا ما لا يقول به مسلم ممن ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة خلافا لنفاة الصفات من المعتزلة وغيرهم .

ثم يقول الإمام ابن تيمية إن لفظ التشبيه فى كلام الناس لفظ مجمل فان أريد بنفى التشبيه ما نفاه القرآن فهذا حق وإن أريد بالتشبيه أنه لا يثبت للّه شىء من الصفات فلا يقال له تعالى علم ولا قدرة ولا حياة لأن العبد موصوف بهذه الصفات فيلزم ألا يقال له حى ، عليم ، قدير لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك فى كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك ولا يقال حينئذ أن هذا تشبيه يجب نفيه [(١)] .

ثم يدفع الإمام ابن تيمية شبهة الجهة بقوله [(٢)] .

« قد يراد بالجهة شىء موجود وهو الأمر الوجودى غير اللّه فيكون مخلوقا كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات . وقد يراد به ما ليس بموجود وهو الأمر العدمى غير اللّه تعالى كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم ، ومعلوم أنه ليس فى النص أثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق والخالق سبحانه وتعالى مباين للمخلوق ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته فيقال لمن نفى : أتريد بالجهة أنها شىء مخلوق موجود ؟ فاللّه ليس داخلا فى المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم فلا ريب أن اللّه فوق العالم .

وكذلك يقال لمن أثبت وقال إن اللّه فى جهة : أتريد بذلك أن اللّه فوق العالم[(٣)] .

---

(١) منهاج السنة ص ٨٠ ج ٢
(٢) العقيدة التدمرية ص ٤٥
(٣) شرح حديث النزول ص ٧١

أو تريد به أن الله داخل فى شىء من المخلوقات ؟ فإن أردت الأول فهو حق وإن أردت الثانى فهو باطل وبالتحقيق لا يستطيع قائل أن يثبت أن الإمام ابن تيميه صرح بالجهة وإنما يؤخذ عليه أن ذلك لازم لمذهبه وهل لازم المذهب يعتبر مذهبا ؟

إن العلماء المحققين وتنبيهات السلفيين والخلفيين على أن لازم المذهب ليس بمذهب [١] .

يقول العلامة ابن حجر [٢] « ولازم المذهب ليس بمذهب ولم يزل المذكور [٣] داعية إلى الإيمان بالله تعالى طول عمره .

ويقول العز بن عبد السلام فى قواعده الكبرى [٤] مبيناً ان لازم المذهب ليس بمذهب :

فإن قيل يلزم من الاختلاف فى كونه سبحانه فى جهة أن يكون حادثا قلنا : لازم المذهب ليس بمذهب لأن المجسمة جازمون بأنه فى جهة وجازمون بأنه قديم أزلى ليس بمحدث فلا يجوز أن ينسب إلى مذهب من يصرح بخلافه وإن كان لازما من قوله [أ] .

والثابت أن الإمام ابن تيمية قال بالعلو والفوقية وهذا ثابت بالنص أما

---

(١) جلاء العينين للألوسى ص ٤٠٨ والرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقى ص ١٧٩

(٢) هو أحمد بن على بن حجر الشافعى العسقلانى ولد بالقاهرة سنة ٧٧٣ هـ وتوفى بها سنة ٨٥٢ هـ وهو من الحفاظ الذين خدموا احاديث رسول الله ﷺ .

(٣) يعنى به الإمام ابن تيميه (انظر الرد الوافر ص ١٤٤) .

(٤) جلاء العينيين للألوسى ص ٤٠٨

(أ) المرجع السابق ص ٤٠٩

الفوقية فالثابت أنه فسرها بالأمر الوجودى وبالأمر العدمى ثم أبطل تفسيرها بالمعنى الوجودى [ب] وهكذا التحيز أيضا يحتمل معنيين :

إن أريد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر ، لأنه وسع كرسيه السموات والأرض وان أريد به أنه مباين للمخلوقات منفصل عنها ليس حالا فى شىء منها فهذا صحيح وهو قول السلف وأئمة السنة حيث ذهبوا إلى أن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه [٢] .

تخريج الأدلة وتحقيقها :

فأما أحاديث قصة المعراج [٣] فهى طويلة مشهورة جمعها الحافظ عبد الغنى فى جزأين [١] وأخرج بعضها الإمام مسلم (١١١/١) وروى بعضها البيهقى فى الأسماء والصفات (٤٣٨ - ٤٤١) .

وقال الحافظ الذهبى أن بعض أحاديث المعراج كحديث أنس عن مالك بن صعصعة متفق عليه .

وأما حديث نزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه وقوله فى الملائكة

(ب) الفوقية قديرادبها شىء موجود غير الله فيكون مخلوقا وهو الأمر الوجودى ، وقد يراد ما ليس بموجود غير الله تعالى . وهو معناها العدمى كما إذا أراد ما فوق العالى وقد علم أن ما هناك موجود إلا الخالق والمخلوق والخالق سبحانه مغاير للمخلوق . فإن أراد بالفوقيه .أنها شىء مخلوق موجود فالله تعالى ليس داخلا فى المخلوقات وبهذا بطل المعنى الوجودى للفوقيه

(٢) العقيدة التدمرية ص ٤٤

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير من طرق قصة المعراج واستقصى ذلك السيوطى فى كتابه « الآية الكبرى فى المعراج والأسراء » وذكر الأمام ابن القيم فى كتابة الجيوش الإسلامية أن قصة المعراج متواترة . ولا شك فى تواتر أصل القصة واما تفاصيلها ففيها الصحيح الكثير الطيب وفيها ما دون ذلك .

(٤) مختصر العلو للحافظ الذهبى ص ١١٦

الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار : فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم [١] فهو أيضاً متفق عليه .

وأما حديث أبى سعيد قال :

قال رسول الله ﷺ الا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء فهو حديث صحيح [٢] .

وأما حديث ان الله لما خلق الخلق [٣] كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى فمتفق عليه .

وأما قصة الجارية فهى من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : كانت لى غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لى فأطلقتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة - وأنا رجل من بنى آدم - فأسفت فصككتها ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فعظم ذلك على فقلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال :

ادعها فدعوتها فقال لها أين الله ؟

قالت فى السماء . قال : من أنا قالت (أنت) رسول الله ﷺ قال : اعتقها

---

(١) متفق عليه ذكره الإمام الذهبى فى كتابه مختصر العلو ص ٨٣

(٢) علق الذهبى بأنه متفق عليه انظر مختصر العلو ص ٨٤

(٣) الحديث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لما قضى الله الخلق .

وفى لفظ « أن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق » ...

وفى لفظ آخر « لما خلق الله الخلق .. »

حديث صحيح وبعض الفاظه عند الشيخين واللفظ الآخير للترمذى انظر سلسلة الآحاديث الصحيحة الألبانى (١٦٣٩) وتخريج السنة لابن أبى عاصم (٨١٠ ، ٨١١) .

فأنها مؤمنة (١) وهذه الرواية هى الثابتة المتفق على صحتها بين المحدثين (٢) .

إلا أن البعض يحاول التشكيك فى صحته بادعاء الاضطراب فيه وادعى أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مع الجارية لم يكن إلا بالأشارة .

ولكن هذه الرواية كما يقول علماء الحديث منكرة (٣) .

ولا وجه لمن يعتمد عليها (٤) لأنها مخالفة لما اتفق عليه علماء الحديث فلا ينبغى التشكيك فى الثابت بالمنكر .

ومن هنا فقد ثبتت الفوقية وثبت العلو بما ورد من النصوص القرآنية وبما ثبت من الأحاديث النبوية . وأما الجهة فلم تتعرض لها النصوص صراحة وبالتالى لم يتعرض لها السلف اثباتا أو نفيا وهى وإن كانت تلزم من أثبات الفوقية فلا يقال

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وفى نص رواية وصفها بالأمة السوداء أخرجه الدارمى فى الرد على المريسى ص ٩٥ بسند صحيح . وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة وفى بعضها ان الجارية اعجمية وأنها اشارت إلى السماء يدل قوله قالت كما فى المسند لكن فى اسناده السعودى وكان اختلط وهذا رواه الاختلاط لانه فى المسند (٢/ ٢٩١) وسنن البيهقى (٣٨٨/٧) من رواية يزيد ابن هارون عنه فقد قال ابن غير كان ثقة واختلط بآخره . سمع منه ابن مهدى احاديث مختلطة . ومما يؤكد ضعف زيادة « أعجمية » ان الطرق الأخرى خلو منها .

والحديث مخرج فى صحيح أبى داوود (٨٦٢) وتخريج السنة لأبن أبى عاصم (٤٨٩) وقد اخرجه الإمام مسلم فى صحيحه والبيهقى فى الأسماء حيث قال عقبة ص ٤٢٢ وهذا صحيح قد أخرجه مسلم .

(٢) انظر التخريج فى كتاب مختصر العلو للذهبى ص ٨٢

(٣) انظر مختصرا العلو للذهبى ص ٨٢

(٤) اعتمد الكوثرى على هذه الرواية المنكرة واقرها - دون تحقيق - الدكتور نصار (انظر السيف الصقيل للكوثرى ص ٩٤ والمدرسة السلفية للدكتور نصار ص ٥٩١) .

إن الإمام ابن تيميه قد صرح بها ، وإنما يقال أنه فسرها وارتضى تفسيرها بالمعنى العدمى وأثبتها على هذا المعنى [١] .

والفرق واضح بينه حينئذ وبين من يصرح بها كابن رشد مثلا حين يرى ان ظواهر الشرع كلها تقتضى اثبات الجهة مثل قوله تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وقوله تعالى ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات التى ان سلط عليها التأويل صار الشرع كله مؤولا ، وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها لأن الشرائع كلها مبنية على أن اللّه فى السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحى إلى النبيين وأن من السماء نزلت الكتب وإليها كان المعراج [٢] .

ويقول فى موضع آخر : [٣]

(القول فى الجهة) وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها للّه سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبى المعالى ومن اقتدى بقوله .

ثم يقول [٤] : وظواهر الشرع كلها تقتضى اثبات الجهة .

ومن هنا فالإمام ابن تيميه أثبت ما أثبته الشرع من أن اللّه تعالى فى السماء وتعرج الملائكة إليه وهو حين يثبت العلو والفوقية يثبت علوا لائقا بذاته لا يشبه علو الخلائق وكذلك الفوقية وينفى المشابهة ويستدل بقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ ويمنع قياس الغائب على الشاهد وهو فى هذا لم يخرج عما قاله السلف بل لم يخرج عما ورد فى الكتب التى يطعنه بها الطاعنون [٥] .

---

(١) انظر التعليق ص ٣٢٦ ، ٣٢٨ هامش (١ ب) وانظر ص ٤١٦ من البحث .

(٢) مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٧٦

(٣) المرجع السابق ص ٦٦

(٤) الموضع السابق من نفس المرجع .

(٥) مثل كتاب اتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف من المتشابهات للسبكى .

فالسبكى حين يسوق الآية الكريمة من قوله تعالى ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يقول : نؤمن بها على المعنى الذى أراده سبحانه وتعالى مع كمال التنزيه عن صفات الحوادث والحلول [١] .

ثم يسوق مذهب الإمام السلفى ابن كثير الذى يسلك مذهب السلف الصالح كالإمام مالك والأوزاعى والليث بن سعد والشافعى وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهوية وغيرهم من ائمة المسلمين من أن مذهبهم : امرارها (أى آيات الصفات) كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل [٢] .

ثم يسوق مذهب الإمام نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال : من شبه اللّه بخلقه كفر ومن جحد ما وصف اللّه به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف اللّه به نفسه ولا رسوله تشبيه .

فمن أثبت للّه تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال اللّه تعالى ونفى عن اللّه تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى [٣] .

والإمام بن تيمية ايضا لم يخرج عما قاله الإمام ابن حنبل حين قيل له : « اللّه فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ؟ قال نعم هو على عرشه لا يخلو شىء من علمه » [٤] .

وبمقارنة الإمام ابن تيمية بالإمام ابن حنبل فى هذه المسألة لم نجد بينهما خلافا كما تبين . بل أقر الإمام ابن حنبل بأن اللّه فوق السماء السابعة على

---

(١) اتحاف الكائنات للسبكى ص ٥

(٢) اتحاف الكائنات للسبكى ص ٦ ، وتفسير ابن كثير ص ٤٨٨ ج ٣

(٣) الموضع السابق .

(٤) رواه الخلال وقد عزاه إليه فى كتاب السنة له ابن القيم فى الجيوش الإسلامية ص ٧٧ (وانظر مختصر العلو للذهبى ص ١٨٩)

عرشه بائن من خلقه . وهكذا أيضا لم يختلف الإمام ابن تيمية عن التابعين أو تابعيهم بإحسان فى مسألة العلو .

فقد ورد عن كعب الأحبار قال : قال اللّه عز وجل فى التوراة ﴿ أنا اللّه فوق عبادى وعرشى فوق جميع خلقى وأنا على عرشى أدبر أمور عبادى لا يخفى على شىء فى السماء ولا فى الأرض ﴾ .(١)

وهكذا عن كثير من التابعين كمسروق وشريح بن عبيد ومجاهد ومقاتل بن حيان وغيرهم (٢) .

وكذلك قال الأئمة عند ظهور جهم بن صفوان :

كقول الأمام أبى حنيفة وابن جريج والأوزاعى ومالك والشافعى والبخارى والدارمى ومسلم وابن قتيبة والترمذى وغيرهم (٣) وكلهم مثبتون للعلو والفوقية اثباتا يليق بجلال اللّه تعالى وكماله .

* * *

---

(١) رواته ثقات أورده الإمام الذهبى من رواية أبى صفوان الأموى وقال هذا سند صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين جزم بصحته فى كتاب الأربعين (ق ١/٢) وقال ابن القيم فى الجيوش الإسلامية ص ١٠٢ رواه ابو الشيخ وابن بطه وغيرهما باسناد صحيح .

(٢) انظر العلو للعلى الغفار للحافظ الذهبى مختصرا .

(٣) المرجع السابق .

الخلاصة

إن الأمام ابن تيميه أثبت العلو والفوقية بناء على ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ولقد اتضح مما سبق صحة النصوص وتحقيقها واقوال السلف فيها .

وإن كان هذا الأثبات يستلزم الجهة وأنه لم يصرح بها ويمكن الاثبات بدون اللوازم وكما هو معلوم ان لازم المذهب ليس بمذهب . ولقد أثبت الأمام ابن حنبل الرؤية بدون لوازمها (١) وكذلك بعض الأشاعرة يثبتون الرؤية بدون لوازمها من الجهة والحيز والمكان ، كما هو المفهوم من مذهبهم (٢) . فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للإمام ابن تيمية فى اثباته للعلو والفوقية بدون اللوازم من الجهة والحيز والمكان (٣) ؟!!

وبهذا يتفق مع الإمام ابن حنبل ولا يكون خارجا عن الأتجاه السلفى ، كما أثبتنا ذلك من قبل .

* * *

---

(١) انظر مناقب الأمام أحمد لابن الجوزى ص ١٧٣ وانظر الرد على الجهمية للإمام ابن حنبل .

(٢) مقالات الإسلاميين للاشعرى ص ٢٦٥ ج ١ ومناهج الأدلة لابن رشد فى المقدمة للدكتور محمود قاسم والأصول الخمسة ص ٢٣٢ والمواقف ص ١١٥ ج ٨ ونهاية الأقدام ص ٣٥٦ .

(٣) أى يمكن أن ترد على اللائمين لابن تيميه بأنه يجب أن يعامل بالمثل فكما ارتضينا من الإمام أحمد الأثبات بدون اللوازم ، فكذلك يكون الأمر بالنسبة للإمام ابن تيمية وهذا كله فى معرض الرد على الخصوم الذين يتهمون الإمام ابن تيميه بخروجه عن مذهب الإمام أحمد وبالتالى خروجه عن السلف مع أنه لم يخرج عنهم .

● الاستواء :

كما أثبت الإمام ابن تيمية صفة العلو على الحقيقة ورد أن يكون العلو على المجاز أو أن يكون مرادا به علو الرتبة . فهو كذلك يثبت الاستواء على الحقيقة دون اللجوء إلى التأويل لأنه ما دامت حقيقة ذاته لا ندركها فكذلك صفاته . ويبين أن الجهل بكيفية الاستواء لا ينفى العلم بمعنى الخطاب الذى خاطبنا به اللّه تعالى فى هذا المعنى .

ومن هنا فصفة الاستواء للّه تعالى ثابتة بما يليق بجلاله ويختص به .

وكما أنه موصوف بأنه بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص المخلوقين فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا نثبت لفوقيته خصائص المخلوقين ولوازمها (١) .

فكما أن للّه علماً وللمخلوق علماً ولكن ليس علم اللّه كعلم المخلوق .

وكما أن للّه قدرة وللمخلوق قدرة وليست هذه كتلك .

فكذلك للّه استواء على العرش حقيقة وللمخلوق استواء على الفلك حقيقة وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق فإن اللّه لا يفتقر إلى شىء بل هو الغنى عن كل شىء .

يدفع الإمام ابن تيمية الأوهام والظنون التى تنفى أن يكون استواء اللّه كاستواء خلقه لأن من جعل استواء اللّه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام لزمه أن يكون علم اللّه وسمعه وبصره وقدرته وسائر صفاته مثل المخلوقين (٢) .

فلما كانت قدرته وعلمه وسائر صفاته لا تشبه صفات المخلوقين فكذلك استواؤه لا يشبه استواءهم .

---

(١) الرسائل الكبرى ص ٤١٨ ج ١

(٢) الفتاوى ص ١٩٩ ج ٥

وقد يبين الإمام ابن تيمية ان الاستواء فى كلام العرب على نوعين : مطلق ومقيد .

والمطلق ما لم يوصل معناه بحرف كقوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ وهذا معناه كمل وتم .

وأما المقيد فأنواع ثلاثة :

أحدها : مقيد بالى كقوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ وهذا معناه ارتفع .

والثانى : مقيد بعلى كقوله تعالى : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ وهذا أيضا معناه العلو والارتفاع .

والثالث : المقيد بواو المعية وتفيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل : استوى الماء والخشبة ومعناه ساواها .

تلك هى معانى الاستواء المنقولة فى نظر الإمام ابن تيمية .

● المناقشة والتحقيق :

لقد بين الإمام ابن تيمية معانى الاستواء ولم يبين أن فيها استوى بمعنى استولى فعلى أى أساس بنى مذهبه ؟ إنه يمنع أن يكون الاستواء بمعنى الاستيلاء [1] .

لأنه لو كان المراد به الاستيلاء عليه لكان مستويا على جميع المخلوقات ولكان مستويا على العرش قبل أن يخلقه دائما ، والاستواء مختص بالعرش بعد خلق السموات والأرض كما أخبر بذلك فى كتابه فدل على أنه تارة كان مستويا عليه وتارة لم يكن مستويا عليه ولهذا كان العلو من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل ، وأما الاستواء على العرش فمن صفات المعلومة بالسمع فقط دون العقل.

---

(١) الفتاوى ص ١٢٢ ج ٥

وأما ما احتج به المتكلمون من أن استوى بمعنى استولى فى قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

ولو صح هذا البيت لكان حجة عليهم لا لهم لأن بشرا لم يستول على العراق وانما استولى عليها أخوه عبد الملك بن مروان ولم تكن هناك مغالبة بين بشرو أخيه حتى يقال أن أحدهما قد غالب الآخر واستولى منه على العراق .

وأيضا فإن البيت مختلق للاحتجاج وليس له أصل تاريخى وليس من شعر العرب الذين يحتج بقولهم .

وأيضا فإن معنى الاستواء مشهور لدى أهل العلم كما ثبت عن ربيعة شيخ الإمام مالك وعن الإمام مالك نفسه حيث قال كل منهما الاستواء معلوم والكيف مجهول . لأنه لو لم يكن الاستواء فى الآية معلوما لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول .

وأيضا ان تفسير الاستواء بالاستيلاء يشعر بمعنى المقاومة والمغالبة فمن كان مستوليا على العرش قبله حتى يكون غلبه واستولى عليه ؟ !! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وأيضا تفسير استوى بمعنى استولى لم يقل به أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من الأئمة المهتدين .

وهكذا يبطل الإمام ابن تيميه تأويل الأستواء بالاستيلاء من وجوه كثيرة ويدحض شبهة المؤولين - الذين يلجأون إلى التأويل فرارا من التشبيه أو التجسيم بأنهم لم يفهموا من النصوص إلا ما يليق بصفات المخلوقين وبناء على هذا الفهم الخاطىء أولوا فوقعوا فى تشبيه الله بخلقه أولا ثم عطلوا النصوص عما دلت عليه ثانيا .

ثم يبين أن اثبات « استواء » يليق بذاته تعالى وجلاله يميزها عن سمات المحدثين فهذا لا يلزم عنه شيء من التشبيه أو التمثيل [1] :

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ص ١٣٦ وما بعدها ج ٥

وكأن هذا الضابط الذى وضعه الإمام ابن تيمية في التنزيه هو العاصم من التشبيه والتجسيم ويتلخص هذا فى اثبات ما أثبته اللّه لنفسه أو أثبته له رسوله اثباتا يليق بجلاله وكماله . وإلا فإن ما فر منه المؤولون يمكن أن يقعوا فيه فما من صفة مؤولة إلا ويمكن أن يقال فى تأويلها ما قيل فى نصها أو ظاهرها فإن قيل استوى استولى قيل فى الإستيلاء ما يقال فى الاستواء . بمعنى أن الاستيلاء قد يكون للمخلوق كما يكون للخالق فلابد أن نقول استيلاء يليق بجلاله وإن قيل اليد تؤول بالقدرة أو النعمة قيل إن المخلوق له قدرة وله نعمة فلابد أن يقال نعمة أو قدرة تليق بجلاله وهكذا فى جميع الصفات فلو قيل من بادئ الأمر ان الصفات إذا اسندت إلى اللّه فهم منها ما يليق باللّه تعالى لانسد باب التأويل ولما كانت هناك حاجة ملجئة إليه .

وإذا اتضح الفرق بين ذات اللّه وذات المخلوقين لا تضح الفرق بين صفاته وصفاتهم فكما أن ذاته لا تشبه سائر الذوات فكذلك صفاته لا تشبه سائر الصفات .

ولكن هل يستقيم للامام ابن تيمية تفسيره الاستواء بهذا المعنى دون أن يستلزم المحالات المترتبة على ذلك ؟ إنه يجيب بنفس القاعدة التى سار عليها فى اثبات جميع الصفات من منع قياس الغائب على الشاهد وأن الاشتراك فى الاسم لايعنى الاشتراك فى الحقيقة أى أن الاستواء فى حقه تعالى يثبت الاستواء اللائق بالخالق وليس الاستواء اللائق بالمخلوق ويثبت استواء معلوم المعنى مجهول الكيف كما قال أئمة السلف استواء يليق به (١) .

وأهل السنة على أن الاستواء على العرش صفة للّه تعالى بلا كيف (٢) وكذا قاله العلامة القنوى (٣) .

---

(١) اتحاف الكائنات للسبكى ص ٥ وتفسير ابن كـ ـر ص ٤٨٨ ج ٣

(٢) تفسير البغوى ص ٤٨٨ ج ٣

(٣) تفسير البيضاوى ص ١٧٤ ج ٥ (حاشية القنوى على البيضاوى)

ومن هنا لم يخرج الإمام ابن تيمية عما قاله الأئمة كأبى حنيفة حيث قال : من قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض فقد كفر لأن اللّٰه يقول ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سبع سموات (١) . وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وله يد ووجه كما أخبر ولا يقال يده قدرته ووجهة ذاته واستواؤه استيلاؤه لأن فيه ابطال الصفة .

وكذلك قول الإمام مالك الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة (٢) .

وهكذا يقول الإمام الشافعى : السنة التى أنا عليها ورأيت أصحابنا أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما : « أن اللّٰه تعالى على عرشه فى سمائه » (٣) .

وبهذا أيضا يقول الإمام ابن حنبل (٤) كما سيتضح فيما بعد .

وبالمقارنة بين موقف الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية فى صفة العلو والاستواء :

تبين من خلال البحث أن الإمام ابن تيمية لم يختلف عن الإمام ابن حنبل فى اثبات صفة العلو والفوقية والاستواء . بل إن الإمام ابن حنبل أفرد فى رده على الجهمية بابا خاصا يعيب عليهم فيه انكارهم أن يكون اللّٰه على العرش .

وقد ظهر من رواية الخلال (٥) عن الإمام ابن حنبل عن طريق ابنه عبد اللّٰه ان الإمام ابن حنبل كان يقول للجهمية : « لم أنكرتم أن يكون اللّٰه على العرش وقد قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ » .

---

(١) الفقه الأكبر للامام ابى حنيفة النعمان .

(٢) العقائد السلفية ص ١٢ ج ١

(٣) المرج السابق .

(٤) الرد على الجهمية ص ١٣٥

(٥) العقائد السلفية لابن حجر آل أبو طامى ص ١٢١ ج ١

ومثل تلك الرواية ذكرها الإمام ابن حنبل فى كتابه المشهور الرد على الجهمية والزنادقة [١] كما ذكرت فى موضعها من هذا البحث [٢] .

وقد روى [٣] عنه أيضا أنه قال استوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب البشر .

ومن هنا فهو مؤمن بالنصوص التى أخبرت باستواء اللّٰه تعالى على عرشه دون تصرف فيها أو تأويل لها . ولئن كان الإمام ابن تيمية عاب على المؤولين لتلك الصفة وأمثالها فأن الإمام ابن حنبل كفر من أنكرها يذكر هذا ابن حجر فى كتابه العقائد السلفية [٤] .

قال : قال الميمونى :

(سألت أبا عبد اللّٰه أحمد بن حنبل عمن قال اللّٰه ليس على العرش .

فقال : كلامهم كله يدور على الكفر) [٥] .

ومن هنا فهو يثبت علو اللّٰه واستواءه على العرش دون تأويل ويكفر من ينكر ذلك وهذا ما فعله الإمام ابن تيمية ومن هنا كان الاتفاق بينهما .

- **صفة النزول للّٰه تعالى :**

لقد سلك الإمام ابن تيمية نفس المسلك أثناء تطبيقه لصفة النزول على منهجه

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة لابن حنبل ص ١٣٥

(٢) انظر المنهج والتطبيق فى الباب الرابع من هذا البحث .

(٣) العقائد السلفية لابن حجر ص ١٢١ ج ١

(٤) ص ١٢١ ج ١

(٥) المرجع السابق .

ويتضح موقفه من خلال فتواه . [1] فى رجلين تنازعا في « حديث النزول » [2] أحدهما مثبت . والآخر ناف .

فقال المثبت ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر .

فقال النافى : كيف ينزل ؟

فقال المثبت : ينزل بلا كيف .

فقال النافى : يخلو منه العرش أم لا يخلو ؟

فقال المثبت : هذا قول مبتدع .

فقال النافى : ليس هذا جوابى بل هو حيدة عن الجواب

ثم قال النافى : انما ينزل أمره ورحمته

فقال المثبت : أمره ورحمته ينزلان كل ساعة ، والنزول قد وقت له رسول الله ﷺ ثلث الليل الآخر .

فقال النافى : الليل لا يستوى وقته فى البلاد وقد يستوعب اكثر الأربع والعشرين ساعة وقد يكون العكس فى البلاد الآخرى فيلزم على هذا أن يكون ثلث الليل دائما . ويكون الرب دائما إلي السماء نازلا .

اجابة الإمام ابن تيمية ومناقشتها وتحقيقها :

أولا : بيان أن أحاديث نزول الله إلى سماء الدنيا قد استفاضت بها السنة

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ص ٣٢١ ج ٥

(٢) فى صحيح مسلم « أن الله ينزل إلى سماء الدنيا حين يمضى ثلث الليل » وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟) .

واتفق سلف الأمة وأئمتها على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول وقد ورد ذلك وثبت فى صحيح البخارى ومسلم وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وسنن أبى داوود والترمذى والنسائى .

ثانيا : أن وصف اللّه تعالى فيما صح من الأحاديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات فكما نؤمن بما أثبته اللّه لنفسه من الصفات نومن بما أثبته له رسوله من الصفات وكما أن اثبات الصفات له تعالى على الوجه اللائق به دون تشبيه له بأحد من خلقه ودون تشبيه صفاته بصفات خلقه فكذلك صفة النزول يجب اثباتها على الوجه اللائق بجلاله تعالى .

وكما أن للّه ذاتا وللمخلوق ذاتا وللّه نزول وللمخلوق نزول .

فكما أن ذات اللّه لا تشبه ذات المخلوق فكذلك نزوله تعالى لا يشبه نزول المخلوق .

أى كما يقال فى الذات يقال فى الصفات .

واللّه تعالى ليس كمثله شىء فصفاته وأفعاله كذلك لا يشبهها شىء .

ثالثا : إذا قيل إن النزول لا يعقل إلا لجسم مركب واللّه منزه عن هذه اللوازم فيلزم تنزيهه عن الملزوم أو قيل إن هذه حادثة والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب فإنه يقال : وكذلك سائر الصفات من الارادة والسمع والبصر والعلم والقدرة من صفات الاجسام . فإنه كما لا يعقل ما ينزل إلا جسما فكذلك لم يعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويقدر إلا جسما . فإن قيل سمعه ليس كسمعنا وبصره ليس كبصرنا وقدرته ليست كقدرتنا .

قيل وكذلك نزوله ليس كنزولنا .

وإن قيل إن هذه الصفات لا تقتضى الجسمية فيقال وكذلك صفة النزول لا تقتضى الجسمية .

رابعا : إذا كانت الملائكة وهم مخلوقون من النور كما هو ثابت [1] .

ومع ذلك فهم لا يأكلون ولا يشربون وهم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ويصعدون وينزلون وهم مع ذلك لا تماثل صفاتهم وأفعالهم صفات الإنسان وفعله فالخالق تعالى أعظم مباينة لمخلوقاته من مباينة الملائكة للآدميين . وله المثل الأعلى سبحانه وتعالى . وكذلك « روح ابن آدم » تسمع وتبصر وتتكلم وتنزل وتصعد كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة ، ومع ذلك فليست صفاتها وأفعالها كصفات البدن وأفعاله .

فإذا لم يجز أن يقال إن صفات الروح وأفعالها مثل صفات الجسم وهى مقرونة به وهما جميعا الإنسان ، فإذا لم يكن روح الإنسان مماثلا للجسم الذى هو بدنه فكيف يجوز أن يجعل الرب تبارك وتعالى وصفاته وأفعاله مثل الجسم وصفاته وأفعاله ؟ !!

خامسا : إذا قيل كيف ينزل ربنا ؟

يقال هذا بمنزلة قولنا كيف يسمع وكيف يبصر وكيف يقدر وكيف يعلم وكيف استوى .

والجواب كما قال السلف مثل الإمام مالك وشيخه ربيعة بن أبى عبد الرحمن.

فإنه قد روى من غير وجه أن سائلا سأل مالكا عن قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ثم قال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب فتبين من هنا معرفة معنى الاستواء أما كيفه فمجهول وهكذا يقال فى سائر الصفات لأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات . فكما لا نعلم كيفية ذاته فكذلك لا نعلم كيفية صفاته . سبحانه وتعالى .

سادسا : إن قيل ينزل أمره تعالى . وأول نزوله تعالى بنزول أمره يقال فمن

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

أين ينزل ؟ [١] لأن المؤول ليس عنده فوق العالم شيء فمن أين ينزل الأمر ؟ من العدم المحض ؟ !!

سابعا : إن قيل ان الذى ينزل ملك قيل هذا باطل من وجهين :

الوجه الأول : أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض كما قال تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ .

وكقوله صلى الله عليه وسلم (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادى فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون) [٢] .

الوجه الثانى : أن الله تعالى يقول فى الحديث (من يسألنى فأعطيه ؟ من يدعونى فأستجيب له ، من يستغفرنى فأغفر له ؟) .

وهذه العبارة لا يجوز أن يقولها ملك عن الله عز وجل لأن الملك إذا نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول إن الله أمر بكذا .

ثامنا : إن قيل أن الذى ينزل رحمته تعالى .

فيقال إن رحمة الله تنزل كل وقت ولا تختص بثلث الليل الأخير ولا بوقت دون وقت .

تاسعا : يجيب الإمام ابن تيمية على من يسأل هل يخلو منه العرش سبحانه وتعالى حين نزوله . بأن الله ينزل كيف يشاء ولا يخلو منه المكان لأن نزوله ليس

---

(١) حيث إن المؤول للنزول مؤول أيضا للاستواء والعلو فعند المؤول أن الله تعالى ليس مستو وليست له فوقية ذاتية بل يؤول الاستواء بالاستيلاء والفوقية والعلو بالرتبة ومن هنا فليس عنده فوق العالم شيء حتى ينزل منه الأمر على حد تأويله .

(٢) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه)

كنزول البشر بل كيفية نزوله غير معلومة كسائر الكيفيات فى الصفات ، كما أن ذاته غير سائر الذوات ، وكنهها غير معلوم فكذلك كنه صفاته غير معلوم .

ويستدل الإمام ابن تيمية بقول الإمام ابن حنبل فى أن اللّه تعالى ينزل ولا يخلو منه العرش .

وحديث اسحاق ابن راهوية فى هذا المعنى أيضا [1] .

وقد ذكر طرفا من الكتاب الذى أرسله الإمام ابن حنبل إلى مسدد بن مسرهد عن السنة جاء فيه :

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أما بعد ...... ثم ذكر : « وينزل اللّه إلى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش » .[2]

ويستدل الإمام ابن تيمية أيضا - على أن اللّه ينزل إلى سماء الدنيا ولا يخلو منه العرش - بتلك المناظرة بين الجهمية واسحاق بن راهوية حين أنكروا نزوله تعالى لأنه يخلو منه العرش وقال لهم :أيسطيع اللّه سبحانه وتعالى أن ينزل ولا يخلو منه العرش أم لا يستطيع ؟ فسكتوا وافحموا .

لأنهم إن قالوا لا يستطيع أن ينزل إلا أن يخلو منه العرش فقد زعموا أن اللّه عاجز ، وقد كفروا .

وان زعموا أنه يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش ، فهو ينزل إلى السماء الدنيا كيف يشاء ولا يخلو منه المكان . لأنه قادر على ما يشاء [3] .

عاشرا : إن قيل أن الليل يختلف باختلاف البلدان والفصول فى التقدم

---

(١) الفتاوى ص ٣٨١ ج ٥

(٢) المرجع السابق ص ٣٨١ ج ٥

(٣) شرح حديث النزول لابن تيمية ص ١١٧

والتأخر والطول والقصر وجعلوا هذا دليلا على ما يتأولون عليه حديث النزول ، وهذا انما يصح إذا جعل نزوله من جنس نزول الأجسام (١) فيقال : الجواب عن هذا كالجواب عن خلو العرش منه حين نزوله أو عدم خلوه . وذلك أنه إذا جاز أن ينزل ولا يخلو منه العرش . فتقدم النزول وتأخره وطوله وقصره كذلك بناء على أن هذا نزول لا يقاس بنزول الخلق (٢) .

وينتهى الإمام ابن تيمية إلى أن نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا ثابت من غير تشبيه له تعالى بنزول المخلوقين ومن غير تمثيل ولا تكييف .

المقارنة بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية فى صفة النزول لله تعالى:

لقد سبق من خلال الدراسة لموقف الإمام ابن حنبل من صفة النزول أنه أثبت هذه الصفة لله تعالى من غير تأويل وقد ثبت ذلك عنه فى أكثر من موضع .

روى ذلك الخلال فى السنة وابن الجوزى فى المناقب وثبت ذلك أيضا فى كتاب الإمام ابن حنبل إلى مسدد بن مسرهد الذى فيه (وينزل ربنا إلى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش) (٣) وثبت ذلك فى كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ابن حنبل قال فيه :

أخبرنا محمد بن محمد بن الحسن ، حدثنى أبى ، ثنا أحمد بن محمد بن عمر اللبنانى ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ثنا أبى ثنا موسى بن داوود أبو معمر ثنا عباد ابن القوام قال : قدم علينا شريك فسألته عن الحديث (إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان) (٤) .

قلنا : إن قوما ينكرون هذه الأحاديث !!

قال : فما يقولون ؟

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦

(٢) الفتاوى ص ٣٨١ ج ٥

(٣) جلاء العينين للألوسى ص ١٨٦ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق .

قلت : يطعنون فيها ، فقال : ان الذين جاءوا بهذه الأحادث هم الذين جاءوا بالقرآن وبالصلاة وبالحج وبالصوم فما يعرف الله الا بهذه الأحاديث (١) .

ومن هنا يتبين أن موقف الإمام ابن حنبل من صفة النزول لله تعالى واثباته لها دون تأويل متقارب مع موقف الإمام ابن تيمية .

وأن ما نقل عن الإمام ابن تيمية من اثبات هذه الصفة لم يختلف عن تلك الرواية الثابتة عن الإمام ابن حنبل إلى مسدد بن مسرهد وهى مشهورة عند أهل الحديث والسنة من أصحاب الإمام وغيرهم حيث تلقوها بالقبول وذكرها أبو عبد الله بن بطة فى كتابه « الابانة » واعتمد عليها غير واحد كالقاضى أبى يعلى فى طبقاته . وذكرها الإمام الألوسى فى جلاء العينين .

ولقد ثبت عن الإمام بن حنبل أنه أثبت صفة النزول لله تعالى ولم يؤولها بل إنه غضب على ابنه عبد الله غضبا شديدا لما تطرق إلى ذهنه التأويل فقال ينزل بعلمه أم ماذا ؟ قال له الإمام ابن حنبل اسكت عن هذا التأويل .

ومن هنا كان لقاء الإمام ابن تيمية معه فى اثبات هذه الصفة دون تأويلها .

وقد اكد ذلك بقوله فى فتاويه :

(ان المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أن الله لا يزال فوق العرش ولا يخلو منه العرش مع نزوله إلى السماء الدنيا ولا يكون العرش فوقه) .

ثم يقول : وليس نزوله كنزول أجسام بنى آدم من السطح إلى الأرض بحيث يبقى السقف فوقهم بل الله منزه عن ذلك (٢) .

وقريبا من هذا قاله الإمام ابن حنبل فكما استوى كما أخبر لا كما يخطر على قلب بشر (٣) فكذلك ينزل كما أخبر لا كما يخطر على قلب البشر .

---

(١) الفتاوى ص ٣٨٧ ج ٥

(٢) حديث النزول ص ١٠٦

(٣) العقيدة السلفية ص ١٢١ ج ١

الخلاصة

إن تلك الصفات - التى كانت محل الدراسة ، والتى كانت موضع اهتمام الباحثين والتى اتهم الإمام ابن تيمية بسبب موقفه منها بالتشبيه والتجسيم - رأينا كيف كان الإمام ابن تيمية متفقا مع الإمام ابن حنبل بل مع السلف الذين تطابقت معه أقوالهم والتقت معتقداتهم ، وتقاربت اتجاهتهم .

ورأينا أنه يمكن اثبات هذه الصفات بدون اللوازم الباطلة كما أثبت الإمام ابن حنبل الرؤية بدون لوازمها وكما فعل ذلك أيضا بعض الأشاعرة كما سبق فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للإمام ابن تيمية ؟

وإذا قيل إن الإمام ابن حنبل لم يفعل ذلك إلا لأنه يحترم أصول منهجه ويحترم ما جاء به النص ، فلم لا يقال ذلك بالنسبة للإمام ابن تيمية ؟

إن العديد من النصوص الصريحة والثابتة تثبت ما أثبته الإمام ابن تيمية من الصفات وليس هناك نص واحد ينفيها.!!

بل إن هذا هو الثابت عن أئمة السلف وعن الإمام ابن حنبل نفسه فلا يقال بعدئذ أنه خارج عن الإمام ابن حنبل وبعيد عن الاتجاه السلفى .

ومن هنا فكيف يقال عن الإمام ابن حنبل أنه امتداد لمنهج السلف وأنه يمثل السلفية الحقيقية ومذهبه فى الإيمان بظاهر النص ورفض التأويل .

ورفض التفويض وهذا كله مقرر فى بحث علمى (١) ثم يقول صاحب البحث بعد ذلك إن الإمام ابن تيمية لا يستقيم انتماؤه إلى مذهب الإمام ابن حنبل . مع أن الإمام ابن تيمية لم يختلف فى عقيدته عن مذهب الإمام ابن حنبل !! بل ثبت

---

(١) المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام للدكتور محمد عبد الستار نصار ص ٥٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٠ ، ٥٤٢ ، ٥٨١ ، ٦٠٩ ، ٦٦٠ ، ٧٠١ وغيرها .

من خلال البحث مدى قربه من الإمام ابن حنبل فى المهج والتطبيق . وإذا كان الإمام ابن تيمية قريبا من الإمام ابن حنبل وقريبا من الاتجاه السلفى فيما ذكر من المسائل فإن هناك من المسائل ما قيل عنه فيها أنه مخالف للإمام ابن حنبل وبعيد عن الاتجاه السلفى فيها . فلنتعرف عليها .

• نماذج أخرى من المسائل المختلف فيها وتحقيقها :

لقد سبق الكلام عن بعض المسائل التى اتهم الإمام ابن تيمية بمخالفته للسلف فيها وتم تحقيقها وتبرئته منها وهى :

(١) قيام الحوادث بذاته تعالى .

(٢) تسلسل الحوادث .

(٣) الكلام بالصوت والحرف .

(٤) فناء النار .

(٥) عصمة الأنبياء .

(٦) الاشتغال بالمنطق والفلسفة :

(١) قيام الحوادث بذاته تعالى :

يقول الإمام ابن تيمية أن حلول الحوادث فى ذات اللّٰه عز وجل هو مذهب أكثر أهل الحديث وكثير من الفقهاء وبعض الفلاسفة والمتكلمين [١] .

ثم يؤكد الإمام ابن تيمية قوله بإثبات قيام الحوادث بذاته تعالى بأن الطرق الدالة على الإثبات والنفى إما السمع وإما العقل أما السمع فليس مع النفاة منه شىء بل القرآن والأحاديث هى فى جانب الإثبات كقوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقل اعملوا فسيرى اللّٰه عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ وأما الطرق العقلية فالمثبتون يقولون انها من جانبهم

(١) ابن تيمية موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ص ٩١ ج ٢

دون جانب النفاة كما تزعم النفاة أنها من جانبهم ، وذلك أنهم قالوا إن قدرته على ما يقوم به من الكلام والفعل صفة كمال كما أن ما يقوم به من العلم والقدرة صفة كمال ، ومن المعلوم أن من قدر على أن يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على ذلك .... (١) وبمناقشة الموضوع وتحقيقه :

يقال للإمام ابن تيمية : إن من قام به الحادث فهو حادث والحق سبحانه وتعالى ثبت قدمه فبطل قيام الحادث به ؟ !!

يجيب عن ذلك قائلا :

« وأما القول بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث : كلام مجمل فيه حق وباطل فيقبل منه ما كان صحيحا ويرد منه ما كان باطلا (٢) .

وتفصيله أن يقال :

إن كان مقصودكم بالحوادث حوادث محصورة معينة - علم أن لها بداية ونهاية - لاشك أن مالا يخلو من هذا النوع من الحوادث فهو حادث ، بخلاف مالا يخلو من جنس الحوادث المتعاقبة واحدة بعد أخرى إلى غير نهاية فهذا لا يكون ما لا يخلو منه حادثا عند كثير من العقلاء (٣) .

ويرد الإمام ابن تيمية على نفاة قيام الحوادث بالله تعالى فيقول لهم (٤) : أنتم تقولون أن الرب كان معطلا فى الازل لا يتكلم ولا يفعل شيئا ثم أحدث الكلام والفعل بلا سبب حادث أصلا فلزم ترجيح أحد طرفى الممكن على الآخر بلا مرجح ، وبهذا استطالت عليكم الفلاسفة وظننتم أنكم أقمتم الدليل على

---

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ضمن مجموع الفتاوى ج ٤ ص ٦٠ .

ابن تيمية : موافقة صريح المعقول ج ١ ص ٨٦

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) منهاج السنة ص ١٥٨ وما بعدها ج ١

حدوث العالم بهذا حيث ظننتم أن ما لا يخلو من نوع الحوادث يكون حادثا لامتناع حوادث لا نهاية لها ، وهذا الأصل ليس معكم به كتاب ولا سنة ولا أثر من الصحابة ، والنص والعقل دل على أن كل ما سوى اللّٰه تعالى مخلوق حادث كأئن بعد أن لم يكن .

ولكن لا يلزم من حدوث كل فرد مع كون الحوادث متعاقبة حدوث النوع ، فلا يلزم من ذلك أنه لم يزل الفاعل المتكلم معطلا عن الفعل والكلام ثم حدث ذلك بالسبب كما لا يلزم مثل ذلك فى المستقبل ، فإن كل فرد من المستقبلات المنقضية فان ، وليس النوع فانيا . كما قال تعالى : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ والدائم الذى لا ينفد أى لا ينفد نوعه وإلا فكل فرد من أفراده نافد منقض ليس بدائم ، وذلك أن الحكم الذى وصف به الأفراد إن كان المعنى موجودا فى الجملة وصفت به الجملة مثل وصف كل فرد بوجود أو بعدم ، فإنه يستلزم وصف الجملة بالوجود والعدم ، وأما إذا كان ما وصف به الأفراد لا يكون للجملة حكم الأفراد ، وكذلك إذا وصف كل واحد واحد من المتعاقبات بفناء أو حدوث لم يلزم أن يكون النوع فانيا أو حادثا بعد أن لم يكن ، لأن حدوثه معناه أنه وجد بعد أن لم يكن كما أن فناءه أنه عدم بعد وجوده ، وكونه عدم بعد وجوده أو وجد بعد عدمه يرجع إلى وجوده وعدمه لا إلى نفس الطبيعة الثابتة للمجموع [1] .

ثم يفرق الإمام ابن تيمية بين المجموع والأفراد فيقول : وهذا أمر يختص به المجموع لا يوصف به الواحد وإذا حصل للمجموع حكم يخالف به حكم الأفراد لم يجب مساواة المجموع للافراد فى أحكامه ، وفى الجملة فما يوصف به الأفراد قد توصف به الجملة وقد لا توصف به فلا يلزم من حدوث الفرد حدوث النوع إلا إذا ثبت أن هذه الجملة موصوفة بصفة هذه الأفراد [2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٨ - ١٥٩ ج ١

(٢) المرجع السابق .

• وخلاصة القول :

أن التعبير بقولنا « ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث » فهو تعبير صحيح فى نظر الإمام ابن تيمية إن أريد به آحاد الحوادث وأفرادها المتعاقبة فى الوجود فإن لكل واحد منها مبدأ ونهاية فما لم يخل منها فهو إما أن يكون معها أو بعدها وعلى كلا التقديرين يكون حادثا .

وأما إن أريد جنس الحوادث فهو تعبير باطل لأن الجنس يجوز أن يكون قديما وإن كان كل فرد من أفراده حادثا حيث إنه لا يلزم من حدوث كل فرد حدوث الجملة لأن للجملة حكما غير حكم الأفراد [1] .

و الإمام ابن تيمية يرى أن الله لم يزل متكلما فاعلا إذا شاء ، فكلامه قديم الجنس حادث الأفراد وكذلك فعله وارادته ، وهو يفرق بين ما كان من الصفات لازما لذاته تعالى أزلا وأبدا كالحياة والوجود ونحوهما فهذا لا يجوز أن يتأخر منه شيء كما أنه لا يكون متعلقا لمشيئته تعالى واختياره .

وأما ما كان من الصفات غير لازم للذات كالكلام والفعل وغيرهما ، فهو مما تتعلق به المشيئة والاختيار ولا يكون إلا حادثا شيئا بعد شيء وإن كان نوعه لم يزل موجودا [2] .

ويستدل بقول الإمام ابن حنبل وغيره من أئمة السلف :

« لم يزل الله متكلما إذا شاء » فإنه إذا كان كلامه تعالى وهو صفة قائمة به متعلقا بمشيئته واختياره دل ذلك على جواز قيام الحوادث بذاته لأن ما يتعلق بالمشيئة والاختيار لا يكون إلا حادثا .

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ١١٨

(٢) ابن تيمية : منهاج السنه ج ١ ص ٢٢٤

أقول : إذا حق له ذلك فقوله بقدم الجنس وحدوث الأفراد لا يزال غريبا يعز على العقل تصوره لأن الجملة ليست إلا الأفراد مجتمعه . فإذا فرض أن كل فرد منها حادث لزم من ذلك حدوث الجملة قطعا .

ولهذا يقول الدكتور هراس [1] :

كيف يقول الإمام ابن تيمية بقدم جنس الصفات والأفعال مع حدوث آحادها ؟ وَهل الجنس شيء آخر غير الأفراد مجتمعة ؟ وهل للكلى وجود إلا فى ضمن جزئياته ؟ فإذا كان كل جزئى من جزئياته حادثا فكيف يكون الكلى قديما ؟ ! .

ومهما يحاول الإمام ابن تيمية أن يقرر هذه القاعدة فإن فى تصورها صعوبة . ومع ذلك فلم يصعب عليه تصورها وذلك فهمه الخاص وفكره النافذ واجتهاده المأجور .

ولكن كان من السهل أن يسعه ما وسع الإمام ابن حنبل حين قال : « لم يزل اللّه متكلما إذا شاء » وإن كان الذى أراده الإمام ابن تيمية لم يخرج عما قال الإمام ابن حنبل إلا أن الإمام ابن حنبل لم يصرح بقيام الحوادث بذات اللّه لا نفيا ولا اثباتا .

● وأيضا يمكن أن نقول :

إن اللّه عز وجل لم يأمرنا بالتنقيب عن قيام الحوادث بذاته تعالى وكذلك رسوله صلى اللّه عليه وسلم وإذا كنا نعلم حسن القصد للإمام ابن تيمية وقد بينه بقوله : إن المقصود بالحوادث ما تعلق بمشيئته وارادته كالكلام والأفعال . فهو لا يرى بأسا من اطلاق هذا اللفظ ما دام المعنى المقصود صحيحا .

ولكن قد يقال إن المقصود قد يكون شيئا والملفوظ شيئا آخر . والتعامل دائما يكون مع الملفوظ لأنه الظاهر .

---

(١) ابن تيمية السلفى ص ١٣٦ ط اليوسفية طنطا .

وأيضا ان ما يسند إلى اللّٰه ورسوله يجب أن يكون توقيفيا بمعنى أنه لا يصح أن نطلق على اللّٰه ولا على رسوله شيئا من عند أنفسنا إلا إذا نطق به الكتاب أو وردت به السنة فأين الإمام ابن تيمية من كل ذلك حين يطلق على اللّٰه تعالى قيام الحوادث به ؟ !!

وقد يشفع للإمام ابن تيمية قوله : « إن لفظ الحوادث مجمل فقد يراد به الاعراض والنقائص واللّٰه منزه عن ذلك ، ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة » . ولكن قد يعترض عليه بأن كلامه وأفعاله وسائر صفاته قديمة فكيف يراد بها الحوادث ؟ .

وقد يجيب الإمام ابن تيمية على حسب قاعدته المعروفة (يقدم الجنس وحدوث الافراد) .

فيمكن أن يفهم من كلامه أن الحوادث قديمة بالنوع حادثة بالافراد وقد يعترض عليه بصعوبة تصور هذه القاعدة كما سبق لان الجنس ما هو الا الأفراد مجتمعة فإذا فرض أن كل فرد منها حادث لزم من ذلك حدوث الجميع قطعا .

وإذا أمكن أن يخرج من الاشكال بأن الحوادث قديمة فى علم اللّٰه حادثة فى الخلق والإيجاد ، فإن هناك ما هو أفضل من الخروج من الاشكال وذلك ألا يقع فيه أصلا !!

٢ - التسلسل :

لما كان القول بقدم جنس الصفات والأفعال مع حدوث آحادها وخروجها إلى الوجود شيئا بعد شيء لا إلى أول مستلزما للتسلسل فقد جوزه الإمام ابن تيمية فى الماضى والمستقبل وقرر أن مثل هذا التسلسل ليس ممتنعا .

وفى منهاج السنة [1] يذكر أن التسلسل نوعان :

---

(١) ابن تيمية ص ١٢١ ج ٢

(١) تستلسل فى المؤثرات كالتسلسل فى العلل والمعلولات وهذا ممتنع باتفاق العقلاء ومن هذا الباب تسلسل الفاعلين والخالقين مثل أن يقال : هذا المحدث له محدث وللمحدث محدث آخر إلى ما لا يتناهى فهذا مما اتفق العقلاء على امتناعه .

(٢) تسلسل فى الآثار كوجود حادث بعد حادث وهذا فيه أقوال ثلاثة :

١ - منعه فى الماضى والمستقبل جميعا وهو مذهب جهم وأبى الهذيل .

٢ - منعه فى الماضى فقط وهو مذهب اكثر أهل الكلام .

٣ - تجويزه فيهما وهو مذهب اكثر أهل الحديث وهو ما اختاره ابن تيمية [١] .

ولما كان المتكلمون يستدلون لابطال تسلسل الحوادث فى الماضى بأدلة من أهمها (برهان التطبيق) فقد رد عليه الإمام ابن تيمية [١] فقال : مثال ذلك أن يقدروا الحوادث من زمن الهجرة مثلا إلى ما لا يتناهى والحوادث من زمن الطوفان إلى ما لا يتناهى أيضا ، ثم يوازنوا بين الجملتين فيقولوا إن تساوتا لزم مساواة الزائد للناقص وهذا ممتنع وإن تفاضلتا لزم أن يكون فيما لا يتناهى تفاضل وهو محال .

والذين نازعوهم منعوا هذه المقدمة وقالوا لا نسلم أن حصول مثل هذا التفاضل فى ذلك ممتنع بل نحن نسلم أن من الطوفان إلى ما لا نهاية له فى المستقبل أعظم من الهجرة إلى ما لا نهاية له فى المستقبل ، وكذلك من الهجرة إلى مالا بداية له فى الماضى أعظم من الطوفان إلى مالا بداية له فى الماضى وأن كلا منهما لا بداية له فإن ما لا نهاية له من هذا الطرف وهذا الطرف ليس أمرا محصورا محدودا موجودا حتى يقال هما متساويان فى المقدار فكيف يكون

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ص ١٢١ ج ١ ملخصا

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠

أحدهما اكثر ؟ بل كونه لا يتناهى معناه أنه يوجد شيئا بعد شيء دائما فليس هو مجتمعا محصورا ، والاشتراك فى عدم التناهى لا يقتضى التساوى فى المقدار إلا إذا كان ما يقال عليه أنه لا يتناهى قدرا محدودا وهذا باطل فإن ما لا يتناهى ليس له حد محدود ، ولا مقدار معين ، بل هو بمنزلة العدد المضعف ، فكما أن اشتراك الواحد والعشرة والمائة والألف فى التضعيف الذى لا يتناهى ، لا يقتضى تساوى مقاديرها ، فكذلك هذا .

وأيضا فإن هذين هما متناهيان من أحد الطرفين وهو الطرف المستقبل ، غير متناهيين من الطرف الآخر وهو الماضى وحينئذ فقول القائل : للزم التفاضل فيما لا يتناهى غلط ، فإنه إنما حصل فى المستقبل وهو الذى يلينا وهو متناه ، ثم هما لا يتناهيان من الطرف الذى لا يلينا وهو الازل ، وهما متفاضلان من الطرف الذى يلينا وهو طرف الابد فلا يصح أن يقال وقع التفاوت فيما لا يتناهى إذ هذا يشعر بأن التفاوت حصل فى الجانب الذى لا آخر له وليس كذلك ، بل إنما حصل التفاضل من الجانب المنتهى الذى له آخر فإنه لم ينقض) .

● وبمناقشة هذا الموضوع وتحقيقه :

يتبين لنا أن اختيار ابن تيمية جواز التسلسل فى الآثار من جهة الماضى والمستقبل على السواء يعطى الفرصة للقائلين بأن هذا القول يربطه بالدهريين وأنه مهما حاول التفرقة بين نوعين من التسلسل أحدهما ممكن وهو التسلسل فى الآثار .

والآخر ممتنع وهو التسلسل فى العلل والمعلولات أقول إنه مهما حاول التفرقة بين نوعى التسلسل فإنه قد يقال له إن الأثر أمر اضافى لا يدرك إلا مع المؤثر وحينئذ فيلزمه أحد أمرين : إما ابطال التسلسل مطلقا فيكون مع المتكلمين وإما الاعتراف به مع عدم التفرقة فيكون مع الدهريين ومرة أخرى يقال للإمام ابن تيمية إن الدخول فى مثل هذه المتاهات الفلسفية والكلامية هى التى جعلته مرصدا للطاعنين .

وما كان أجدر به لو نأى بجانبه عن كل ذلك !

٣ - الصوت والحرف فى كلام الله تعالى :

يقول الإمام ابن تيمية [١] : ان الله تعالى متكلم بصوت كما جاءت به الآحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد .

لا صوت القارىء ولا غيره ، وأن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ، ولا فى أفعاله . فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه تشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد .

وبمناقشة هذا الموضوع وتحقيقه :

يتضح أن اثبات الصوت والحرف فى كلام الله تعالى يستلزم عدة اعتراضات منها :

- ان ذلك يستلزم حركة فى ذات الله عز وجل والحركة عرض لا يقوم إلا بجسم فيلزم على ذلك كونه تعالى جسما .

ولكن الإمام ابن تيمية يجيب عن ذلك بأن الصوت والحرف ليس من جنس أصوات المخلوقين وحروفهم .

وقد صرح بذلك فى نصه فى الفتاوى [٢] أن الله ليس كمثله شيء فكما لا يشبه علمه وقدرته علم المخلوق وقدرته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه تشبه حروفه ولا صوت الرب يشبه صوت العبد .

وأما ما يعترض به على الإمام ابن تيمية من أنه متناقض مع نفسه [٣] .

- لان القول أولا بأن كلامه تعالى بصوت وحرف ، ثم القول بعد ذلك لا كالاصوات ولا كالحروف لا ينفى التشبيه فإن التسليم أولا بالاشتراك فى المعنى العام وهو الصوت والحرف ثم القول ثانيا بأنه لا كالاصوات ولا كالحروف ، هذا

---

(١) الفتاوى ج ٥ ص ١٢١

(٢) ص ١٢١ ج ٥

(٣) منصور محمد عويس : ابن تيمية ليس سلفيا ص ١٦٢ ط / ١ ١٣٨٢ هـ القاهرة .

القول الثانى لا يسلب التشبيه ولا ينفيه وإن ادعى صاحبه نفى التشبيه لان الأساس الذى سلم به معنى من معانى الحدوث فكأنه يقول : حادث لا كالحوادث وفى هذا التناقض كل التناقض - أقول ما يعترض به على الإمام ابن تيمية من التناقض ليس بشىء .

لان الإمام ابن تيمية أثبت ما أثبته القرآن « وكلم الله موسى تكليما » وأثبت ما أثبتته السنة من حديث جابر بن عبد الله عن عبد الله بن أنيس سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان » (١) .

وبعد الاثبات نفى المشابهة وهذا هو التنزيه . فالاثبات ليس من عنده وانما أثبته الله ورسوله فكان كقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ ، فأثبت السمع والبصر ثم نفى المماثلة . وكذلك فعل الإمام ابن تيمية أثبت الصوت والحرف ثم نفى المماثلة وأما الاشتراك فى معنى الصوت والحرف فلا يعنى الاشتراك فى حقيقتهما وكيفهما فهما فى حق الله غيرهما فى حق العباد .كاليد والعين والسمع والاستواء والنزول .. فهى ألفاظ مشتركة فإذا أضيفت إلى الله تعالى كانت حقيقتها اللائقة بجلال الله وكماله . وإن اضيفت إلى المخلوق كانت بحسبه .

ولكن هل كان الإمام ابن تيمية قريبا من الإمام ابن حنبل فى اثبات الحرف والصوت فى كلام الله تعالى ؟ !!

إن ذلك يتأكد بما ثبت عن الإمام ابن حنبل فى الرد على الجهمية (٢) .

قال الخلال ... إن ابا عبد الله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت . قال بلى تكلم بصوت ... »

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ص ٤٥٣ ج ١٣

(٢) الإمام أحمد بن حنبل : الرد على الجهمية والزنادقة ص ٧٧ ط دار اللواء بالرياض .

ثم يذكر ... وأخبرنا المروزى سمعت أبا عبد الله وقيل له أن عبد الوهاب قد تكلم وقال من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمى عدو الله ، وعدو الاسلام فتبسم أبو عبد الله وقال ما أحسن ما قال عافاه الله (١) .

ويؤكد ذلك بحديث أبى سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا .. ألخ الحديث (٢) .

ومع تحقيق مدى قرب الإمام ابن تيمية من الإمام ابن حنبل فى هذه المسألة :

وجدنا كثيرا من النصوص للإمام ابن حنبل فى كتابه الرد على الجهمية تقربه من ذلك (٣) قال عبد الله بن أحمد سألت أبى عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت ؟

فقال أبى : بلى .. تكلم جل ثناؤه بصوت ، هذه الآحاديث نرويها كما جاءت .

وقال أبى حديث ابن مسعود « إذا تكلم الله سمع له صوت كمد السلسلة على الصفوان » .

ثم قال : حدثنا المحاربى عن الاعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد الله ، قال إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء فيخرون سجدا » (٤) .

ومن هنا يتبين لنا أن الإمام ابن تيمية لم يخرج عن السلف أيضا فى هذا الموضوع .

---

(١) ابن تيمية : الفتاوى ج ٥ ص ١١٤

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الانبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ٣٨٢/٦ عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) ص ٧٧ ط دار اللواء الرياضى سنة ١٣٩٧ هـ .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر المقدمة ج ١ ص ٨.

وأما ما يعترض به من أن القول بالحرف يؤدى إلى القول بالجوارح واللهوات .

وكذلك القول بالصوت يؤدى إلى القول بالحلق والحنجرة .

فيجاب عليه بأن الله تعالى يتكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فإنه قادر والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات .

وكذلك له صوت يليق به ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة (١) .

فكلام الله كما يليق به وصوته كما يليق به ولا ننفى الحرف والصوت لافتقارهما منا إلى الجوارح ، وإنهما فى جناب الحق لا يفتقران إلى ذلك .

(٤) فناء النار :

لقد نسب إلى الإمام ابن تيمية القول بفناء النار ولم أعثر فيما اطلعت عليه على نصوص مباشرة للإمام ابن تيمية فى هذه المسألة اللهم لا ما ذكره ابن القيم فى كتابه حادى الارواح (٢) وكذلك ما ساقه المستشرق جولد زيهر فى دائرة المعارف الاسلامية (٣) عند كلامه عن ابن قيم الجوزية فقال : إن ابن القيم قال بفناء النار وأنه اتبع فى ذلك شيخه ابن تيمية ، وكذلك تقى الدين السبكى (٤) وتقى الدين الحصنى (٥) والشيخ زاهد الكوثرى (٦) .

وبتحقيق هذه المسألة تبين أن فيها ثمانية أقوال خلاصتها (٧) :

---

(١) ابن شيخ الحزاميين الواسطى : معتقد أهل السنة والجماعة ص ٥٧ الطبعة الثانية قطر ١٣٧٩ هـ والواسطى هو أحمد بن إبراهيم الواسطى ولد سنة ٦٥٧ هـ .س

(٢) ص ٢٥٥

(٣) المجلد الأول ص ٢٦٨.

(٤) الاعتبار ببقاء الجنة والنار ص ٦٦

(٥) دمع شبهة من شبه وتمرد ص ٤

(٦) التعليق على السيف الصقيل ص ١٦٦

(٧) انظر العقيدة الطحاوية لابى جعفر الطحاوى تحقيق أحمد شاكر والشريعة للاجرى تحقيق حامد الفقى .

أحدها : أن من دخلها لا يخرج منها أبد الاباد وهذا قول الخوارج والمعتزلة .

والثانى : أن اهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم وهذا قول الاتحادية .

والثالث : أن اهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون . وهذا قول اليهود .

والرابع : يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد .

والخامس : أنها تفنى بنفسها وهذا قول الجهم وشيعته .

والسادس : تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادا لا يحسون بألم .

والسابع : أن اللّه يخرج منها من يشاء ثم يبقيها شيئا ثم يفنيها فإنه جعل لها أمدا تنتهى إليه .

والثامن : أن اللّه تعالى يخرج منها من يشاء ويبقى فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له .

يقول صاحب العقيدة الطحاوية [1] وما عدا هذين القولين الاخيرين ظاهر البطلان .

ثم ذكر أن هذين القولين لاهل السنة :

أى القول بأن اللّه يخرج من النار من يشاء ثم يبقيها شيئا ثم يفنيها فإنه جعل لها أمدا تنتهى إليه .

والقول الاخر : بأن اللّه تعالى يخرج منها من يشاء ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له .

فإذا ثبت أن هذين القولين لأهل السنة فالقول بأحدهما ليس خروجا عن السنة .

---

(١) ص ٣٧٥ تحقيق أحمد شاكر ط الرياض سنة ١٣٧٣ هـ .

وعلى فرض ذلك أى لو صح ما نسب إلى الإمام ابن تيمية فإن هناك من الأدلة ما يستند إليه ، لكنه لم يصح كما سيأتى [١]

● ومن هذه الادلة ما يلى :

قوله تعالى : ﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ﴾ ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لاهل الجنة ، وهو قوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ .

وهذا القول أعنى القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر ، وابن مسعود وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وغيرهم وقد روى عبد بن حميد فى تفسيره المشهور بسنده إلى عمر رضى الله عنه ، أنه قال : « لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه ، ذكر ذلك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ قالوا : والنار موجب غضبه والجنة موجب رحمته [٢] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : لما قضى الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش : ان رحمتى سبقت غضبى » .

وفى رواية « تغلب غضبى » [٣] .

قالوا : والله سبحانه وتعالى يخبر عن العذاب أنه : عذاب يوم عظيم « واليم »

---

(١) انظر التعليق ص ٣٦٤ - ٣٦٦ من الرسالة

(٢) ابن أبى العز الحنفى شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٦ وانظر حادى الأرواح للإمام ابن قيم الجوزية ص ٢٥٧ : ٢٧٣

(٣) رواه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

و « عقيم » . ولم يخبر ولا فى موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم . وقد قال تعالى : ﴿ عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ .

وقال تعالى : حكاية عن الملائكة : ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ فلأولى أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين ، فلو بقوا فى العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته ، وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة ، والمعذبون فيها متفاوتون فى مدة لبثهم فى العذاب بحسب جرائمهم ، وليس فى رحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الاباد عذابا سرمدا لا نهاية له ، وأما أنه يخلق خلقا ينعم إليهم ويحسن اليهم نعيما سرمدا فمن مقتضى الحكمة والاحسان مراد لذاته والانتقام مراد بالعرض .

قالوا وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج ، وأن عذابها مقيم ، وأنه غرام : كله حق مسلم لا نزاع فيه ، وذلك يقتضى الخلود فى دار العذاب ما دامت باقية وإنما يخرج منها فى حال بقائها أهل التوحيد . ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

● المناقشة :

قد يقال إنه إذا صح ما نسب إلى الإمام ابن تيمية فى القول بفناء النار ، فقد تكون الادلة المذكورة حصنا يحتمى فيها ولا يعتبر حينئذ خارجا عن السلف لان الرأى المنسوب إليه قد قال به غيره من السلف وقد ذكر شارح عقيدة الإمام الطحاوى [1] أن ذلك أحد رأيين لاهل السنة والجماعة .

ولكن قد يقال أيضا إن هذه الادلة يمكن حملها على عصاة المؤمنين لا على مطلق الكفار .

وأما ما أثر عن عمر رضى اللّه عنه فيمكن حمل قوله على سبيل الاستبعاد

---

(١) الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد الازدى : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥

ويؤيد ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « التخويف من النار » أن عمر رضى الله عنه مر بكثيب رمل فبكى .

فقيل له : ما يبكيك قال ذكرت أهل النار ، فلو كانوا مخلدين فى النار بعدد الرمل ، كان لهم أمد يمدون إليه أعناقهم ولكنه الخلود أبدا (١) .

وما يحتج به من سعة رحمة الله التى وسعت كل شىء وأن رحمته سبقت غضبه .

فيرد عليه بأن رحمته كتبها « للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

والمعروف عندأهل العلم أن الفاظ العموم فى اللغة قد تكون على اطلاقها وقد يراد بها الخصوص (٢) .

ومع ما يقال من أن الإمام ابن تيمية قد يشفع له فهمه الخاص لمفهوم الرحمة الإلهية وسعتها لكل شىء .

ومع أنه قد وردت نصوص تفيد بقاء النار وخلودها ، ونصوص قد لا تحتمل الخلود فالاولى ألا يقطع أحد بفناء النار لأنه أى الفناء أمر احتمالى لا قطعى ، وعلم ذلك عند الله تعالى .

● تعليق :

بقيت كلمة لعلها تلقى ضوءا أمام هذا الموضوع فتستنير به الحقيقة .

وحيث ان التجرد عن الذاتية والعصبية من أهم خصائص الباحث ، وإن التثبت من المعلومات من أهم وسائل البحث العلمى ، فكان الاولى فى مثل هذا الموضوع ما يلى:

(١) الا ننسب إلى الشخص أقوالا من معارضيه فى الاتجاه والمذهب .

---

(١) د. عوض الله حجازى : ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامى ص ٢١١ .

(٢) الإمام محمد بن ادريس الشافعى : الرسالة ص ٥٣ .

(٢) ان نتثبت من الاقوال المنسوبة ونعزيها إلى مصادر صاحبها نفسه .

ولكن الملاحظ فى هذا الموضوع أن أهم من نسبوا فناء النار إلى الامام ابن تيمية هم :

تقى الدين السبكى والشيخ زاهد الكوثرى وجولد زيهر .

وهؤلاء من المعارضين له فى الاتجاه والمذهب .

وأهم المصادر فى هذه النسبة :

الاعتبار ببقاء الجنة والنار [١] والتعليق على السيف الصقيل [٢] ودائرة المعارف الاسلامية [٣] وهذه كلها ليس فيها مصدر للإمام ابن تيمية نفسه !!

وبالبحث والتحرى وجدت نصوصا للإمام ابن تيمية تعارض ما نسبوه إليه وذلك فى « مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية [٤] .

يقول الإمام ابن تيمية فى الفصل ١٨ ص ١٠٩ عند ذكر صلى أهل النار فى سورة الاعلى وسورة الليل عند قوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الاشقى ﴾ .

يقول :

صلى أهل النار صلى خلود بخلاف صلى عصاة الموحدين ثم يقول وهذا الصلى قد فسره النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا

---

(١) لتقى الدين السبكى

(٢) للشيخ زاهد الكوثرى

(٣) جولد زيهر

(٤) تعليق وتصحيح عبد الصمد شرف الدين مصححة بالدار القيمة بتهانة بماى ومطبوعة بمطبعة « ق » بالهند سنة ١٣٧٤ هـ .

يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال : بخطاياهم فأماتتهم اماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

ثم يعلق الإمام ابن تيمية [١] على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بأن النار تصيب غير أهلها فيموتون فيها ولا يحيون فقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا الصلى لأهل النار الذين هم أهلها وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحما ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ثم يؤكد أن صلى أهل النار هو الصلى المطلق ، وصلى أهل التوحيد هو الصلى المؤقت بالخروج منها . وتحقيقه أن الصلى هنا هو الصلى المطلق وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب اليهم دائما .

فهل بعد قوله بخلود أهل النار والعذاب الدائم لهم واستدلاله على ذلك بالحديث الصحيح الذى أورده الإمام البخارى ومسلم ينسب إليه بعد ذلك قوله بفناء النار ؟!

إن التثبت من نسبة الاقوال إلى أصحابها والرجوع إلى مصادرهم نفسها من أهم العوامل فى احقاق الحق فى مجال البحث العلمى .

● الخلاصة :

إن نسبة القول بفناء النار إلى الإمام ابن تيمية يعارضها تلك الرواية التى أثبتناها وهى معزوة إلى صاحبها فى مصدره نفسه بينما غيرها من الروايات تنقصها الحجة ويتعرى عنها الدليل !!

---

(١) المرجع السابق ص ١١ .

٥ - عصمة الانبياء :

لقد كان موضوع عصمة الانبياء من الموضوعات التى وجه فيها النقد للإمام ابن تيمية واعتبار أن موقفه بعيد كل البعد عن السلف [1] .

وبتحقيق الموضوع ومناقشته اتضح من خلال الانتقادات الموجهة إليه أنه يثبت العصمة للانبياء فيما يتعلق بالوحى .

ولكن الناقدين يقولون أن لازم كلامه يفيد أنه يقول بجواز الخطأ ولكنه يمنع الاستمرار فيه .

وفيما يتعلق بالذنوب لا يثبت العصمة للانبياء سواء كان ذلك قبل النبوة أو بعد النبوة غير أنه يقول لابد للنبى أن يتوب .

وبالرجوع إلى نصوص الإمام ابن تيمية :

نجد قوله [2] :

« والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابته فلا يستقر فى ذلك خطأ باتفاق المسلمين » .

وإذا ناقشنا هذا الموضوع فلن نجد فيه انحرافا عن عقيدة السلف لأن الله تعالى يقول : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

ولكن الاعتراض علي أن لازم هذا القول بأنه غير معصوم فيما عدا الوحى .

وهل لازم القول يعتبر قولا،تلك قضية نوقشت من قبل واتضح أن لازم القول لا يعتبر قولا . ولم نلزم الرجل بما لم يقله ؟.

ولم لا يقال : إن الانبياء بشر،إلا أنهم يوحى إليهم ؟ ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد ﴾ .

---

(١) منصور محمد عويس : ابن تيمية ليس سلفيا ص ٢٥١

(٢) الفتاوى ج ٢ ص ٢٨٢

وقد نجد نصا للإمام ابن تيمية يعفيه مما نسب إليه يقول فى فتواه : والانبياء صلوات اللّه عليهم وسلامه كانو لا يؤخرون التوبة بل يسارعون اليها ويسابقون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك (١) .

فإذا كان هذا هو نص ما قاله الإمام ابن تيمية فما هو وجه النقد الموجه إليه ؟ وهل هو مخالف للسلف فيما ذهب إليه ؟!! .

ولم أعثر فى نصوص الإمام ابن تيمية ولا فيما وجه إليه ما يفيد ذلك ، فالانبياء معصومون فيما يبلغونه عن اللّه تعالى وهذا ما قاله الإمام ابن تيمية ولم يخرج عنه وكذلك لا يقرون على خطأ ولا يستمرون عليه وهذا ما عناه الإمام ابن تيمية . فيما نقل عنه .

٦ - الاشتغال بالمنطق والفلسفة :

لقد نسب إلى الإمام ابن تيمية الاشتغال بالعلوم الفلسفية والمنطقية وهذا يبعده عن منهجه النصى الذى قال فيه .

« إن الواجب طلب علم ما أنزل اللّه على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراده بألفاظ القرآن والحديث كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم . ثم إذا عرف ما بينه الرسول صلى اللّه عليه وسلم نظر فى أقوال الناس وما أرادوه بها فعرضت على الكتاب والسنة لينظر المعانى الموافقة للرسول والمعانى المخالفة له (٢) .

وممن نسب الاشتغال بالعلوم الفلسفية إلى الإمام ابن تيمية الإمام الذهبى (٣) يقول فى نصيحته للامام ابن تيمية :

---

(١) الفتاوى ص ٢٩١ ج ٢

(٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين فى المقدمة . ط. السنة لا هور باكستان .

(٣) ص ٣٣ بذيل بيان زغل العلم والطلب ، انظر د . محمد عبد الستار نصار المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام ص ٧٢٦ ط دار الانصار القاهرة .

« يا رجل : قد بلعت سموم الفلاسفة ومصنفاتهم مرات ، وبكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم » .

وبتحقيق هذا الموضوع ومناقشته :

نجد أن الإمام ابن تيمية لم يشتغل بتلك العلوم إلا لتفنيدها وبيان تهافتها والرد على أهلها . وبيان أن الكتاب والسنة هما الاساس ، ولهذا كان يعجب من هؤلاء الذين يفتشون عن الحكمة فى كل شىء ولا يفتشون عنها فى هذين المصدرين وكان يطلب اليهم النظر فيهما وهو واثق أنهم سيجدون ضالتهم من المعرفة إن أرادوا . ومن هنا كان لا ينطلق فى علمه من قواعد الفلسفة أو منطق اليونان وإنما جعل الشرع مقياسا يقيس عليه علومه كلها .

ولم يتأثر الإمام ابن تيمية أثناء دراسته لتلك العلوم كما تأثر غيره ولم يخرج منها مثخناً بالجراح كما ثلم غيره . قيل [1] عن الإمام الغزالى : « إنه دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » .

والإمام ابن تيمية نقد المنطق اليونانى وقال فيه :

« لا يحتاج إليه الذكى ولا ينتفع به البليد » [2] .

ويكفى كتابة « الرد على المنطقيين » وكيف أنه نقد المنطق الارسطى كله فنقد الحد والقضايا والقياس ولم يكن فى نقده مجرد هادم بل بين البديل عن ذلك وبين منهج الاستدلال فى القرآن الكريم وبين أن ذخائر العلم لا توجد فى مؤلفات اليونان بل فى علوم الاسلام فكأنه بذلك حل الفكر من قيود منطق اليونان ليصفه فى دائرة الشرع والنصوص ، ونقل العقل من قالب القواعد النظمية إلى قالب القواعد العقدية [3] .

---

(١) القائل هو ابو بكر بن العربى وكان من أخص أصحابه . ذكره الإمام ابن تيمية فى نقض المنطق ص٥٣

(٢) ابن تيمية : نقض المنطق ص ٣ ط باكستان لاهور .

(٣) الدكتور محمد الزين : منطق ابن تيمية ص ٣٦٨ ط المكتب الاسلامى لبنان .

ومن هنا فلا يقال إن اشتغاله بالمنطق نأى به عن المنهج النصى بل يقال إن الكتاب والسنة والاثار كانت سنده فى بحوثه كلها ومن هنا يمكن أن يقال إن الإمام ابن تيمية إن رد على الفلاسفة والمتكلمين والمنطقيين فإنما ليزيف منهجهم ويبطل حججهم وهو وإن ذم المنطق فإنما يعنى به منطق اليونانيين وإن ذم الجدل فإنما يعنى به الجدل العقيم .

ولا يُنسى له رده على الجهمية والصابئة والملحدين .

ومن مواقفه الفكرية التى لا تنسى تلك المسائل التى كان يثيرها أعداء الدين

قالت النصارى : عيسى كلمة الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فعيسى غير مخلوق .

وقالت الصابئة والجهمية : عيسى كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فهو مخلوق .

فيرد الإمام ابن تيمية بأن الفارق بين المضافين أن المضاف أن كان شيئا قائما بنفسه أو حالا فى ذلك القائم بنفسه ، فهذا لا يكون صفة لله . لأن الصفة قائمة بالموصوف فالأعيان التى خلقها الله قائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات الله ، والروح الذى هو جبريل من هذا الباب كقوله تعالى ﴿ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ (١) .

وكذا « الناقة » فى قوله تعالى ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ (٢) وأما ان كان المضاف إليه لا يقوم بنفسه بل لا يكون إلا صفة كالعلم والقدرة فهذا لا يكون إلا اضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه (٣) .

وهنا يفرق الإمام ابن تيمية بين ما يضاف اضافة ملك وبين ما يضاف اضافة وصف . والمسيح كلمة الله معناه أنه مخلوق بالكلمة إذ المسيح نفسه ليس كلاما

---

(١) مريم : ٢٧ (٢) الشمس : ١٣

(٣) ابن تيمية : جواب أهل العلم والإيمان ص ٩٠

بخلاف القرآن فإنه نفسه كلام ، والكلام لا يقوم بنفسه .

ثم يقول الإمام ابن تيمية [(١)] الكلام لا يقوم بنفسه ، ولا يقوم إلا بالمتكلم ، فإضافته إلى المتكلم اضافة صفة إلى موصوفها .

وبهذا استطاع الإمام ابن تيمية بفكره أن يرد على الملحدين دون أن يتأثر بمناهجهم بل كان له منهجه الخاص الذى لم يحد عنه وهو منهج أهل السنة والجماعة .

وإلى هنا أرجو أن تكون المقارنة بين الامامين فى العقيدة السلفية قد اتضحت معالمها .

● الخلاصة :

أنه بمقارنة الإمام ابن تيمية بالإمام ابن حنبل فى المنهج والتطبيق تبين أنهما متوافقان .

ولكن لم يكن توافق الإمام ابن تيمية للإمام ابن حنبل يوحى بأنه نسخة منه بل عرف عنه أنه لا يتبع الرجال على أسمائهم فليس لاحد عنده من مقام الا الدليل من الكتاب والسنة أو آثار السلف الصالح ومن نهج نهجهم .

فالحق عنده هو الحق يعرف به الرجال ولا يعرفه بهم كما اتضح أنه ما كان ينطلق فى علمه من قاعدة يمليها عليه مذهب معين وإنما كان الشرع هو مقياسه العام لجميع العلوم .

ومعنى هذا أنه لم يكن متعصبا فى تفكيره ازاء فكر معين يتعصب له أو يجمد عليه بل كان حر التفكير لا يقيده شىء إلا الكتاب والسنة وما وافقهما من الاثار وفى حدود هذا الاطار كان تفكيره وتطبيقه ومنهجه .

وعلى الرغم من آرائه المتعددة ومسائله الكثيرة .

---

(١) المرجع السابق ص ٩١

فقد انتقينا أهمها فى البحث والدراسة والمقارنة .

واتضح أنه مع موافقته للأمام ابن حنبل فى المنهج والتطبيق إلا أنه كانت له مسائل وآراء انفرد بها عنه ومنها كما سبق : قيام الحوادث بذات اللّٰه تعالى ، والتسلسل فى جانب الماضى والمستقبل ، والاشتغال بالمنطق والفلسفة .

ومع ذلك فلم تكن هذه المسائل لتبعده عن طريق السلف ، بل أخذ مكانه جنبا إلى جنب مع الإمام ابن حنبل على نفس الدرب والطريق .. درب السلفية الصحيحة ... وطريق أهل السنة والجماعة .

* * *

الخاتمة

نتائج البحث

لقد تعددت نتائج هذا البحث بحسب ما عرض من القضايا وما عالج من المشكلات .

● ومن أهم النتائج التى توصل البحث إليها ما يلى :

١ - إن العقيدة هى أساس هذا الدين وكل ما يبنى على غير أساس فمآله الهدم والانهيار ، ولهذا اهتم رسول الله ﷺ بارسائها وترسيخها ما يقرب من ثلاثة عشر عاما اكثر من نصف عمر الدعوة من أجل بناء الرجال على قاعدة صلبة واساس متين .

٢ - العقيدة السلفية : هى العقيدة الصحيحة التى وافقت الكتاب والسنة كمنبع صاف لا تشوبه شائبة التأويل والتعطيل أو التشبيه والتمثيل .

٣ - إن العقيدة السلفية هى الجديرة بأن تجمع المسلمين على كلمة سواء وتعصمهم من التفرق فى الدين .

٤ - قليل من الناس من يفقه حقيقة السلفية والكثير يجهلونها أولا يفهمونها حق الفهم ولا يعرفونها حق المعرفة فقد يشاع أن السلف مفوضون لا يعرفون من النص إلا مجرد قراءته مفوضين معناه إلى الله وحقيقة المذهب أنهم فاهمون لمعناه ولا يفوضون إلا الكيف .

٥ - قد يشاع عن السلف أن ظاهر النص غير مراد فيعطلونه ويهملونه وكأن الله ما أوحى به الا عبثا . وحاشا لله أن يكون الأمر كذلك .

٦ - إن قياس الغائب على الشاهد أدى إلى كثير من مشكلات التأويل والتعطيل .

٧ - إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مصاحبين للوحى الذى لا ينطق عن الهوى أو قريبى عهد به فكانوا أعبد الناس واتقاهم وأن من كان على مثل ما كانوا عليه وتشبه بهم كان معهم .

٨ - لقد تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بتفرق الأمة كما تفرق غيرها من الأمم وأن الناجية منها واحدة هى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، فعلى المسلمين الانتماء إليهم وترسم خطاهم .

٩ - إن ترك الوحى واتباع الرأى عزل للكتاب والسنة كمصدرين للهداية فى واقع الحياة وليس بعد الهداية إلا الغواية والضلال .

١٠ - ان الاشتراك فى اللفظ لا يلزم منه الاشتراك فى الحقيقة فإن كل لفظ بحسب ما يضاف إليه فإن هناك فرقا بين لفظ اليد إذا أضيفت إلى الله . أو أضيفت إلى غير الله .

١١ - إن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات فكما أن ذاته لا تشبه سائر الذوات فكذلك صفاته لا تشبه سائر الصفات .

١٢ - لا يصح تقديم العقل على النقل فيؤدى ذلك إلى التأويل وهو مجرد احتمال وتخمين أما النص فهو حقيقة ويقين .

١٣ - المجاز فى صفات الله ينفى الحقيقة وهو نوع من الكذب فى الخطاب والتمويه فى الأسلوب يجب أن ينزه عنه كلام الله الكريم .

١٤ - التأويل منه ما هو صحيح وهو اللغوى ومنه ما هو فاسد وهو الاصطلاحى فالصحيح ما وافق الكتاب والسنة والفاسد ما أخرج اللفظ عن ظاهره بما لا يوافق الكتاب والسنة وإنما بما يوافق اصطلاح المتكلمين .

١٥ - إن الخلاصة فى حقيقة مذهب السلف اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل على ضوء الآية الكريمة ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

١٦ المقارنة بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية أظهرت أنهما متفقان فى المنهج متقاربان فى التطبيق .

١٧ - قرب الإمام ابن تيمية من الإمام ابن حنبل على طريق السلف جنبا إلى جنب .

١٨ - تحقيق المسائل التى اشيع أن الإمام ابن تيمية مخالف فيها للسلف وتبرئته من ذلك .

١٩ - انفراد الإمام ابن تيمية ببعض المسائل التى خالف فيها الإمام ابن حنبل لم تخرجه عن السلفية .

* * *

التوصيات

● وحتى يكون للبحث واقع ملموس فإننا نوصى بما يأتى :

١ - العمل على اثراء عقيدة السلف دراسة وتطبيقا .

٢ - أن تكون دراسة العقيدة من مصدرها الأول الكتاب والسنة .

٣ - إعادة تقييم السلف على أنهم « الأسلم والأحكم والأعلم » .

٤ - اعادة صياغة السلفية وتنقيتها من الشعارات الزائفة والمظاهر الكاذبة والتنطع الجاهل البليد .

٥ - تشجيع الاتجاه السلفى كدراسة داخل كليات الجامعات وكسلوك وتطبيق خارجها وفى شتى دروب الحياة فإنه بقدر الاستمساك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بقدر ما يكون البعد عن الانحراف والضلال .

وفى الختام أرجو ألا تكون هذه التوصيات حبرا على ورق وإنى لأحملها للمسئولين أمانة فى أعناقهم أمام الله تبارك وتعالى . إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

المراجع والمصادر

أولاً : القرآن الكريم والسنة النبوية .

ثانياً : المطبوعات :

الأشعرى : أبو الحسن على بن اسماعيل - ٣٢٤ هـ الابانة عن أصول الديانة تحقيق الدكتوره فوقية حسين ط دار الانصار القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ

الألوسى : شهاب الدين السيد محمود - ت ١٢٧٠ هـ روح المعانى ط / منير الدمشقى .

الألوسى : نعمان بن محمود خير الدين - ١٣١٧ هـ جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين . ط المدنى بمصر ١٣٨١ هـ .

الأيجى : عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد ت ٧٥٠ هـ المواقف بشرح الشريف الجرجانى وحاشيتى السيالكونى والفنارى ط / ساسى القاهرة سنة ١٩٠٧ م .

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم الكامل فى التاريخ ط / القاهرة ١٢٩٠ هـ .

ابن بدران : عبد القادر بن أحمد الدمشقى المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ت ١٣٤٦ هـ ط / المنيرية القاهرة .

ابن تيمية : شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الدمشقى .

- الرد على المنطقيين طبعة بومباى ١٩٦٨ .
- نقض المنطق تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى وآخرين الطبعة الأولى .

- درء تعارض العقل والنقل تحقيق الدكتور رشاد سالم دار الكتب ١٩٧١ بالقاهرة والنسخة القديمة باسم موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول على هامش منهاج السنة طبعة ٣٢١ هـ .

- منهاج السنة النبوية تحقيق الدكتور رشاد سالم ١٩٦٢ - ١٩٦٤ جزءان والطبعة القديمة المطبعة الأميرية ببولاق ٣٢١ هـ .

- الاكليل فى المتشابة والتأويل طبعة صبيح ١٩٦٦ .

- الارادة والأمر طبعة صبيح ١٩٦٦ ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١٩٦٦

- الفرقان بين الحق والباطل طبعة صبيح ١٩٦٦ ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١٩٦٦ .

- شرح العقيدة الاصفهانية القاهرة ١٩٧٦ ضمن مجموعة الفتاوى الكبرى الجزء الخامس .

- نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان (مختصر السيوطى) طبعة السعادة بالقاهرة .

- النبوات : المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٦ هـ .

- تفسير سورة الاخلاص ط المحمدية بالقاهرة .

- المناظره فى العقيدة الواسطية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ الجزء الأول ١٩٦٦ صبيح .

- شرح العقيدة الواسطية شرح الدكتور محمد خليل هراس الطبعة الرابعة توزيع المكتب التعليمى السعودى بالمغرب .

- معنى القياس - ضمن مجموعة الرسائل الكبرى الجزء الثانى طبعة صبيح ١٩٦٦ .

- معارج الوصول إلى أصول الدين وفروعه نشرة قصى محب الدين الخطيب المطبعة السلفية ١٣٨٧ .

- الوصية الكبرى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى الجزء الأول صبيح القاهرة ١٩٦٦ .

- بغية المرتاد فى الرد على القرامطة أهل الالحاد ضمن مجموعة الفتاوى الكبرى الجزء الخامس ١٣٢٨ ط كرد ستان .

- الرسالة السبعينية ضمن مجموعة الفتاوى الكبرى الجزء الخامس ١٣٨١ هـ

- رسالة العبودية مطبعة أنصار السنة المحمدية ١٩٧٤ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .

- رسالة فى الحقيقة والمجاز المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥١ .

- شرح حديث النزول المكتب الاسلامى بيروت ودمشق ١٩٦٢ .

- مراتب الارادة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى صبيح ١٩٦٦ .

- درجات اليقين ضمن مجموعة الرسائل الكبرى صبيح ١٩٦٦ .

- مجموعة الرسائل والمسائل ط المنار تحقيق محمد رشيد رضا ١٣٤١ هـ .

- مقدمة فى أصول التفسير ط السلفية ١٣٨٥ هـ .

- الرسالة التدمرية المكتب الاسلامى بيروت الطبعة الأولى .

- عقيدة أهل السنة دار الطباعة المحمدية تحقيق عبد الرزاق عفيفى .

- الرد على الجهمية تحقيق محمد حامد الفقى ١٩٥٦ .

- العقيدة الحموية الكبرى صبيح ١٩٦٦ ضمن الرسائل الكبرى الجزء الأول .

- كتاب التوحيد تحقيق الدكتور محمد الجليند دار الفكر الحديث للطباعة ١٩٧٣ .

- الرد على فلسفة ابن رشد ضمن مجموعة المكتبة المحمودية التجارية بالقاهرة .

- الرسالة التسعينية ط كردستان العلمية بالقاهرة ١٣٢٩ هـ ضمن المجلد الخامس من مجموع الفتاوى الكبرى .

- رسالة فى الجواب عمن يقول أن صفات الرب تعالى نسب واضافات . تحقيق الدكتور رشاد سالم ١٩٦٩ « ضمن مجموعة الرسائل » .

- رسالة فى تحقيق مسألة علم اللّه تحقيق الدكتور رشاد سالم « ضمن مجموعة جامع الرسائل » .

- مسألة صفات اللّه تعالى وعلوه على خلقه بين النفى والاثبات ضمن مجموعة الرسائل والمسائل الجزء الأول الرسالة الثامنة . تحقيق السيد محمد رشيد رضا .

- عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات والأحاديث وكونه فوق العالم ومعنى التوجه إليه بالدعاء إلى جهة العلو وبطلان ما قيل من أن العرش وهو الفلك الناسع عند علماء الهيئة اليونانية تحقيق السيد محمد رشيد رضا .

- كتاب الايمان الطبعة الأولى القاهرة ١٣٢٥ هـ .

- فتاوى ابن تيمية ط القاهرة ١٩٢٦.

- مجموع فتاوى ابن تيمية ط الرياض سنة ١٣٨٣ هـ .

ابن قيم الجوزية : الإمام شمس الدين أبى عبيدة محمد بن أبى بكر الدمشقى

- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة مختصر الموصلى تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى وعبد الرازق حمزة مكة ١٣٤٨ .

- أعلام الموقعين عن رب العالمين الطبعة الثانية ١٩٥٥ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

- اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية ط الإمام بدون تاريخ .

- شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل المطبعة الحسينية ١٣٢٣ هـ القاهرة .

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة السعادة ١٣٢٣ القاهرة .

- مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى السنة المحمدية ١٩٥٥ م .

- القصيدة النونية شرح الشيخ محمد خليل هراس مطبعة الامام بالقاهرة .

ابن الأثير : عز الدين بن محمد الشيبانى :

- النهاية فى غريب الحديث ط الحلبى تحقيق د . محمود الطناحى ١٩٦٣ وطاهر الزواوى .

ابن عساكر الحافظ : أبو القاسم على بن الحسين بن هبة الله بن عساكر الدمشقى .

- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ .

ابن السبكى : قاضى القضاه تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضى القضاة أبى الحسن المشهور بالسبكى .

- جمع الجوامع بولاق ١٣٨٥ هـ .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر ابن خلكان .

- وفيات الأعيان مطبعة السعادة ١٩٤٩ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد طبعة أولى .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفضل أحمد بن على ت ٥٩٧ هـ

- دفع شبهة التشبيه مطبعة الترقى ١٣٤٥ هـ

- مناقب الامام أحمد ط القاهرة ١٩٤٩ م
ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ت ٨٥٢ هـ .
- تهذيب التهذيب دائرة المعارف بالهند سنة ١٣٢٧
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى دار الفكر المطبعة السلفية بالروضة بمصر
ابن حجر آل أبو طامى : أحمد بن حجر بن على
- العقائد السلفية - المطبعة الأولى بيروت ١٩٧٠
ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد ت ٤٥٦ هـ
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل ط القاهرة ١٣٢١ هـ
ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى
- كتاب السنة ط الحلبى بمصر
- الرد على الجهمية والزنادقة تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة ط دار اللواء الرياض .
- الورع ط القاهرة ١٣٤٠ هـ
ابن حنبل : عبد الله بن الإمام أحمد .
- كتاب السنة ط مكة المكرمة سنة ١٣٤٩ هـ .
ابن خزيمة : محمد بن اسحاق ت ٣١١ هـ
- كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل راجعه وعلق عليه الشيخ محمد خليل هراس ط القاهرة سنة ١٩٦٨
ابن رجب الحنبلى : زين الدين أبو الفرج ت ٧٩٥ هـ
- فضل علم السلف على الخلف ط الحلبى - القاهرة ١٣٤٧
ابن قتيبة : أبو مسلم عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ

- الاختلاف فى اللفظ تعليق الشيخ زاهد الكوثرى ط / القاهرة ١٣٤٩ هـ.
- تأويل مشكل القرآن تحقيق الأستاذ سيد صقر ط / القاهرة ١٣٧٣ هـ
- تأويل مختلف الحديث تحقيق محمد زهرى النجار ط / القاهرة ١٩٦٦ م .
ابن قدامه : موفق الدين ابو عبد الله أحمد بن محمد ت ٦٢٠ هـ
- ذم التأويل ط القاهرة ١٣٥١ هـ .
ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر ٧٧٤ هـ
- البداية والنهاية ط القاهرة ١٩٣٢ م
- تفسير القرآن العظيم ط احياء الكتب العربية
ابن النديم : ابو الفتوح محمد بن اسحاق ٣٨٥ هـ
- الفهرست ط القاهرة ١٩٣٠ م
ابن هشام : محمد بن عبد الملك
- سيرة بن هشام ط القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ
أبو داود : سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥ هـ .
- رسالة ابى داود إلى أهل مكة تحقيق محمد الصباع ط المكتب الاسلامى بيروت ١٤٠١ هـ .
أبو عبيده : معمر بن المثنى ت ٢٠٩ هـ
- مجاز القرآن تحقيق « ريتر » وفؤاد سرجين ط القاهرة ١٩٥٤ م
أبو نعيم : أحمد عبد الله ت ٤٣١ هـ
- حلية الأولياء ط القاهرة سنة ١٩٣٨ هـ
البخارى : الامام ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة
- صحيح البخارى ط الشعب ١٣٧٩ هـ

– خلق افعال العباد تحقيق الدكتور سامى النشار وعمار طالبى منشأة المعارف اسكندرية ١٩٧١ .

الباقلانى : أبو بكر بن الطيب ٣ . ٤ هـ

– الأنصاف تحقيق الشيخ زاهد الكوثرى – الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٣ م .

البغدادى : عبد القادر بن طاهر ت ٤٢٩ هـ

– أصول الدين ط استانبول ١٩٢٨ م

– الفرق بين الفرق تحقيق الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ط صبيح

البيهقى : أبو بكر بن الحسين ت ٤٥٨ هـ

– الأسماء والصفات ط دار احياء التراث العربى بيروت

– الاعتقاد على مذهب السلف ط القاهرة ١٩٦١ م

التفتازانى : سعد الدين مسعود بن عمر ٧٩٣ هـ

– شرح العقائد النسفية ط الحلبى القاهرة

الجوينى : امام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ٤٧٨ هـ

– الارشاد إلى قواطع الأدلة تحقيق الدكتور محمد يوسف موسى ط القاهرة ١٩٤٨

– الورقات اعداد الدكتور عبد اللطيف العبد ط دار التراث سنة ١٣٩٧هـ .

الحصنى : تقى الدين أبو بكر ٨٢٩ هـ

– دفع شبهة من شبه وتمرد ط القاهرة . ١٣٥ هـ

الدارمى : عثمان بن سعيد ت . ٢٨ هـ

– الرد على الجهمية ضمن مجموعة عقائد السلف للنشار ط المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧١ .

الذهبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ

- العلو للعلى الغفار تقديم ومراجعة عبد الرحمن عثمان ط القاهرة ١٩٦٨ م

الرازى : فخر الدين محمد بن عمر ت ٦٠٦ هـ

- اساس التقديس ط القاهرة سنة ١٩٣٥ هـ

الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر سنة ٥٣٨ هـ

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ط الأميرية ببولاق سنة ١٣١٨ هـ

السبكى : تقى الدين على بن الكافى ت ٧٥٦ هـ

- الاعتبار ببقاء الجنة والنار مطبعة الترقى سنة ١٣٤٧ هـ

- السيف الصقيل فى الرد على ابن زفيل ط القاهرة سنة ١٩٣٧ م

السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على ت ٧٧١ هـ

- طبقات الشافعية . ط . القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ

السيالكوتى : عبد الحكيم .

- حاشية على شرح العقائد النسفية . ط . القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ

- الاتقان فى علوم القرآن ط . الحلبى القاهرة سنة ١٩٥١ م

- صون المنطق . تحقيق الدكتور على سامى النشار .ط . القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

الشافعى : الأمام محمد بن ادريس ت ٢٠٤ هـ

- الأم ط القاهرة ١٣٢١ هـ

- الرسالة ط القاهرة . ١٩٤ هـ

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ

- الملل والنحل تخريج الدكتور محمد بن فتح الله بدران القاهرة ١٩٥٦ م .
الشوكانى : محمد بن على بن محمد ت ١٢٥٥ هـ
- التحف فى مذهب السلف ط المدنى جده السعودية .
الصابونى : أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن .
- عقيدة السلف ط الكردى القاهرة ١٣٢٥ هـ
الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ
- تاريخ الأمم والملوك القاهرة ١٣٢٦ هـ .
الطحاوى : حجة الاسلام أبو جعفر أحمد بن سلامه ت ٣٢١ هـ
- العقيدة الطحاوية مع الشرح تحقيق أحمد شاكر ط الرياض السعودية .
الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥ هـ
- الجام العوام عن علم الكلام ط القاهرة سنة ١٩٣٢ هـ
- تهافت الفلاسفة تحقيق الدكتور سليمان دنيا - ط القاهرة ١٩٥٨ م
القرطبى : محمد بن أحمد ت ٦٧١ هـ
- الجامع لاحكام القرآن ط القاهرة ١٩٦٧ هـ
الشيخ محمد أبو زهرة :
- تاريخ المذاهب الاسلامية نشر دار الفكر - العربى بالقاهرة ط / دار الثقافة - مصر .
- الامام ابن حنبل حياته وعصره ط مخيمر بالقاهرة ١٩٤٨
- الامام ابن تيميه حياته وعصره ط دار الثقافة .
الدكتور محمد البهى :

- الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ط القاهرة ١٩٦٢
- الفكر الاسلامى الحديث ط القاهرة ١٩٥٣ م
الدكتور محمد خليل هراس :
- ابن تيميه السلفى الطبعة الأولى - المطبعة اليوسفية بطنطا ١٣٧٢ هـ .
الأمام محمد عبده :
- رسالة التوحيد الطبعة السادسة القاهرة ١٣٥١ هـ
الدكتور محمد يوسف موسى :
- ابن تيمية ط القاهرة ١٩٦٢
الشيخ منصور عويس :
- ابن تيمية ليس سلفيا القاهرة ١٩٧٠ م
الدكتور يحى هاشم فرغل :
- الأسس المنهجية لبناء العقيدة الاسلامية دار الفكر العربى ط دار القرآن بالأزهر سنة ١٩٧٨ م .

ثالثاً : المخطوطات

المسائل عن أمامى أهل الحديث :
أبى عبد الله أحمد بن حنبل وأبى يعقوب اسحاق بن راهوية دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٧٥٥ ب .
مسائل صالح بن الأمام أحمد بن حنبل :
دار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٦٨١ ب .
ايضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل :

دار الكتب المصرية تحت رقم ٦٠٦ علم الكلام .

ذكر محنة أحمد بن حنبل بقلم حنبل بن اسحاق :

مخطوطات المكتبة التيمورية تحت رقم .

ثالثا - الرسائل الجامعية :

الدكتور عبد العزيز سيف النصر :

العقيدة الاسلامية بين التأويل والتفويض - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه جامعة الأزهر - كلية أصول الدين للدكتور عبد العزيز سيف النصر .

الشيخ عثمان عبد الله آدم :

الصفات الخبرية بين الاثبات والتأويل رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير جامعة الملك عبد العزيز - كلية الشريعة بمكة المكرمة .

سيد عبد العزيز محمد السيلى :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين أهل السنة والمعتزلة رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير جامعة الأزهر - كلية أصول الدين .

الدكتور زاهر عواض الألمعى :

مناهج الجدل فى القرآن الكريم - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه جامعة الأزهر كلية أصول الدين .

الدكتور عبد الله عبد المحسن التركى :

أصول مذهب الأمام أحمد - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه جامعة الأزهر كلية الشريعة .

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الايداع
٩٣/٣١٧٢
977-5254-35-3

شركة الطباعة العربية الحديثة
ت: ٧٦٩٠٦٤ - شبرا مصر